سيكولوچية الأسرة

الرجل - المرأة - تربية الأبناء

تأليف

أ / مايكل نبيل

ماجستير فى التربية (قسم معلم فصل)



مؤسسة شباب الجامعة
40 ش د / مصطفى مشرفة
تليفاكس :4839496 الإسكندرية
Email:shabab_elgamaa2@yahoo.com

سيكولوجية الأسرة

الرجل – المرأة – تربية الأبناء

تأليف

مايكل نبيل

ماجستير فى التربية (قسم معلم فصل)

٢٠١٤

الناشر

مؤسسة شباب الجامعة

٤٠ شارع الدكتور مصطفي مشرفة

إسكندرية – تليفاكس : ٤٨٣٩٤٩٦

Email:Shabab_Elgamaa2@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

التقديم

الأسـرة، ذلك الكيـان الإنسـانى المكون من الأب والأم والأبناء، هى نواة المجتمع، وأساس قوة الأمة.. فما الدولة أو الأمة سوى مجموعة أفراد، ومجموعة أسر، كلما قويت، قويت معها وبسببها الأمة والمجتمع.

وكتابنا هذا عبارة عن سياحة نفسية تربوية فى دنيا الرجل، ودنيا المرأة، ودنيا التربية للأبناء.. وهذه هى وحدات الكتاب: سيكلوچية الرجل والمرأة.. والعلاقة بين الرجل والمرأة (فى الزواج).. وفن تربية الأبناء وسيكلوچية الأسرة.

ففى الوحدة الأولى، نتأمل فى التركيبة النفسية للرجل، والتركيبة النفسية للمـرأة، وما هى الرجولة، وما هى الأنوثة، والتعـرف على قـدرات الرجل، وعلى قـدرات المرأة، ونظرة الرجل الشـرقى للمـرأة، وهل المرأة أقل من الرجل أم أنهـا مساوية له فى القيمة الإنسانية والكرامة؟، وكيفية التعامل الإنسانى مع الجنس، وغير ذلك من الموضوعات التى تدخل فى إطار التحليل النفسى والسيكولوچى لشخصية الرجل، وشخصية المرأة.

وهذه الوحدة الأولى هى بمثابة تمهيد ضرورى للوحدة التالية، وهى الوحدة الثانية التى تتحدث عن العلاقة بين الرجل والمرأة (فى الزواج)، وكيف ينجح الزواج؟، وما هى مقومات هذا النجاح؟ وما معنى السعادة الزوجية؟ وكيفية التغلب على عقبات الزواج؟.

وعندما تكون العلاقة سوية بين الرجل والمرأة (فى الزواج)، فهذه العلاقة هى المدخل الضـرورى للنجاح فى تربيـة الأبناء،نتـاج وثمـار الزواج.. وهنا نأتى إلى الوحدة الثالثة التى تتحدث عن «فن تربية الأبناء»، ونتعرف من خلال هذا الفن عن معانى تربوية مهمة، وطرق التعامل مع الأبناء من نواحى التشجيع والجمال والقدوة والايحاء، والتأديب التربوى، والتحكم فى الذات، وغير ذلك.

ثُمَّ نأتى إلى الوحدة الرابعة التى تتحدث عن سيكولوچية الحياة الأسرية بصفة عامة، بما يقترب من صورة الأسرة المثالية الرائعة!.

ويمكنك - يا عزيزى - اعتبار هذا الكتاب أو هذه الدراسة نبراساً أو مصباحاً للأسرة، أب وأم وأبناء.. وهى خلاصة دراسات تربوية عديدة متشعبة، أردت أن اركزها فى هذا الكتاب الذى بين يديك.. فإذا قرأته واعجبك، فلا تكتف بالاعجاب، لأن الاعجاب بالشيء، لا يكفى وحده، بل لابد أن تعمل على تنفيذ هذا الشيء، لذا فهو كتاب عملى أكثر مما هو نظرى!.

مايكل نبيل



المحتويات

الموضــوع	الصفحة

الوحدة الرابعة
سيكولوجية الأسرة

الوحدة الأولي

سيكولوچية الرجل والمرأة

الوحدة الأولى
سيكولوچية الرجل والمرأة

أولاً: من هو الرجل؟. و من هي المرأة؟

ليس من السهل الاجابة على هاذين السؤالين.. فأحياناً يبدو السؤال بسيطاً ولكنه فى حقيقته صعباً، وقد تتطلب الاسئلة البسيطة الهينة، اجابات عميقة.. وكأن البساطة ليست بساطة معنى بل بساطة طرح وعرض فحسب!.

وجلية الأمر أن الرجل والمرأة يشكلان معاً كياناً إنسانياً واحداً متحداً، فالإنسان يُشبَّه بعملة ذات وجهين متلازمين: الوجه الأول هو وجه الرجل.. والوجه الثانى هو وجه المرأة.. وقيمة الإنسان تتحدد أساساً بوجود الرجل والمرأة معاً، فى الأسرة.. وفى المجتمع.. فهما «نصفان للكل: لكل الإنسان».. وإن كان الرجل هو من المرأة، فالمرأة هى من الرجل.. فالمرأة أُخذت من ضلع الرجل، والرجل وُلد من رحم المرأة.. لذلك فهذه «العملة الإنسانية» بوجهيها، ينبغى أن تظل محتفظة بوجهيها معاً بلا تشوه ولا محو لأى وجه أو لأى صورة منهما.. ووجود الرجل والمرأة فى الحياة، هو وجود إنسانى له قيمته واهميته وتكامله.. فلكل من الرجل والمرأة كيانه وفرديته وشخصيته وتميزه، ولا يستطيع عقل حكيم ولا نفس سوية أن تهدر كرامة أياً منهما لحساب الآخر.. فليس حسناً أن تسود افكار الافضلية والاهمية لجنس على جنس آخر.

فهل يمكننا أن نعلّى أو نعظم دور الرجل على دور المرأة فى المجتمع ؟.. أو هل يصح أن نعطى الافضلية والاهمية لجنس الرجل عن جنس المرأة؟.. أليس الاثنان خليقة الله، وموضوعان لرعايته؟.. وأليس الاثنان (الرجل والمرأة) مخلوقان لكى يتكاملا معاً فى الأسرة والمجتمع والحياة؟.. فالحياة الإنسانية هى حياة «إنسان» لا

«إنس»!.. فما الفرق؟.. إن كلمة «إنس» هى كلمة مفردة، أما كلمة «إنسان» فهى كلمة مثناه.. فالرجل هو «إنس» فقط، بمعنى أنه «فرد إنسانى مفرد لا مزدوج»، وهو يحمل «إنس ذكرى»، وبالتالى هو يحمل نصف القدرات والامكانات الإنسانية المخلوقة.. والمرأة وحدها هى «إنس» فقط، باعتبارها «فرد إنسانى مفرد لا مزدوج» أيضاً، مثلها مثل الرجل وحده.. أما إذا جمعنا الرجل بالمرأة.. وتلاقى «الإنس الذكرى» مع «الإنس الأنثوى»، فنتيجة هذا الجمع وهذا التلاقى الإنسانى هو وجود الكيان الإنسانى الكامل المسمى بـ «الإنسان» المثنى الذى هو «إنس ذكرى + إنس أنثوى».. وبالمناسبة، فإن جمع كلمة «إنس» هو: كلمة «أناس».. إذاً «إنس» مفرد، و «أناس» جمع، و «إنسان» مثنى. وهكذا تتكامل صفات وامكانات الإنسان بالرجل والمرأة معاً، وعلى مستوى إنسانى!.

والحكمة تقول: «اثنان خير من واحد»!.. ونلاحظ أن اختلاف الجنسين ما بين رجل وامرأة هو اختلاف له حكمته لتحقيق التعاون والتكامل والتواءم فيما بينهما.. وإلا لما كان هناك سوى جنس واحد سائد فى البشرية.. إنما الحكمة اقتضت وجود الجنسين معاً جنباً إلى جنب. وتكاد تكون «فكرة التكامل» هى أساس وجود الجنسين (الرجل والمرأة) وتفاعلهما معاً، بل وهى أساس وجود «الاختلافات الطبيعية» بينهما.. فالرجل «بنكهته الرجولية» وصفاته الخاصة بالرجولة.. والمرأة «بنكهتها الأنثوية» وصفاتها الأنثوية، يتكاملان معاً.. فما ينقص فى جانب، يوجد فى الجانب الآخر.. ويثرى كل منهما الآخر، ويثرى كل منهما الأسرة والمجتمع والجماعة والحياة.

ولا يعنى هذا أن الرجل له صفات محددة مقصورة عليه، وكذا المرأة لها صفات مقصورة على جنسها الأنثوى.. إنما العلم والحقيقة يثبتان غير ذلك.. فالصفات الإنسانية واحدة لدى الإنسان، وغير قابلة للتجزئة أو الانقسام.. فالصفات الإنسانية توجد لدى الرجل كما لدى المرأة، ولكن «بدرجات متنوعة

ومتفاوتة».. فالصفة هي هي، ولكن لها تنوعها أو تفاوتها ما بين الرجل، والمرأة.. وأيضاً لها «نكهتها الرجولية أو الأنثوية».. لذلك، فالرجل والمرأة يتقاسمان فيما بينهما «الصفات الإنسانية» فى «تكاملية إنسانية»، ولكن «بصورة مختلفة أو متفاوتة أو خاصة». وبالطبع للتنشئة الاجتماعية، والبيئة، والتربية الذراع الطولى فى ظهور أو تجلى هذه الصفة أو تلك لدى الرجل، ولدى المرأة.

ولايضاح هذه الفكرة المهمة، نضرب مثلاً بوجود صفة «العاطفية» المشهورة بها المرأة مثلاً.. فهل يمكننا أن نقصر صفة «العاطفية» أو نتصور أن وجود «العاطفة» مقصور على المرأة فقط؟.. إن الواقع يكذب ذلك.. كيف؟.. هناك رجال عاطفيون، بل هناك من الرجال من يتفوقون فى عاطفيتهم عن المرأة ذاتها.. ونفهم من ذلك أن صفة «العاطفية» مثلاً موزعة ما بين الرجولة والأنوثة.. فالرجل عاطفى باعتباره إنسان.. والمرأة كذلك لكونها إنسان أيضاً.. و«العاطفية» صفة إنسانية لا يخلو – أو يجب ألا يخلو منها – بشر.. ولكن يمكننا القول أن درجة أو كون أو صورة «العاطفية» هى التى تتنوع ما بين الرجل والمرأة.. من خلال «نكهة» كل من الرجولة والأنوثة!. فـ «العاطفية» لدى الرجل لها طابعها الخاص «الرجولى»، ولكنها موجودة.. و«العاطفية» لدى المرأة لها طابعها «الأنثوي» الخاص.

وكمثال آخر، وجود صفة «التفكير المنطقى» المشهور بها الرجل.. فهل هذه الصفة صفة «رجالى» فقط، وليس للمرأة فيها نصيب؟.. ألم يكشف لك الواقع عن سيدات لهما النصيب الوافر من الذكاء والتحليل المنطقى والقدرة على الاستنتاج والتحليل وكثير من القدرات العقلية الاخرى.. وصفة «العقلانية» هى صفة إنسانية أيضاً، ولذا فهى موجودة فى الإنسان، بحكم كونه إنساناً وكفى أياً كان جنسه، رجلاً كان أم امرأة.. ولكن وجود هذه الصفة «العقلانية» لها وضعها لدى الرجل عنها لدى المرأة.. فهناك الوضع «الرجولى» لهذه الصفة، بشكل

وترتيب وكيان معين. وهناك الوضع «الأنثوى» لنفس هذه الصفة، فالمرأة لها طريقتها المتميزة فى التفكير واستخدام القدرات الذهنية، وترتيبها للافكار وتسلسلها.

فليس فى الهرمونات الذكورية ولا فى الهرمونات الأنثوية، وليس فى العوامل البيولوچية أو الجسمية، وليس فى وظائف الأعضاء أو العوامل الفسيولوچية.. ليس فى هذا كله دور فى ظهور أو تنمية الصفات والخصال الإنسانية عند الرجل، وعند المرأة.. إنما العبرة بالبيئة وبمدى التفاعل الاجتماعى مع المجتمع، وبمدى توافر فرص الثقافة والتعليم، وبمدى اتاحة المجال لاكتساب الخبرات المختلفة فى أمور الحياة، والتدريب على التعامل فى المواقف المختلفة المتنوعة.. فعندما تعطى المرأة فرصتها فى التفاعل والفرص والتدريب، فإن عقلها يترقى، وقدراتها الذهنية تظهر وتنمو، وشخصيتها تقوى وتتأكد.. ويكون دور الهرمونات والعوامل البيولوچية والفسيولوچية والجسمية هو اعطاء «النكهة» لهذه الصفات، لا أكثر.. أو تقديم «الطابع» لها، وليس اعطاء أو تقديم الصفة ذاتها!.

والصفات الإنسانية لدى الرجل والمرأة هى «صفات عامة» تحتاج إلى «توازن» فيما بينها، وإلى «تناسق» فيما بينها، بداخل الرجل، وبداخل المرأة أيضاً.. ففى شخصية الرجل، يجب أن تتوازن وتتناسق صفاته ما بين «عقلانية»، و«عاطفية»، وهكذا فى باقى الصفات.. وفى شخصية المرأة أيضاً، من الضرورى أن تتوازن صفاتها ما بين «عقلانية»، و «عاطفية»، وكذلك مع باقى الصفات، كما الرجل.. وأيضاً أن تتوازن وتتساوق وتتفاعل صفات الرجل مع صفات المرأة.. ويظهر ذلك بوضوح فى الحياة الزوجية.. فيجب أن يتدرب الرجل وكذا المرأة على احداث التوازن ما بين «العقل» و «العاطفة» مثلاً أو بين «المنطق»، و«المشاعر الإنسانية».. لأن عدم مراعاة العقل عند اتخاذ قرار ما فى الحياة الزوجية بين الرجل والمرأة، يجعل القرار هوائياً وليس ناضجاً.. وكذلك عدم مراعاة المشاعر الإنسانية، عند اتخاذ القرار، يحيل القرار إلى جمود وجفاف!.

ثانياً: اهتمامات الرجل.. واهتمامات المرأة:

للتربية باع طويل في تنوع وتباين الاهتمامات للرجل عن المرأة.. ولذلك يمكن للتربية أيضاً أن تقوّم أو تغير هذه الاهتمامات.. وهذا موضوع طويل، تتعدد فيه الآراء وتتنوع، ولكن هناك اتجاهاً عاماً بخصوص الاهتمامات ما بين الرجال والسيدات.. وما بين الاولاد والبنات.. وإذا تكلمنا عن أبرز اهتمام يميز أو يمايز الولد عن البنت، لذكرنا ما قدمته باحثة أمريكية عن ذلك، منذ سنوات.

قامت هذه الباحثة باختبار بين مجموعة من الأولاد، والبنات.. فماذا فعلت؟.. قدمت لمجموعة من الأطفال (الأولاد والبنات) مجموعة من الأوراق والأقلام، وطلبت منهم أن يرسموا بالأقلام على الأوراق ما يعن لهم وما يحبون.. فكانت النتيجة أن ما يقرب من (٥٠ ٪) من البنات رسمن أشخاصاً، بينما (٨٥ ٪) من الأولاد قاموا برسم «أشياء» لا أشخاص.. وهى أشياء مادية كسيارة أو شجرة أو شمس أو نجوم... وهكذا.. بل حتى الأشياء التي رسمتها البنات (الـ ٥٠ ٪ المتبقية) كانت عبارة عن أدوات شخصية أو منزلية، وليست أدوات أو أشخاص عامة، كما التى رسمها الأولاد، فالسيارة والشجرة والشمس والنجوم ليست أشياء خاصة بالولد، فى بيته وداخل أسرته، بل هى أشياء عامة يراها، فيرسمها وكفى.

وعندما قامت الباحثة بتحليل ما قامت به من بحث واختبار، اتضح لها أن البنات تهتمن بالأشخاص أكثر من الأشياء، عموماً، وأنها تهتمن بالأشياء الخاصة أكثر من الأشياء العامة غالباً.. بعكس الأولاد الذين يهتمون بالأشياء أكثر من الأشخاص، والأشياء العامة أكثر من الخاصة.. ويعود الفارق بينهما إلى «عامل نفسى» موجود فى شخصية المرأة، ولكن التربية التى تتلقاها البنت فى البيت هى التى تنمى هذا العامل، وتزكيه.. وهذا العامل النفسى هو: «الطبيعة الغيرية لدى

المرأة» ، وهذه الطبيعة ناجمة عن «غريزة الأمومة» المغروسة فى طبيعة المرأة، لكونها امرأة.. فهذه الغريزة من شأنها أن تدفع بالمرأة نحو الاهتمام بالغير، وخدمة الآخرين، والبذل، والحب والتضحية، باعتبار أن هذه الصفات الغيرية (أى: المتعلقة بالغير أو بالآخرين) ، هى «صفات أمومية» فى أساسها وأصلها.. فالأم أو المرأة بحكم غريزتها، وبالطبع نشأتها ومجتمعها وتربيتها تزكى ذلك، هى «أم» ، ودور الأم أن تبذل وتتعب وتهتم بأطفالها بلا مقابل وبلا حدود، ولولا هذه الغريزة، ما كان هناك استطاعة لدى المرأة، ولا صبر على أن تربى وتنشئ أطفالها، ولما كان هناك استقرار أصلاً فى المجتمع!.

ومن مساحات التباين ما بين الرجل والمرأة، فى الاهتمامات أن الرجل يميل إلى «النظرة العامة الشمولية» للامور أكثر من المرأة التى تميل إلى الاهتمام بـ «النظرة الخصوصية التفصيلية» لكل الامور.. وكأن الرجل يهمه التعرف على «النتيجة النهائية» لأمر معين، ويقفز على اسوار تفاصيل وفرعيات هذا الامر.. أما المرأة لا تعبأ كثيراً بالنتيجة بل بالوسيلة أو بالفرعيات التى تتشابك معاً لتؤدى إلى هذه النتيجة.. فإذا ذهب الزوج والزوجة إلى أصدقائهما أو أقاربهما، وجلسا معهم وقتاً طويلة كضيوف عندهم فى بيتهم، فما إن تنتهى الزيارة، وأثناء عودة الزوج والزوجة إلى بيتهما، فغالباً تتكلم الزوجة عن تفاصيل عديدة، استلفتت نظرها وفكرها أثناء الزيارة.. فالملابس استوقفت نظرها.. بل تفاصيل الملابس.. وتفاصيل الموضوعات.. و«اكسسوارات» السيدات.. ومدى تناسق الألوان وانواع أقمشة الملابس.. وتفاصيل الأثاث... وهكذا.

ويكاد يكون الزوج، لم يلفت نظره أى من هذه الاشياء والامور.. ولكن ينبغى لنا أن نعرف أن الاهتمام بالتفاصيل، ليس راجعاً إلى «طبيعة فطرية» لدى المرأة، وإنما هى «طبيعة مكتسبة» ، خصوصاً فى المجتمع الشرقى الذى تنشأ فيه البنت وتتربى على أن تلزم البيت إلى حد كبير، وبالتالى تنحصر مجالات

اهتماماتها فى أمور محدودة.. بالطبع هى تتعلم، وقد تعمل.. ولكن بحكم العادات والتقاليد والتربية الشرقية، فهى لا تختلط كثيراً بالناس، ولا تخرج كثيراً، ولا تختبر الحياة طويلاً.. وعدم احتكاكها العملى كثيراً بالحياة، يولد عندها التركيز على امورها الخاصة فى حياتها المحدودة غالباً داخل عالمها فى البيت.. وهذا التركيز، مع الاستمرار والتدريب يتحول إلى «قوة ملاحظة» تنصرف إلى التفاصيل فى أمور عديدة.. ومع الوقت والتقليد لنساء أو بنات اخريات، تتنامى هذه القوة على الملاحظة لدى البنت أو المرأة.. وتتولد لديها اهتمامات معينة، تركز عليها قوة ملاحظتها، وهذه الاهتمامات، مع كثرتها وتوارثها عبر الأجيال لدى النساء، تغدو وكأنها «تراث نسائى» لا علاقة للرجل به.. بينما هذا التراث فى أساســه وأصله ليس أكثر من «عادات مكتسبة».

والتوجيه التربوى له دوره فى انشاء وابراز مثل هذه الاهتمامات سواء اكانت اهتمامات لدى الرجل أم لدى المرأة.. وكل إنسان قد تتولد لديه «قوة ملاحظة» للامور التى تستهويه ويحبها ويشغف بها، لذا فمن الصعب اصدار حكم قاطع بخصوص الرجل والمرأة من زاوية النظر إلى الامور، والاهتمامات، فكل منهما قد يكون له نظرة تفصيلية للامور التى يهتم بها، ونظرة شمولية للامور التى تعد أقل فى الاهمية بالنسبة له.. وتتغير اهتمامات الرجل، واهتمامات المرأة أيضاً تبعاً لمجالات العمل، وتغير نظرة المجتمع إلى العلاقة بين الرجل والمرأة، ففى المجتمعات المتقدمة التى شاركت فيها المرأة الرجل فى اعمال عديدة، وفى مجالات واسعة، قد اختلفت اهتمامات المرأة إلى حد بعيد، فلم يعد جل اهتماماتها منصب على الامور المنزلية التقليدية، بل تعدتها إلى مجالات العمل المتسعة.

فالمرأة التى تظل حبيسة العقل، دون اهتمام بتعليم ولا بثقافة ولا بنمو فى العلاقات الاجتماعية، ولا تفاعل مع المواقف المختلفة فى الحياة لأجل اكتساب

الخبرات المتنوعة، مثل هذه المرأة حبيسة الاهتمامات المنزلية والتربوية المحدودة، تخنق ذكائها وقدراتها العقلية، وخصوصاً إذا كانت تربيتها مغلقة، ومنكفئة على ذاتها، ومقفلة على افكار محددة قديمة، من شأنها أن تخفض من شأن المرأة، وتقلل من دورها فى الحياة بجانب الرجل فى تكامل وتعاون مستمرين.

والذكاء من أقوى العوامل المحددة للاهتمامات.. فذكاء الإنسان يوجهه إلى الامور التى يستحق أن يهتم بها، وكيفية ترتيبه لأولوياته واهتماماته، الاهم فالمهم. والحقيقة العلمية التى لا مهرب منها، مهما ادعى البعض عن جهل خطأها، أن الذكاء متساوٍ لدى كل من الرجل والمرأة، فلا وجود لمقولة أن الرجل أذكى من المرأة، وأن المرأة قاصرة التفكير بجانب الرجل.. فالمرأة لا يعوزها العقل والتفكير والذكاء والقدرات الذهنية من تحليل واستنتاج وتعليل وقدرة على الربط والتصور والتخيل والادراك والتحصيل و.. و.. بشرط أساسى أن تأخذ المرأة فرصتها كاملة من حيث أن تكتسب الخبرات والثقافات والتعليم المطلوب، حتى ينبع ذكاؤها وينمو ويحدث له استثمار فى نواحى حياتها وشخصيتها واهتماماتها، بحيث تكون اهتمامات عميقة وليست عقيمة.. ومن الملاحظ أن «الفارق الهرمونى والبيولوجى والجسدى والفسيولوجى» بين الرجل والمرأة، ليس له دخل فى حقيقة «المساواة فى الذكاء» بينهما.. فهما على ذات الدرجة من «الارتقاء العقلى».

وذلك على الرغم من حقيقة علمية أخرى تقول أن متوسط وزن المخ فى المرأة، يقل حوالى (١٦ ٪) عنه فى الرجل، وكذا أغلب أعضاء الجسم الاخرى لدى المرأة، مثل: الكبد والقلب... الخ.. ولكن عدد الخلايا العصبية يتساوى بينهما.. ولا يؤثر هذا الفارق فى وزن المخ، على درجة الذكاء بين الرجل والمرأة، لأن العبرة بـ «القدرة الوظيفية» للمخ، وليست العبرة بـ «وزن المخ».. ومن المتعارف عليه علمياً أن المخ البشرى مكون من فصين: أيمن وأيسر، و«الفصل الايمن» هو المسئول عن العاطفة وتذوق الجماليات والفنون بانواعها، و «الفصل

الايسر» هو المسئول عن التفكير المنطقى، والقدرات الذهنية، والتحليل، والتعليل للامور المختلفة، بشكل منطقى موضوعى.. وأثبتت الدراسات الفسيولوچية أن «الفصل الايسر» يؤدى بنفس الكفاءة وظيفته فى الرجل والمرأة.

والذكاء ليس حالة عقلية صرف ولكنه «حالة كيانية» تشمل العاطفة وتشمل السلوك الإنسانى، باعتبار أن الرجولة والأنوثة يرتبطان بالكيان الشخصى كله.. ومن هنا نفهم معنى أن يطبع الرجل طابع رجولته على ذكائه، وتطبع المرأة طابع أنوثتها على ذكائها.. فالذكاء واحد.. نعم.. ولكن الطابع ليس واحداً، يختلف عند الرجل عن المرأة.. لأن للرجولة خصائصها، وللأنوثة خصائصها المتميزة.. وللذكاء انواع، ومن أهم الانواع فى علاقة الرجل والمرأة فى ميدان الزواج هو «الذكاء الاجتماعى».. لماذا؟.. لأن هذا الذكاء يعنى - ببساطة -: القدرة على التكيف والتعامل والتفاهم والتقارب بين الرجل والمرأة بصفة خاصة، وبالطبع بين الناس فى علاقاتهم بصفة عامة.. وأى علاقة بين شخصين أو أكثر تتطلب مثل هذه «القدرة على».. وإلا كان التصادم والشقاق والتنابذ بينهما.. ومن خصائص وخصال «الذكاء الاجتماعى» أن يضع كل طرف نفسه موضع الطرف الآخر، ويحاول أن يتمثل طريقته فى التفكير، ومشاعره، واحاسيسه، ويتصور وجهة نظره ومدى قناعاته فى اهتماماته المختلفة.. وبمثل هذا التمثل يحدث التقارب بين الأطراف المتعددة، وبخاصة بين الرجل والمرأة فى الزواج.. ويكاد يكون نجاح الإنسان فى الحياة، وفى الزواج يتوقف على مدى ذكائه الاجتماعى.

واؤكّد على أن الذكاء قادر على أن يبدل ويغير من اهتمامات الإنسان رجلاً كان أم أنثى.. فلا تنحصر الاهتمامات العقلية والسلوكية والشعورية فى نطاقات محدودة مغلقة بل تتسع وتنفتح وتتعدد، ليس بضيق أفق بل باتساع ذهن ورؤية.. ومن الاهمية بمكان أن تكون عقلية الإنسان «مرنة» فى التعامل مع الاهتمامات،

ولا تجمد على اهتمامات محددة مغلقة متقادمة.. فشخصية الإنسان، من ضمن تعاريفها ومفاهيمها، أنها القدرة على تعديل الاهتمامات وإنشائها!.

ثالثاً: ليست الرجولة أن... وليست الأنوثة أن:

فى دراسة لطيفة قام بها «د. عادل حليم» فى كتابه «رجولة وأنوثة» بيّن الصفات المرفوضة فى الرجل، والصفات التى من الواجب أن توجد فيه.. وأيضاً الصفات المرفوضة فى المرأة، وتلك التى ينبغى أن تتوافر فيها.. فليست الرجولة أن تفعل هذا، وتكون ذاك بل أن.. وأن.. وهذا ما سنراه.. وأيضاً ليست الأنوثة أن تقوم المرأة بهذا، وتكون ذاك بل أن .. وأن.. «فالرجولة»، «والأنوثة» عبارة عن معانى إنسانية كثيفة وحقيقية، لابد ألا تتزيف وألا تتعكر وألا تمتزج بصفات ليست منها وليست أبداً معبرة عن معانى «الرجولة»، و «الأنوثة».

١- ليست الرجولة أن .... :

ليست أن يتفاخر الرجل أو الشاب بقوته العضلية أو بقدرته على أن يقهر غيره وينتصر عليه، وليست أن يكون خشن الطباع، وفظ الاخلاقيات، ويحب أن يعتدى على حريات وحقوق الآخرين، ويعمل على فرض رأيه عليهم قسراً أو يأخذ فى التأثير عليهم وقهرهم، إنما الرجولة أن يفهم الرجل ويتأصل فيه الفهم أنّ القوة الحقيقية هى قوة الفكر والمشاعر ومساعدة الناس والشهامة، وعدم مس الآخرين بسوء، بل وعدم استعراض القوة الشريرة عليهم وضدهم.. فالرجولة الحقيقية تتمثل فى الالتزام بالجدية والعقل والحزم وحسن التعامل مع الآخرين ومحبتهم وعدم كراهية أحد أو عدم التعامل بفظاظة مع أحد.. فكما أن للطائر جناحين، لا طيران له باحدهما، كذلك للرجل جناحان، لا رجولة حقيقية بجناح واحد منهما، وهذان الجناحان هما: الحزم والطيبة.. فالرجل هو من يملك قوة الحزم ضد الاخطاء، ولتأكيد الشخصية، ولكنه فى ذات الحين، لا يفتقر إلى طيبة القلب وحسن التعامل مع الآخرين بوداعة ولطف وقلب كبير وطول أناة.

وليست الرجولة أيضاً أن يكون الرجل محباً للسيطرة على الناس، بأنانية، راغباً فى أن يسخرهم من أجل تحقيق اغراضه ومنافعه الخاصة بالقوة وبالتحكم.. وليتها قوة حقيقية، إنما أبداً ليست القوة الحقة فى القهر بل فى الحب.. ليست فى الاقناع الجبرى بل فى الاقتناع عن طريق التفاهم والمحبة والتواد والتودد.. إنما الرجولة الحقة هى البذل والتضحية من أجل الآخرين.. هذا هو طريق القوة الحقة لخدمة الناس لا لخدمة أنانية النفس واهوائها واغراضها الذاتية الخاطئة.

وليست الرجولة أن يثير الرجل أو الشاب اعجاب الفتيات بمظهره أو بمغامراته العاطفية سواء كانت حقيقية أم وهمية.. وليست الرجولة أن يطارد الشاب الفتاة فى الطريق، محاولاً أن يحصل منها على موعد للقاء أو أن ينظر إليها بافتراس كأنها شيء يريد أن يتملكه أو أن يتلفظ عليها مع رفاقه بكلمات جارحة، أو يخدش حياءهابعبارات غير لائقة. إنما الرجولة أن ينظر الشاب إلى الفتاة باعتبارها إنسان له كيانه وشخصيته وحضوره الفريد وقيمته المتميزة الفريدة.. وليست الرجولة أن يصاحب الشاب أو الرجل فتاة تلو الاخرى، متفاخراً أمام نفسه، وأمام رفاقه بأنه الشاب ذو الجاذبية للجنس الآخر، الخبير بالشئون العاطفية، صاحب المغامرات الشهيرة فى ميدان العشق والغرام ودنيا المرأة، ظاناً بذلك أنه رجل حقيقى قوى ومحبوب ومحط أنظار الفتيات والنساء.. إنما الرجولة الحقيقية هى الجدية وعدم اللامبالاة تجاه المرأة، وعدم الاستهتار بعواطف الفتيات على هذا النحو المُزرى، وعدم التلاعب بعواطف وقلوب النساء بهذا الشكل غير الاخلاقى.. إنما الرجولة هى الاحترام للمشاعر، والتقدير للحب، واحترام المرأة وعدم التلاعب بأنوثتها.

ومهما فرطت الفتاة فى احترامها لأنوثتها، فينبغى ألا ينحرف، وألاّوينجرف الشاب مع تيارها، مهيناً بذلك رجولته ونظافة اخلاقه، إنما عليه أن يحفظ رجولته نقية قوية متهيئة لأن يقدمها بكاملها غير ملوثة ولا منقوصة ولا مهانة إلى شريكة

حياته المستقبلية المقبلة، ليظل الزواج، بما له من قدسية ونقاء وشرف، مجالاً طبيعياً واجتماعياً مقبولاً لأن تتجه إليه الرجولة فتجد فيه قيمتها الحقة والإنسانية الراقية.. فليست الرجولة مظاهر جوفاء بل قيم اصيلة!.

٢- ليست الأنوثة أن.... :

ليست أن تكون المرأة رقيقة جداً إلى درجة التدليل والميوعة، إنما الأنوثة الحقيقية، كما أن فيها الرقة الانثوية المحببة، فهى فيها أيضاً الاخلاق والجدية والالتزام بالمُثل وبحدود التأدب والاحترام.. وليست الأنوثة أن تكون الفتاة قادرة على أن تلفت انظار الرجال بطريقتها فى الكلام، والمشى، والحركات، وبأسلوب اختيارها لملابسها.. إنما الأنوثة الحقيقية، كما أن فيها الاناقة فى الملبس والحركة والتصرف والكلام، ففيها ايضاً اللياقة فى كل شىء بلا ابتذال ولا استهتار ولا اعثار للآخرين ولا تقوُّل الآخرين عليها.. فما أجمل أن تتحلى الأنوثة بالبساطة مع الرقة.. وبالهدوء مع اللطف الانثوى الجميل اللائق.. فالأنوثة هى احترام للأنوثة.

وليست الأنوثة أيضاً أن تستمتع المرأة بعبارات الاستحسان والثناء التى كثيراً ما يتلفظ بها الشباب، أو أن تسعد بالمغازلة لتثبت لنفسها أنها «مرغوب فيها».. وكأن مقياس الأنوثة فى نظرها هو نجاح الفتاة فى اثارة انتباه أكبر عدد من الشباب.. إنما الأنوثة الحقيقية أن تحترم الفتاة نفسها، وتصون كرامة جسدها، وتفكر بحكمة وواقعية.. فلا تنجرف مع تيار عاطفة طائشة، ولا تنخدع بكلام شاب غير جاد، باحث عن متعة وقتية، غير محترم فيها كرامة أو إنسانية أو أنوثة حقيقية قيِّمة.

وليست الأنوثة أن تتفاخر الفتاة أمام صديقاتها بأن الشبان يتكالبون عليها ويتهافتون عليها، وهى سائرة فى الطريق، ولا يكفون عن كلمات المديح والاطراء، وليست الأنوثة أن تحكى الفتاة عن مغامرات وهمية مع الشباب حتى تثير غيرة

صديقاتها، وتستمتع بشعور التفوق عليهن.. إنما الأنوثة الحقيقية أن تحافظ الفتاة على عواطفها نقية نظيفة بعيدة عن العبث الطائش.

وليست الأنوثة أن تصاب الفتاة بالغرور، وتشعر بأنها من أجمل الفتيات، إذ أن الجمال نسبى وليس مطلقاً.. فالجمال نسبى لأن الآراء تختلف حوله.. ولكن للجمال مقاييس أخرى داخلية عميقة، وهى جمال الطباع والخصال والاخلاق وأسلوب اللباقة والتعامل مع الآخرين بلطف وحكمة وهدوء.. وهذا هو الجمال الداخلى الهادئ الذى ينعكس على الخارج، فيكون جمالها الخارجى تعبيراً عن جمالها الداخلى، ويكون هذا الجمال الداخلى مُزكّى لذلك الجمال الخارجى، بل أهم منه.. فجمال الروح هو الابقى بلا جدال!.. والجمال الخارجى سرعان ما يعتاد عليه الإنسان، فيصبح فى نظره أمراً عادياً، لربما لا يسترعى الانتباه كثيراً.. فالمرأة الفاضلة الممسوحة بمسحة الهدوء واللطف والخلق الرفيع لها جمال خاص متميز، لذا فهى تشعُ بالدفء والهدوء الحيوى على كل ما ومن حولها، ويكون لها حضور متألق يدفعها إلى أن تقدم شيئاً للآخرين بعطاء خاص متدفق فياض.

إن فى المرأة سراً عجيباً مخفياً فى اعماقها، ألا وهو «سر الأُمومة» المضحية الباذلة، وليست المرأة مجرد مظهر جميل جذاب، سرعان ما ينكشف، ويُنفَر منه إذا لم يمتزج هذا المظهر، بجوهر أكثر جمالاً وجاذبية!.

ولعل ما سبق يكون جواباً وافياً لسؤالين، طرحهما شاب وفتاة.. سأل الشاب: «كيف أعيش رجولتى بمعناها الإنسانى الحقيقى الاصيل، خصوصاً وأنى أرى الشباب من حولى يفهمون الرجولة بمعانٍ خاطئة».. وسألت الفتاة: «كيف أفهم أنوثتى، وأعيش حيويتها دون أن أنحرف عن المعنى الإنسانى الجوهرى للأنوثة أو لمضمون الأنوثة فى اعماقى، الذى هو الامومة، ودون أن أنجرف وراء مظهر الأنوثة البراق الذى قد يعمى بومضاته اذهان كثيرات من الفتيات؟».

رابعاً: ليست المرأة أقل:

من قال أن الرجل أعلى.. أهم.. أفضل من المرأة؟.. هل هذا فكر متحضر؟.. نحن نقول بأن للرجل دوره الأساسى فى الحياة، وبأن للمرأة دورها الرئيسى فى الحياة أيضاً.. هو إذاً اختلاف ادوار، وليس اختلاف فى الاهمية والقيمة الإنسانية.. فالدور الأساسى للرجل هو: العمل خارج المنزل، والدور الجوهرى للمرأة هو: العمل داخل المنزل (أقصد: مراعاة زوجها وبيتها وأولادها وبناتها).. ولكن ليس هذا معناه أن المرأة لا تتعلم.. أو لا تعمل مثل الرجل.. أو لا تترقى وتنجح وتتفوق فى دراستها، وفى عملها أو لا تصل إلى مناصب عليا فى العمل.. فللمرأة حق مساوٍ للرجل.. ولكن بشرط أوحد وهو ألا تجور حقوقها على رسالتها الاولى كزوجة وأم ومدبرة لبيتها، مملكتها الصغرى.. خصوصاً فى السنوات الاولى لتربية أبنائها وتعليمهم وتهذيبهم وغرس الاصول الاخلاقية فيهم.

وإلا فما المعنى أن تبنى المرأة خارج بيتها فيما هى تهدم داخل بيتها.. وبالطبع التعاون مطلوب ومرغوب بين الرجل والمرأة فى الحياة الاسرية.. فليس معنى أن الدور الرئيسى للمرأة فى بيتها ألا يساهم أو يساعد الرجل زوجته فى هذا الدور، بخاصة إن كان لها عملها خارج البيت.. بل أن هناك دولاً فى العالم ترى أن «العدالة الزيجية» تقتضى الآتى :

«طالما أن الزوجين يعملان معاً، خارج البيت، فلزاماً عليهما معاً أن يعملا داخل البيت.. فبما أن المرأة تساوت مع الرجل فى العمل الخارجى، فالعدل يقضى بأن يتساوى الرجل مع المرأة فى العمل الداخلى، داخل البيت.. أليست الاسرة واحدة؟.. وأليس البيت الذى يضمهما واحد؟».

ونحن لا نريد أن ندخل كثيراً فى «جدلية» هذه «العدالة الزيجية» كما تقول

بها كثير من دول العالم.. ولكن ما نود أن ننبرّ عليه، ونزيد التنبير تأكيداً أن الحياة الزيجية بل والحياة العامة «حياة شركة» ما بين الرجل والمرأة.. وليست هذه من دون ذاك.. هناك مساواة فى العمل والتعليم والحياة والزواج.

أما بالنسبة لفكرة «القوامة» (أى: قوامة الرجل على المرأة) فى الاسلام، فهى تتلخص - ببساطة - فى أن يقوم الرجل على خدمة زوجته من حيث المسئولية عنها، واجابة طلباتها، وعدم اغضابها، وحمايتها.. فليست «القوامة» تسلط وقهر وارغام واستعباد واذلال يقوم به الرجل تجاه زوجته.. ومن يفهم «القوامة» بغير ذلك، أظنه مخطئاً فى فهمه ووعيه، وإن كانت «المساواة الكاملة أو المطلقة» التى تنادى بها كثير من دول العالم، ترفض أن يكون الرجل أو الزوج هو المسئول عن زوجته، وكأنها أضعف وأقل وأدنى منه، بحيث لا تقدر هذه المرأة أو الزوجة على أن تقيم أودها أو تحمى نفسها أو تتحمل مسئولية ذاتها.. وكأن شخصيتها تدنو عن شخصيته هو، أو أن شخصيتها ليست بالنضج النفسى والعقلى الكافيين أو اللازمين لتحمل مسئولية نفسها وكيانها.

وأيضاً بعيداً عن الدخول فى «دائرة الجدل» هذه.. يمكننا أن نفهم معنى «المسئولية عن» فهماً آخر، ليس من قبيل أن المرأة أقل بل من زاوية أن المرأة، بحكم طبيعتها الانثوية، تحتاج نفسياً إلى رعاية زوجها وعطفه.. وكأن «القوامة» وصية للزوج لصالح الزوجة، وليست تقزيماً لشخصية الزوجة.. كما أن الزوجة هى «السكَن» لزوجها، و «حضن الحنان» بالنسبة له.

لعلنا - يا أعزائى - ندرك الامور فى العلاقات بين الرجل والمرأة ادراكاً حبياً، تسوده قيم التعاطف والتواد والسكن والرحمة والتراحم أكثر بكثير من قيم القيادة والمسئولية والسلطة.. بل نقول أن القيادة من خلال الحب والتفاهم وليست من خلال القهر والالزام والطاعة الصماء، وإلا لسادت الانانية وتسيدت على هذه العلاقات الإنسانية التى قوامها: الحب والبذل والتضحية والخروج من الذوات!.

ولا يمكن بأى حال من الاحوال، أن يكون الاعتزاز بالذكورة أو بالرجولة على حساب التقليل من دور الأنوثة.. ومن الخطأ البين أن ينشد الوالدون مولوداً ذكراً، ويحزنون إذا جاءهم بنت.. وأقول أنه خطأ بيِّن أو واضح، لأن هذا - أولاً - اعتراض على مشيئة الله فى أن يهب الوالدين ولداً أو بنتاً.. وثانياً لأن الذكر لا يفضل الانثى.. فكل منهما خليقة الله.. والعلم أثبت أن الاثنين متساويان فى القدرة والشخصية والكفاءة والذكاء.. وأن العبرة بالتنشئة لا بالجنس ذكراً كان أم أنثى.. وأن الإنسان هو الإنسان.. ليس فيه أقل وأعلى.. أصغر وأكبر. أسوأ وأفضل ما بين الذكر والانثى.. إنما التقاليد والعادات هى السبب فى تشويه «فكرة التساوى» و «فكرة الكرامة المتناظرة» بين الرجل والمرأة.. والولد والبنت.

وقيل عن «أم الاسكندر الاكبر» أنها باحدى يديها كانت تهز سرير ابنها وهو طفل، وبيدها الاخرى هزت العالم، فيما بعد، وهو قائد.. والمعنى أن تربية الأم هى التى تصنع الطفل، وتحوله إلى رجل ثم قائد ناجح عبقرى «كالاسكندر».. فانظر دور المرأة!.

تقول «أمنية السعيد»: «إن الحب الأول والاكبر فى كل إنسان هو حبه لأمه، ومهما قيل فى انحياز مشاعر البنت نحو أبيها، والولد نحو أمه، فهذه اتجاهات عارضة تنتهى بمرحلة معينة من العمر، ولا تنال من مكانة الأم أو تضعفها ولو قليلاً. والطفل إذا حدث أن شعر بالحرمان من حق الأمومة يتوقف نموه العاطفى حتى لو استمر نموه العقلى والجسدى.. أمثال هذا الطفل يصابون باضطراب نفسى شديد يتطلب فى علاجه النفسى أن يعمل طبيبه على الارتداد بالمريض إلى مرحلة الطفولة، وتعويضه عن خسارته، لتحقيق ما يسمونه بالدفء العاطفى»!.

فاحتياج الطفل لأمه هو احتياجٍ خطير، لا يساويه اشباع آخر!. فبأى منطق يقول البعض باقلية دور المرأة، وباعتبار الرجل أهم وأفضل.. يكفى - يا عزيزى -

دور الامومة الخطير ليجعل «الجنة تحت أقدام الأمهات»، وليؤكد وجود وقيمة المرأة ككيان متساوٍ والرجل.

وفيما يلى نعرض لملامح من انحراف النظرة إلى المرأة فى كثير من مجتمعاتنا الشرقية.. صحيح ليست كل المجتمعات ولكن توجد مجتمعات تتعكر فيها النظرة الصحيحة إلى المرأة.. وهاك الملامح :

١- «تشييئ» المرأة :

عندما ينظر الرجل إلى المرأة باعتبارها كيان أدنى وأقل منه، فهذه «النظرة الدونية» للمرأة تستتبعها نظرة أخرى، وهى «النظرة التشييئية» للمرأة، باعتبارها «شيئاً» لا «شخصاً».. فعندما يرى الرجل ذكورته فى ذاتها تفوق أنوثة المرأة فى ذاتها، ولكونه رجل، فهذا امتياز فى ذاته، وأن الله فضله على المرأة، لذا خلقه ذكراً.. فمثل هذه الافكار لما تترسب فى عقل الرجل، وكثيرون من الشرقيين هكذا، فإنها تدفعه دفعاً، ولو عن غير وعى، إلى النظر إلى المرأة كمادة للاستهلاك الذاتى، وكموضوع لمتعته الشخصية، وكفى.. ولِمَ لا، والمرأة قد غدت فى نظره شيئاً يُستهلك، لا شخصاً يحبُّ لذاته، ويُتحد به فى ذاته.. طبعاً «المتعة مع المرأة» موجودة ومرغوبة ومسموح بها، ولكن لاحظ – يا عزيزى – القول: «المتعة مع المرأة» وليس «المتعة بالمرأة» سواء أكانت المتعة جسدية أم معنوية أم... فلا أقصد هنا التحدث عن النواحى الجسدية فقط فى العلاقة بالمرأة من قِبَل زوجها الرجل.

«فالنظرة الفوقية» من الرجل إلى المرأة، تورِّث «أنانية رجولية أو رجالية» مقيتة، والانانية تستتبع امتاع الذات واشباعها حتى ولو على حساب ذات أخرى، هى ذات المرأة.. وهنا تتبدل المرأة من «شخص» له كيان وذاتيته ووجوده وقيمته إلى شىء مادى يُؤكل ويُشرب ويُستخدم ويُستهلك أخيراً!.

٢- «صغر نفس» المرأة:

ماذا تفعل المرأة حينما ترى مجتمعاً من حولها يعظم من الذكورة على حساب الأنوثة؟.. بماذا تشعر وتحس في قرارة نفسها من جرّاء سواد نظرة الناس إلى الرجل بكونه أفضل وأرقى وأكمل من المرأة؟.. ماذا تكون نفسيتها، وهي رقيقة بطبعها وحساسة بطبيعتها؟.. الجواب مرير - يا أعزائي - وجارح للمرأة، مخلوقة الله، التي خلقها في كرامة إنسانية ليست أدنى من كرامة الرجل، أقول: الجواب هو «صغر نفس» المرأة.. فهي تشعر، بسبب ذلك، بأنها صغيرة في نفسيتها، وقليلة في شخصيتها، خصوصاً إذا ما ترسبت هذه «الافكار الذكورية الفوقية» في اعماقها عبر التربية أيضاً، بل كثيراً ما يكون هذا الترسب للافكار، عن طريق الأمهات ذواتهن!.

وهذه طامة كبرى، أن يتسلل هذا الفكر، وتقتنع به المرأة ذاتها.. وإلا فما المعنى وراء «التميز التربوي» المنتشر في بيوت كثيرين، ما بين الولد والبنت في النواحي التربوية، وأساليب التعامل مع الولد، ومع البنت بما يفضل الولد على البنت لا لشيء إلا لكونه ولداً، ذكراً وكفى، حتى وإن كان فاشلاً وسيئاً وضعيف الفهم وقليل الذكاء.. وحتى وإن كان أخته البنت تفضله في كل شيء.

لا يهم.. المهم أن الرجل رجل.. والولد ولد.. والذكر ذكر.. وأما المرأة فهي امرأة، أنثى، وفي هذا الكفاية لأن تكون «دون المستوى»!.. والحقيقة أن هذه حال كثير من البيوت في الشرق.. ولعلنا نحاول أن نبدّل بنظرتنا هذه نظرة أخرى تساوي وتعادل في القيمة الإنسانية الرجل بالمرأة!.

٣- «حقوق الرجل» أولاً:

في كثير من الحالات في المجتمعات الشرقية، ينشأ الأولاد وفي داخلهم احساس متعاظم بتفوق الذكورة، وتميز الولد عن البنت، ويغذي هذا الاحساس

الأسلوب التى تقوم به الأم فى تربيتها وتعاملها مع ابنها من ناحية توفير كل شىء له من راحة واحتياجات وطعام، دون أن تترك له مجالاً للاعتماد على نفسه بشكل طيب. والأم تسلم هذه المهمة للزوجة فى المستقبل، وكأن الزوجة هى «الأم البديلة» للزوج أو أن دورها هو امتداد لدور الأم الذى لعبته فى حياة ابنها الرجل، زوج المستقبل.. وهكذا تتركز احتياجات الرجل أساساً حول ذاته، راحته وطعامه وشرابه وحقوقه الزيجية، وأن المرأة خلقت من أجله، ومن أجل ايفاء احتياجاته أولاً.. ومن هنا يتعاظم ويتزايد احساسه برجولته وذكورته، وأنه الاعلى والسيد والمخدوم لا لشىء إلا لأنه وُلد ذكراً، وأن الامر الطبيعى أن يعامل معاملة الرئيس الاعلى للبيت، الذى يأمر فيطاع، ويطلب فيجاب بلا مناقشة، وبلا تفاهم، ولا تنازل، وبلا تراجع عن موقفه مهما بدا خطأه.

أما حقوق الزوجة عليه، فغالباً، رجل بهذا التفكير السقيم، لا يعير هذه الحقوق التفاتاً كثيراً.. والاحتياجات العاطفية والحياتية التى تحتاجها المرأة، زوجته، فغالباً ما يستهين بتحقيقها لها، لا لشىء إلا لنظرته الفوقية تجاهها، أنه فوق، وهى تحت.. هو رجل وهى امرأة.. هو «درجة أولى» ، وهى «درجة ثانية» .. هو صاحب الحقوق الاولى فى العلاقة الزيجية، وهى صاحبة الحقوق الثانية أو الثالثة أو هى صاحبة الحقوق الاقل!.

والتفكير بهذا الشكل يؤدى إلى الاحساس بالذات لدى الرجل، وتنامى أنانيته ويشعر بأنه أهم فى نظر نفسه من المرأة.. وبالتالى يتصرف وفقاً لهذا المعنى الراسخ فى ذهنه، من خلال التربية ونظرة المجتمع للرجل عموماً أنه الاعلى، والافكار السائدة عبر الاجيال، خصوصاً فى المجتمعات الشرقية.. وللاسف من هنا ينشأ الصراع بين الرجل والمرأة، فالرجل، بحكم خلفيته الفكرية المتسلطة شرقياً، يحاول أن يفرض سيطرته وسطوته وكبريائه وقهره تجاه المرأة.. والمرأة بدورها، كرد فعل لكل هذا القهر «الرجالى» الممارس ضدها، تحاول أن ترد الصاع صاعين – كما

يقولون – وتعمل على احالة البيت إلى جحيم، وليست هى الفعل، إنما هى رد الفعل.. فالاهانة من الرجل، قد تتبعها اهانة من المرأة.. والشتيمة تقابلها شتيمة.. والتقريع يجابه بتقريع مماثل.. وهكذا، تتحول مملكة الحب فى الاسرة إلى مملكة نار وجحيم ودمار لكل أفراد الاسرة.. والسبب بيِّن واضح وضوح الشمس.. السبب هو سواد الفكر الخاطئ فى فهم العلاقة بين الرجل والمرأة، وعدم تحسُّس الدور المتساوى المتعادل العادل لكل منهما.

والخلاصة أن «أنا الرجل» عندما تصير أهم من «أنت المرأة».. فبالتالى تصير «حقوق الرجل» أعلى من «حقوق المرأة».. وهكذا تتلاشى المساواة والعدالة ما بين الرجل والمرأة.. وتتعظم «أنانية الرجل»، وتتمجد حقوق الرجل على حساب تقزيم وتدنية بل واحياناً انكار حقوق وكرامة المرأة!.

خامساً: الجنس انسانياً:

«أفلاطون» (الفيلسوف اليونانى القديم) صوَّر أسطورة عجيبة، هى «أسطورة الاندروچين» (الذكر – الأنثى)، وتقول هذه الأسطورة أنه كان فى الأساس توجد كائنات تجمع فى كيانها واجسادها اعضاء الذكر واعضاء الأنثى، بحيث يحوى الجسد الواحد للكائن الحى الواحد، على أعضاء الذكورة، واعضاء الأنوثة معاً. ولكن حدث أن غضبت الآلهة على هذه الكائنات الحية، فأنزلت الآلهة غضبها على هيئة أن تشطر الجسد الواحد إلى شطرين، شطر ذكورى، وشطر أنثوى.. ونظراً لأن الشطرين هما فى الاصل كيان واحد وبينهما قرابة وصلة واحدة، لذلك غدا كل شطر أو كل طرف يحن، وينجذب إلى الشطر أو الطرف الآخر، لكى يعيد معه الكيان الواحد الاصيل، ويتمتع الشطران أو الطرفان بالوحدة الكاملة الحية بينهما.

والذكورة والأنوثة هى: جنس.. والإنسانية هى: وحدة نفسية.. فما هو الجنس

بالمفهوم النفسى أو الإنسانى فى ضوء أسطورة «الأندروچين» هذه؟.. الجنس – ببساطة وعمق – هو: اتحاد ذكر بأنثى أو زوج بزوجة لأجل التمتع بالوحدة فيما بينهما.. فالجنس ممارسة جسدية، تهدف إلى تحقيق الاتحاد والوحدة النفسية!. والجنس إنسانياً هو: «حب اتحادى».. ولسان حال الزوج تجاه زوجته: أنا أحبك، لذلك أريد أن أتحد بك، ولا يتحقق هذا الاتحاد بشكل كامل إلا عندما أتصل بك وأعرفك جسدياً، فالجسد أداة تعبير عن الحب فى داخلى، وبالجسد وبالجنس يتعمق حبى لك، وبالحب أتحد بك، ونصير كياناً واحداً متحداً، وكأننا لسنا بعد اثنين بل شخص واحد مكون من اثنين!!»..

يقول «إريك فروم» (المحلل النفسى): «إن الانجذاب الجنسى لا تسببه الحاجة إلى ازالة توتر سوى جزئياً، بل الانجاب الجنسى أساسه الحاجة إلى إتحاد بين قطبين متضادين (بين كيان الرجولة، وكيان الأنوثة)».

فالنزعة الجنسية الإنسانية ليس الهدف منها أساساً: «ازالة توتر جسدى أو جنسى مُلحّ»، بدون حب للطرف الآخر، وبدون رغبة فى الحياة معه والاتحاد به على الدوام، وإنما الهدف الجوهرى من النزعة الجنسيّة هذه هو الاتصال بشخص الآخر، بشخص المحبوب (شخص الزوجة هنا).. وهذا ما تشير إليه العبارات المعبرة عن اللقاء ما بين الزوج والزوجة، كعبارة «الجماع بينهما» أو «الوصال بين الزوج وزوجته».. فالإنسان يبغى أن يجتمع بآخر، ويتصل به ليشعر معه بالأمان، ويزيل احساسه بالوحدة والغربة والعزلة.. وهذا الاتحاد هو إتحاد بكائن آخر، مثله وفى ذات الوقت مختلف عنه.. فالرجل يشتاق إلى أن يتحد بالمرأة.. والرجل كائن بشرى، والمرأة كائن بشرى مقابل له.. وكذا المرأة ترنو نحو الاتحاد بالرجل.. فالجاذبية الجنسية والنفسية مغروسة فى الكيان الرجولى تجاه المرأة، وفى الكيان الأنثوى تجاه الرجل.. وهذه الجاذبية «فطرية» فى كيان كل منهما، ولولاها لما كان هناك زواج ولا اتحاد ولا اعمار للكون فى الأساس.

ولأن الرجل كيان متشابه مع كيان المرأة، من زاوية أن الرجل كيان بشرى، وكذلك المرأة، لذا فهو يحن إليه بصفة خاصة.. ولماذا أقول «بصفة خاصة؟.. لأن البشر يحنون عموماً إلى بعضهم البعض، بوصفهم بشراً وأناساً، يشتاقون إلى الاندماج والاتحاد والوحدة فيما بينهم.. ولعل هذا الاحساس، وهذا المعنى عبّر عنهما «أرسطو» (الفيلسوف اليونانى القديم) بالقول أن الإنسان «حيوان اجتماعى» أو «كائن حى اجتماعى».. يبغى الاجتماع بالآخرين والاسترضاء بوجوده بينهم وتكوين علاقات حب عام وود وتآلف بينه وبينهم.. هذا عموماً أما خصوصاً، فالتجاذب قائم بين الرجل والمرأة، باعتبار أنهما بشر، وكل منهم «صورة بشر» ، فالرجل يرى صورته البشرية فى المرأة، وكذا المرأة.

فهذا التشابه فيما بينهما على مستوى إنسانى بشرى، يورّث بالتالى التجاذب فيما بينهما، والاندماج.. ولكن فى ذات الحين، يوجد اختلاف بينهما.. فالذكورة ذكورة.. والأنوثة أنوثة.. وهذا الاختلاف، من شأنه لا أن يصنع «تنافراً» بين المختلفين، بل على العكس تماماً، يزيد من الالتحام والتجاذب ويصنع «تجاذباً مضاعفاً» بين الرجل والمرأة.. والعلم يقول أن كل طرفين مختلفين يتجاذبان.. فالرجل فى تشابهه مع المرأة إنسانياً، يندمج معها.. وفى اختلافه معها أو عنها نفسياً وجسدياً، يتكامل معها، ويكتمل بها.. ويعود الشطران فى أسطورة «الأندروچين» إلى الاكتمال والالتحام بعضهما البعض.

فالإنسان هو إنسان.. لا إنس وحده، بل إنس متحد بإنس يكوّنان معاً صورة الكيان البشرى الإنسانى المتحد الموحد «المزدوج فى وحدة» أو «الواحد فى ازدواج».. هذا الكيان هو الرجل والمرأة معاً.. بلا ازدواجية بل باتحاد وتلاحم وتواد وحب.. وطبعاً أنا اتكلّم هنا عن التجاذب الطبيعى والنفسى عموماً بين الرجل والمرأة، ولكن التحقيق العملى لهذا التجاذب من خلال الاتحاد الكامل بينهما لا يتجلى إلا من خلال الزواج!. ففى الزواج، يكون الحب بين الزوجين، بين

الرجل والمرأة هو عبارة عن تحقيق وتفعيل لمرمى أو هدف الاتحاد بينهما عن طريق وسيلة رائعة هى الجنس.. فالجنس هو وسيلة تحقيق الاتحاد.. ولماذا هناك رغبة واصرار على تحقيق هذا الاتحاد بين الحبيبين الزوجين؟.. لوجود الحب.. فالحب هو الهدف.. والجنس هو الوسيلة للوصول لهذا الهدف.. لأن الجنس يقوم بدور المزج والاتحاد والوحدة والاختلاط بين المحبين فى الزواج إنسانياً ونفسياً وجسدياً.. والجنس بهذا المعنى هو «جنس اتحادى».. يرى أو يهدف إلى الاتحاد بين الذكر والأنثى على مستوى الحب والرحمة بينهما.. ويلخص علماء النفس العلاقة الوثيقة بين هذه الكلمات الثلاث: (الحب.. الجنس.. الاتحاد) ويقولون: «الحب تحقيق لمرمى الجنس الاتحادى».

وبالحقيقة، هذا الموضوع جدّ خطير، فى حياتنا عموماً، وفى الحياة الزوجية خصوصاً.. فموضوع «الجنس إنسانياً» من الاهمية بمكان بحيث نفرد له صفحات وصفحات، لنغوص فى أعماقه، ونستكشف أغواره.. فلعلنا نقتنع باهميته أولاً، ونتعمق مفاهيمه السليمة فى أفكارنا ثانياً.. لأن الإنسان هو ما يفكر - كما يقال - فالإنسان بحياته وسلوكياته وتصرفاته هو ثمرة ما يفكر فيه، وما يقوله، بخاصة عندما تكون أفكاره أو أقواله المعبرة عن هذه الأفكار، متأصلة فيه، وغائصة فى كيانه الداخلى، وعقله الباطن والواعى معاً.

ولنفتح الموضوع من خلال عدة نقاط أو زوايا، تلقى أضواء عليه وعلينا وعلى أفكارنا أيضاً، ليذوب من هذه الأفكار ما يذوب، وليبق ما يبقى، ويتعدل أو يتغير ما يتعدل أو يتغير، وفقاً للصائب من النظرات، والحقيقى من اللفتات.

وفيما يلى لفتات وسمات «إنسانية الجنس» عند الإنسان :

١- الجنس ليس حيوانياً :

الجنس عند الحيوان، مسخَّر لأجل الابقاء على النوع الحيوانى نفسه.. وله

مواسم تكاثر محددة، فالهدف من الجنس عند الحيوان ليس حباً ولا اتحاداً وإنما بقاءً وابقاءً فحسب.. فشخص الحيوان لا يهم.. الفرد من الحيوان لا يهم.. إنما الاهمية منصبة أولاً، وقبل كل أو أى شىء آخر على النوع الحيوانى نفسه.. وبهذا المفهوم، لا يكون هناك معنى حبى اتحادى للجنس لدى الحيوان.. فلا فرق فى شىء أن يلتحم أى ذكر حيوان بأى أنثى حيوان.. لا يعبأ ذكر بأنثى محددة ولا بالعكس.. فالشخصية الحيوانية معدومة فى اللقاء الجسدى بينهما.. فالعلاقة بينهما «علاقة وظيفية» لا «علاقة اتحادية وحدوية».. ولا صفات فردية ولا شخصية.. بل الصفات الحيوانية عامة «نوعية» (أى: تخص النوع وحده).

وكثيراً ما يكون الذكر وحده هو ضحية العمل الجنسى، كما يحدث مع «ذكور النحل».. فالملكة أثناء طيرانها فى الهواء، يهرع وراءها «ذكور النحل» ويتبارون جاهدين فى الوصول إليها، إلى أن يصل أحدهم إليها ويقوم بتلقيحها.. وهنا ينتهى دور هذا الذكر «الهُمَام» الذى سبق الكل ونجح فى الوصول إلى أن يقترن بالملكة، وتصبح هى زوجته، وهو زوج الملكة.. فيا لها من سعادة غامرة!.. ولكن، يا للأسف والمرارة، فبعد أن يلقح الذكر أنثاه الملكة، أثناء طيرانها الملكى العرسى، فإن هذا الذكر «العريس» يموت فوراً، بعد التلقيح الذى فعله تجاه الملكة.. وليس هذا فحسب، بل بقية الذكور الموجودين من النحل، بداخل الخليَّة، تقوم «الشغَّالات» أو العاملات من النحل، بقتلهم وابادتهم جميعاً، إذ قد أدوا واجبهم تجاه الملكة، وطاروا وراءها، وفاز أحدهم بها.. ولأنهم أصبحوا بلا فائدة، وجبت ابادتهم.

كما أن هناك حالات أخرى يقترن بها التناسل بموت كل من الحيوانين الذين تناسلا لينجبا، ويكون الاثنان ضحية لممارسة العمل الجنسى التناسلى.. فهناك مثلاً نوع من «الدود البحرى»، تنفجر ذكوره وإناثه، مضحين بذواتهم فى سبيل هدف «نوعى» أوحد، وهو اطلاق الخلايا التناسلية الجنسية التى تتحد

بعضها ببعض لتنتج حيوانات أو ديدان بحرية جديدة، لتنفجر هى بدورها، لتنتج خلايا جنسية، لتتحد بدورها، لتنتج ديدان، وهكذا، فى دائرة مفرغة واحدة.. والعبرة دائماً بهذا الانتاج للديدان التى لا شخصيات متميزة لها ولا كيانات مستقلة تميزها على أقربائها من الديدان الاخرى.. ولا حب ولا اتحاد ولا صفات خاصة.. فقط الحفاظ على النوع، وامتداد النوع.. ولا يهم الفرد ولا الأفراد فى سبيل بقاء النوع كله!.

والسؤال المعروفة اجابته هو: هل هذا هو مغزى ومبنى الجنس الإنسانى؟.. وهل هدف الجنس عند الإنسان هو الإنجاب وكفى؟.

إن الجنس عند الإنسان ليس حيوانياً.. بمعنى لا يقتصر على الجانب الحسى الذى يؤدى إلى الإنجاب وكفى.. فالهدف الإنجابى موجود بالتأكيد فى الزواج، كهدف من أهداف الزواج.. ولكنه ليس الهدف الأوحد للزواج.. ذلك لأن الزواج، هدفه وجوهره هو تحقيق التكامل والاندماج والاتحاد بين الزوجين، وتنمية الحب بينهما لأجل حياة مشتركة يسودها التعاون والمشاركة فى الحياة.. ويأتى الإنجاب كثمرة لحياة «الاتحاد الزيجى» هذه، فماذا إذا لم يسمح الله بإنجاب، هل تنفك رابطة الاتحاد والحب تلقائياً بينهما؟.. بالطبع لا.. فالإنجاب ثمرة، وهدف، ولكن ليس الهدف الأوحد.. وأنا هنا لا أناقش الرأى القائل بضرورة زواج الرجل من امرأة أخرى لتنجب له أطفالاً، وأن هذا حقه طالما أن العيب هو فى زوجته.. ولكن ما أود أن أؤكد عليه هو أن الرجل، إذا ارتضى باستمرار زواجه، بالرغم من عدم الإنجاب، فليس معنى عدم الإنجاب هذا، فقدان عنصر «الاتحاد الزيجى» القائم بينه وبين زوجته.. فالاتحاد أعلى من الإنجاب، وأشمل منه.. فالزواج يكتمل بالحب والجنس الاتحادى، وأما الأطفال فهم «نتيجة» مترتبة على هذا الاكتمال بين الزوجين، وليس الأطفال هم أحد عوامل أو أسباب الاكتمال!.

٢- **الجنس شخصياً:**

الإنسان هو الكائن الوحيد الذى يصنع فيه الجنس توازناً فى شخصيته.. يقول «د. عادل حليم» (الأخصائى النفسى) فى كتابه البديع «فن الحب»: «الجنس عند الإنسان هبة إلهية تمس صميم الكيان الإنسانى، على كافة مستويات حياته، فهو لا يمس جانباً واحداً من حياتنا، بل يمتد ويتداخل فى طبيعتنا البشرية، ليضع بصماته على وجود الفرد وشخصيته، ويؤثر على حياتنا النفسية، والانفعالية والعاطفية، وعلاقاتنا الاجتماعية بالآخرين، فهو إذاً (أى: الجنس) هو (طاقة شمولية)».

وتفسير ذلك أن للجنس ثلاثة عناصر أو سمات أو أبعاد لدى الإنسان، وهى عناصر مترابطة لا تنفصم أو تنفك، لأنها تميز الجنس الإنسانى على مستوى الشخصية الإنسانية، لذا يسمى بـ «الجنس شخصياً».. وهذه الأبعاد هى:

● **البعد الشخصي:** وهو البعد الذى يركز على التفاعل والتقارب الإنسانى بين شخصية الرجل، الزوج، وبين شخصية المرأة، الزوجة، وهو تفاعل على مستوى العواطف والمشاعر والتقارب العقلى والتفاهم الشخصى.. والجنس هو الجسر الذى تعبر عليه كل هذه العواطف والتقاربات الفكرية والتفاعلات النفسية، لتصب فى إتحاد الرجل والمرأة.. فالجنس هنا تغذية للحب وللجانب الشخصى بين الزوج والزوجة.

● **البعد الحسي:** وهو الاحساس باللذة الجسدية فى العلاقة الزوجية، وهذه اللذة هى عبارة عن «احساس فسيولوچى عصبى» نفسى ملازم للتواجد والتقارب والاشتراك وحياة الشركة بين الزوجين.. وكأن البعد الحسى ليس هدفاً وحيداً فى ذاته، ولذاته فى الزواج.. فاللذة الجسدية لا تقصد لذاتها وحدها وإلا لانتفى البعد الشخصى من الزواج.. ولأصبح الزواج مجرَّد «لذة حسيَّة» فقط.. ومعروف أن

اللذة الحسية وحدها لا تُشبع نفس الإنسان وعواطفه وشخصيته.. إنما هى جزء فقط فى إطار هذا الاشباع الشمولى.. ولو اكتفى الزوج أو الزوجة بمثل هذه اللذة، لتركت وراءها فراغاً هائلاً فى كيان الإنسان، بل لزادته فراغاً على فراغ.. لماذا؟.. لأن اشباع الجانب الجسدى لدى الإنسان، هو إشباع ناقص لأنه إشباع جانب واحد من جوانب الإنسان، وأيضاً لأن الاشباع الجسدى الجنسى وحده فى العلاقة بين الرجل والمرأة يحفر فى أعماق اللاشعور فى النفس البشرية أن الإنسان هو «شيء» لا «شخص».. «والاحساس بالشيئية» يسقط عن النفس «الإنسانية الكاملة»!.

فالإنسان الذى يركز على جسده فقط، وكذا جسد الآخر فقط، هو إنسان يختصر كيانه إلى جسد، وكيان الآخر إلى جسد لا شخص!.

● **البعد الإنجابي:** وهو بُعد قد تحدثنا فيه فى النقطة السابقة.. ولكن المهم هو التوازن بين هذه الأبعاد الثلاثة للجنس لدى الإنسان، وفى شخصيته.. فعموماً إذا اكتفى الإنسان بالبعد الحسى فى الجنس خارج الزواج، لظهرت عنده الانحرافات الجنسية، ولأطلق العنان لشهواته ورذائله الجسدية المتنوعة، ولانغمس فى الممارسات الجنسية وغرق فيها، ولابتلعته الإباحية، وهذا ما نراه فى كثير من بلدان العالم الغربى.

ومن الناحية الاخرى، قد نجد الإنسان يتمسك بالعنصرين الحسى والإنجابى فى إطار مشروعية الزواج، ولكن بصورة تفوق تمسكه بالعنصر الشخصى، وبذلك فإن الزواج يتحول عنده إلى مجرد مجال لاطلاق العنان للشهوة، ويكون الزواج أشبه بمصنع لانتاج النسل.

وهكذا فالتوازن بين الأبعاد الثلاثة أو التكامل بينها هو أساس وحدة الشخصية الإنسانية.. فيعبر البعد الشخصى عن نفسه فى العلاقة بين الزوج والزوجة، من خلال الحب والتفاهم المشترك والبذل والتضحية والتوافق الفكرى

والعاطفى والشعورى بل واللاشعورى.. كما يعبر البعد الحسى عن ذاته، باعتباره وسيلة للاتحاد، والوصول إلى الحب العميق وتوكيده من خلال «الجنس الاتحادى» الذى يصنع من الزواج كياناً موحداً تتجلى فيه «الوحدة الزيجية» فى أروع معانيها، وتكاد تتطابق الشخصيتان، شخصية الزوج والزوجة، وتنصهران فى «شخصية واحدة متحدة مكونة من اثنين قد أصبحا واحداً».. والبعد الإنجابى الاثمارى هو تجسيم وتجسيد للحب والوحدة، الكامنين والكائنين فى الزوجين.. وإن لم يحدث الإنجاب، وهذه مشيئة الله دائماً سواء حدث أو لم يحدث، فلا يزال الحب قائماً، والاتحاد رابضاً فى أعماق المحبين المتزوجين!!.

٣- الجنس ليس استهلاكياً :

إن هدف الجنس عند الإنسان هو اللقاء.. وهذا اللقاء والتلاقى لا يتم ولا يكتمل إلا باتحاد شخص بشخص لا شىء بشىء.. فالشىء يُستهلك ولا يُتحد به.. يذوب فى الإنسان، ولكنه لا يبقى فى الإنسان.. فالاستهلاك إفناء.. والاتحاد ابقاء.. يقول «كوستى بندلى» (الكاتب النفسى اللبنانى) : «أنا لا أكتمل إلا إذا تجاوزت ذاتى للقاء الآخر، ولكن هذا الآخر يغيب إذا أصبح شيئاً يُستمتع به، وأبقى أنا فريسة فراغى.. هكذا فانحراف الجنس نحو اعتبار الآخر مجرد متعة، يجعله مخطئاً لمرماه الاتحادى وبذلك يحكم على الجنس بالفشل».. هى لحظة استهلاك، ودقائق نشوة، ولكنها تترك فراغاً، وتخلف للإنسان فراغاً، وتتركه فارغاً من أى حب أو معنى أو اتحاد حقيقى.

ولعل هذا هو سبب خيبة الأمل التى يُمنى بها الإنسان الذى يتوقف عند المتعة الجسدية وحدها، وهذا هو سر الحزن الذى يُصاب به، بعد انتهاء اللقاء الجنسى الهادف إلى اللذة وحدها.. فالجنس إذا انحرف عن خطه الأصيل وخطته الطبيعية الرامية إلى «الحب الاتحادى» أو «الاتحاد الحبى» فهو فاشل لاشك، لأنه «عوض الشريك الذى ينشده فى قرارة ذاته، لا يجد سوى جسداً لا يروى غليله».

أليست هذه هى معانى «الاستهلاكية» و «التملك» و «الاستيلائية» على الشريك الآخر فى العلاقة الجسدية بينهما؟!.

فما أيسر أن يستخدم الجنس استخداماً استهلاكياً، يهدف إلى جعل الشريك الآخر شيئاً مادياً، يُستهلك كما استهلاك قطعة من «الشيكولاتة» أو شرب كوباً من العصير!!.. «والجنس الاستهلاكى» لا يعبأ بشخص الشريك ولا كيانه ولا قيمته الإنسانية، ولكنه يعبأ فحسب بجسد الآخر، ولسان حال الإنسان المصاب بهذا الداء الوبيل المسمى بـ «الجنس الاستهلاكى» يقول: «المهم جسد الآخر أو المهم بحق هو جسدى أنا، ومتعتى ومزاجى الجسدى والشخصى أنا، متمثلاً فى افتراس والتهام جسد الآخر!». أليست أنانية واضحة لا تخرج إلا من تحت عباءة «الجنس الاستهلاكى» ؟!.. فالجنس خلواً من الحب بملء كيانه واتحاده، إنما يتعامل دائماً مع جزء واحد من كيان الإنسان الذى يتكون تكويناً ثلاثياً من جسد ونفس عاقلة وروح، مُهملاً الجانبين الأخريين، وهما النفس والروح، مختصراً الكيان البشرى إلى جنس أو «جسد جنسى» فقط!.

والكارثة عندما يستشعر الطرف الآخر الشريك فى العلاقة الجسدية – وأنا أقصد هنا تحديداً علاقة الزواج – أنه «مرغوب فيه» ليس لشخصه بل لجسده.. عندئذٍ يتبدَّل حب هذا الآخر إلى كراهية بل وفى أحيان كثيرة إلى بغضة شديدة.. فليست الغريزة الجنسية جسدية بحتة عند الإنسان، وكأنها «بطن جائعة» ترمى إلى أن تشبع وكفى.. لا يا عزيزى.. الإنسان ليس «بطناً جنسية» بل «جنساً نفسياً وإنسانياً» !.

٤- الجنس ليس أنانياً :

فى رواية «أنشودة الكون» للكاتب «چان چيونور» تقول المرأة لرجلها، وهو يرد عليها.. فى حوار عجيب مُعبِّر.. وإذ تبدأ المرأة الحوار، تقول:

– «لم يكن لك يوماً نظرة تكفيك حدّتها، لتدخل فيَّ، إلى ما هو أبعد من جلدى (أو جسدى)».

* «نعم».

– «أتمنى لو أن ذلك صحيح، ولكن يكفينى أن أنظر إلى عينيك لأدرك أن ذلك ليس صحيحاً.. فماذا يمكنك أن تبصر بتلك العينين؟.. لا شيء.. لحماً دافئاً ترغب بوضع يدك عليه.. هذا كل شيء.. ما الذى يدخل فيك عندما تلمسنى؟.. هذا الدفء.. جلدى الناعم.. هذا كل شيء.. فهل تعتقد أنك سوف تتمكن يوماً من أن تسمع قليلاً صوت دَمِى؟.. هذا لن يحدث قط.. إنك أصم، أصم، أصم.... وأنانى أيضاً!».

* «وأنانى.. أنا؟!».

– «نعم.. أذناك وعيناك ويداك أنانية.. أنت ترى لنفسك، وتسمع لنفسك، وتلمس وتأخذ لنفسك.. أنت تنظر.. ماذا ترى؟.. لا شيء. أنت ترى كل ما يمكن أن يجلب لك لذة.. لا أكثر!!».

انتهى الحوار، وبقى التساؤل: لماذا الأنانية؟.. جواب: لأن الأنانية هى ابنة شرعية للنزعة الاستهلاكية الاستيلائية، واعتبار الآخر شيئاً ألهو به واستمتع به وآكله واهضمه وألعب به، وكفى!.

هكذا يبدو الجنس وكأنه مطبوعاً بصفتين هما: «الغريزة»، و «المشاركة».. وتتجاذبه نزعتان: «الاستهلاكية الأنانية»، و «الاتحاد الجنسى والحبى».. فأنا استمتع بك يا حبيبتى يا زوجتى، ولكن استمتاعى ليس استمتاعاً استنزافياً لجسدك بل استمتاع جسدى ممتزجاً باستمتاع نفسى عاطفى، يهدف إلى اسعادك قبل اسعادى!.

٥- الجنس مرآة :

ذكرنا أن الجنس ليس هو «طاقة بيولوجية فسيولوجية» فحسب، كما عند الحيوان بل هو «طاقة حيوية شاملة»، وهى طاقة فى حقيقتها «نفسية جسمية» وليست «جسمية» فقط.. والجنس هو طاقة «مندمجة» فى كيان الشخصية الإنسانية فى كل زواياها وجوانبها.. فالطاقة الجنسية هى طاقة حب قبل كل شيء.. وهى طاقة شركة وحركة وتفاعل حى مع المجتمع، ومع الآخرين.. بل هى طاقة حياة، بدونها يفقد الإنسان قدرته على العمل والابداع والهواية والقيام بواجباته ومسئولياته.. ولكن أوثق علاقة هى بين الجنس والعاطفة لدى الإنسان.. وعندما ألفظ لفظة «العاطفة» فأنا لا أقصد «العاطفة الخاصة» الرابطة بين رجل وامرأة فحسب بل أمتد باللفظة ومعناها وأوسع مجالها لتحوى وتشمل «العاطفة الإنسانية العامة» تجاه الأشخاص والأشياء أيضاً.. فأنا لا أستطيع أن أعمل وأنجح، ولا أستطيع أن أتعاطف وأتواد مع الآخرين إلا بالحب.. ومن أين لى بالحب والعاطفة الفياضة التى تمكننى من أن أنجح فى كل مناحى حياتى؟.. أليست الطاقة الجنسية هى طاقة دافعة إلى الطموح الإنسانى والخلق الفنى والابداعى، فالإنتاج الفنى والابداع الفكرى والأدبى والعلمى.. الخ كلها تنمو وتتفتح بقوة دفع من الطاقة الجنسية المندمجة فى الكيان الإنسانى، بدليل أن فى الأمراض التى تصيب الغدد التناسلية منذ الطفولة، نجد المريض غالباً ما يكون ضعيفاً فى قدرته على الابداع والنشاط الخلاق.

وهذا ما أوضحه «د. عادل حليم» فى دراسته عن الجنس باعتباره مرآة للشخصية الإنسانية، فأنبه إلى أن الطاقة الجنسية يمكنها أن تتشكل فى صور عديدة للحب والعمل، وأنها لا تنحصر فقط فى إطار العلاقة بين الرجل والمرأة، فإذا شبهنا الطاقة الجنسية بالسلك الكهربائى، فإن الحب هو التيار الكهربائى الذى ينتقل من شخص لآخر من خلال هذه الطاقة، دون أن يتخذ الحب

بالضرورة اتجاهاً جنسياً.. فالطاقة الجنسية قادرة على التشكل فى أنماط مختلفة من الحب والتآلف بين البشر، كما أنها قادرة أيضاً على «التسامى» فوق طابعها الجنسى، حيث يمكن أن يتجرد الحب من طابعه الجنسى العاطفى المعتاد تجاه الجنس الآخر ليتخذ له طريقاً أكثر شمولياً وحبياً تجاه الناس وخدمة المجتمع والعمل والإنجاز والموهبة الفائقة.

فالإنسان كائن جنسى شاء أم لم يشأ، وهو يفكر ويتفاعل وينمو ويسلك ويعيش وفقاً للطاقة الجنسية الموجودة فيه والفاعلة والمؤثرة فى زوايا حياته وسلوكه.

٦- الجنس خروج عن الذات :

فى كتابه «القواعد الذهبية فى الحياة الزوجية» يقول: مجدى كامل شحاتة أن الجنس هو خروج من الذات، فى الزواج، وأن اللقاء الجنسى الحميمى بين الزوجين إن هو إلا سعياً دؤوباً متبادلاً نحو الشريك الآخر، وهذا اللقاء هو تعبير عن الحب، وهو حالة من «الترابط النفسى والجسدى» تؤدى إلى «التوافق الزيجى».. فهذا اللقاء الجنسى هو فى حقيقته «مرآة صادقة كاشفة» للحياة الداخلية فكرياً ونفسياً للزوجين، وكاشفة أيضاً لموقف كل شريك من الآخر (حب أم أنانية؟) وكاشفة أيضاً عن كم وكيف ونوع الحب بينهما، بل وأكثر من ذلك.

فاللقاء يكشف عن «اللاشعور» لدى كل من الزوج والزوجة، لا من خلال المعاملات العادية أو الكلمات بل من خلال الممارسة الجنسية بالأحرى، باعتبار أن هذه الممارسة هى «عمل كيانى مشترك» يشارك فيه الزوجان بكافة عواطفهما ومشاعرها بل واحاسيسهما وأفكارهما.. واللقاء الزيجى الجنسى هو مرآة للحب وتوكيده أيضاً وعظيمه وتأكيده وتنميته.. فالجنس منمّى للحب.. والحب مُعَبَّر عنه بالجنس، من ضمن التعبيرات عنه إذ هناك ألوان من التعبير عن الحب بين

الزوج والزوجة.. و«الجنس الزيجى» هو «وهبة» كل ذات لكل ذات!. هبة ذات الزوج لذات زوجته.. والعكس.. ولاحظ – يا عزيزى – هذه الكلمة البليغة التعبير: «وهبة».

هنا يكمن المعنى اللا أنانى للجنس أنه خروج عن الذات (الأنا) ودخول إلى الذات الاخرى (الأنت).. ولا حب بلا «خروج ذوات».. وباعتبار أن الجنس الصحيح هو التعبير البليغ والصحيح عن الحب، لذا فلا جنس بلا «خروج ذوات» أيضاً!.

وطالما ذلك كذلك، فإن كان هناك أى معوقات «للقاء الحميمى»، فلتكن هناك «جلسة تفاهم وصراحة، بصدق ووضوح قبل الشروع فى اللقاء، وذلك لأجل معالجة السلبيات والمعطلات لهذا اللقاء الرائع المعبر عن عمق الحياة الزوجية، لكيما يكون لقاءاً زخماً غنياً بالمعانى العاطفية والقيم الزيجية وأحاسيس الصفاء والتداخل والنقاء وصفاء السرائر والعشق من القلب.. وكل هذه المقومات تتداخل وتتفاعل معاً لتصنع وتنضج وجبة شهية.. هذه الوجبة النفسية الجسدية الجنسية تسمى بـ «التوافق الزواجى».. وللتوافق درجات ومستويات وألوان وأنواع.. فهلاً نعتلى درجة ونوعاً فيها ونتدرج نحو الكمال!.

٧- الجنس ليس كبتاً:

فى مُعجم «مصطلحات علم النفس» وُرد هذا التعريف «للكبت النفسى»: «الكبت هو صراع نفسى عَجَز (الأنا) عن مواجهته، فتجاهله، فلاذ هذا الصراع بأعماق اللاشعور!».. وهذا التعريف للكبت يتفق مع مفهوم «فرويد» عنه الذى يرى أن الكبت هروب من المشكلة لا مواجهتها، وأن جوهر الكبت كامن فى إبعاده عن نطاق الوعى ليدخل نطاق اللاوعى أو اللاشعور.. والكبت بهذا المفهوم

الفرويدى ليس هو بالتأكيد العفة، لماذا؟.. لأن النزعة الجنسية تبقى فيه كما هى لا تتعدل ولا تتهذب ولا تُصقل، لأن هذه النزعة تكون قد تم استبعادها عن جوهر ونواحى الشخصية الإنسانية، فلا تتفاعل مع الطاقات الايجابية الكامنة والقائمة فى الشخصية لتخرجها وتنميها وتطلقها من مكامنها.

وهنا، يتصرف الإنسان المكبوت كما تصرف النعامة، التى تدفن رأسها فى الرمال، ظناً منها أنها طالما تخفى رأسها ولا ترى العدو، إذاً فالعدو بالتالى لا يراها. وهكذا يحدث الصراع بداخل الإنسان.. صراع بين «نزعة أو رغبة مكبوتة» تريد أن تطل برأسها وتنفجر، وبين «قوى ضاغطة» رافضة لخروج هذه النزعة أو الرغبة. وتكون النتيجة هى ضياع وتبديد الطاقات الايجابية التى كان بالامكان استمدادها من النزعة المكبوتة أو تعهدها الإنسان المكبوت بالتهذيب والتشذيب بدلاً من التغييب لها، فالجنس يحمل فى ذاته طاقة الحب الجبارة، ولكن بالكبت تتحول الطاقة إلى «تعقيم»، بمعنى: يصبح الإنسان عقيماً فى طاقته، لا يستطيع أن يخرجها ويطلقها من عقالها.. والجنس هو مجمع الطاقات الشخصية (أى: المغذية للشخصية) لدى الإنسان.

ونتيجة لكل هذا الكبت، تضعف الشخصية وتتجه صوب الانطوائية والشلل العاطفى واضعاف الحيوية والانتاج والقدرة على التفاعل والتواصل مع الناس. وأيضاً يضر الكبت بالحياة الخلقية والروحية نفسها، إذ يقطع عنها زخم الغريزة الذى يغذيها، كما تغتذى الشجرة من التربة، بل ويحكم عليها بالشكلية والرتابة والجفاف.

وتقول المحللة النفسية «ماريشوازى»: «قدر ما يشتد كبت ما، بقدر ما يزداد التعبير عنه، ولكن بشكل غير مباشر، وبقوة أيضاً».. فقد تحدث اضطرابات فى السلوك، وأمراض نفسية كتعبير عن هذه النزعة الجنسية المكبوتة.. وقد تتحول النزعة المكبوتة جنسياً إلى عملية عشق للذات أو كبرياء أو تسلط أو عنف أو طمع

شديد في المكسب أو بخل شديد، وقد تصل هذه النزعة المكبوتة إلى حد ارتكاب جريمة قتل.

وفى رواية للكاتب «جوليان غرين» يصور شاباً مكبوتاً يحاول بقدر ما يستطيع أن يتجنب النزعة الجنسية، ويكبتها ويكظمها ويقهرها، وفى قهره لها، يحيلها إلى عقله الباطن، ولا يعمل على تهذيبها أو الاستفادة من طاقاتها الحيوية المكبوتة فى إنماء شخصيته وابداعاته.. ولم يستمر كبته لها فترة طويلة، إذ، ذات مرة انفجرت هذه النزعة، ولم تبق ولم تذر.. فقد قصدت إحدى الشابات، وهى رفيقة له فى الجامعة، أن تثيره كنوع من اللهو، فاختلت معه في غرفته، واغلقت الباب وأخفت المفتاح.. عند ذاك انقلب فجأة هذا الشاب رأساً على عقب، فثارت وتأججت غريزته وشهوته التى لم يتح لها بسبب الكبت أن تهذب وتشذب، وانطلقت بشكل همجى هدام، فقام باغتصاب الفتاة ثم قتلها!!.

والحل؟.. الحل هو العفة لا الكبت.. التسامى لا القهر.. استثمار الطاقة الحيوية لا كظمها وخنقها.. فالعفة هى ضبط وليست كبتاً.. فالضبط هو تسامى بالغريزة بينما الكبت هو ضغط للغريزة دون اعتراف بها، ودون اخراجها للنور.. ودون تحويل مسار الغريزة إلى ما هو مفيد ومنمٍّ للشخصية الإنسانية ومؤكد لها ولطاقاتها المتعددة المتنوعة.

ولذلك، لكى تكون العلاقة بين الرجل والمرأة فى الزواج مبنية على أساس جنسى سليم، يجب ألا تتأسس على كبت بل على ضبط وعفة.. فالرجل الذى تربى، ونشأ على كبت وكذلك المرأة المكبوتة، لا يصلح كل منهما للزواج إلا بعد تغيير نفسية كل منهما من كبت إلى ضبط.. فكل حياة زوجية ناجحة هى مبنية على نفسية ناجحة.

فالعفة ليست خوفاً من الجنس بل تعهداً واعياً له، والعفة تفترض تخطى

الخوف الغريزى الذى يلازم النزعة الغريزية.. والإنسان العفيف هو من يوجه طاقاته ونزعاته الجنسية توجيهاً سليماً فى خط تحقيق إنسانيته الأصيلة.. بينما الخوف من الجنس يحول دون تعهده، وبالتالى يحكم عليه بأن يصبح قوة غريبة عن الشخص وأهدافه الإنسانية ونمو طاقاته الايجابية وشخصيته الفعالة المتنامية.. والعفة ليست انطواءً بل اتجاهاً أصيلاً نحو الآخر.. والعفيف حقاً ليس بمنطوٍ على ذاته بل هو ذاك الذى يتجه بالفعل والانفتاح نحو الآخر، يرى فيه «لا طريدة تقتنص أو فاكهة تستهلك أو أداة تستخدم أو مادة تُستغل أو شيئاً يُمتلك، إنما يرى فيه شخصاً حراً، مستقلاً، كريماً، فيأبى أن يدخل معه فى علاقة جنسية إلا على أساس اعتباره لا شيئاً بل ذاتاً، لا فريسة بل شريكاً.. العفيف حقاً لا يعوزه الحب، إنما هو بالعكس حريص على أصالة الحب، تلك الأصالة المشروطة بالاحترام العميق الشخص الآخر وارادة الخير له فى الصميم».. كقول «كوستى بندلى».

٨- الجنس ليس نرجسياً:

الحب تأكيد للذوات.. «الحب الجنسى أو الجنس الحبى» هو تأكيد لذات المحب، ولذات المحبوب.. فالحب فى حقيقته هو أساس الزواج.. والحب إذا انتهى، له أغواره السحيقة فى نفس التارك والمتروك معاً.. والعجيب فى عاطفة الحب أنها تبحث عما يزيدها، وتهرب من ملاحظة أى خطأ فى المحبوب، بل وتهرب من الأخطاء فى المحبوب، وتُغمض عنها العيون.. الحب فى حقيقته هو «اهتمام مشترك» يجمع المحب بالمحبوب فى نضج حق، وهو بحاجة إلى «كيان تدعيمى» (أى: تدعيم وتنمية وتنقية من الشوائب أيضاً).. والحب لكى يكون صادقاً لابد وأن يكون صديقاً (أى: طاهراً).

فهل الحب الأول هو دوماً الحقيقى الأصيل؟.. ليس شرطاً.. وقد ينشأ الحب من مجرد زمالة، تتحول لسبب أو لآخر إلى حب.. ولكثرة لقاءات العمل

والعشرة دورٌ فى نشأة مثل هذا الحب.. فصحيح أن الزمالة هى لقاء بين شخصين، وهذا اللقاء يهدف إلى العمل لا أكثر.. أما الصداقة فهى لقاء هدفه اللقاء ذاته.. وعندما يحب الرجل، فمن الحكمة أن يفهم ويعى «سيكولوچية المرأة» ويدرك نفسيتها حق الادراك.

فالمرأة تحتاج، كما الغذاء إلى مزيد ومزيدٍ من كلمات الحب لأجل أن تشعر بالأمان مع من تحب.. وتحتاج كذلك إلى الكلمات المادحة لمظهرها وشكلها وملبسها ممن يحبها.. لماذا؟.. لتشعر بقبوله لها كجسد.. كأنوثة، وليس كشخص فقط.. فنحن لا ننكر أن جسد المرأة، عندما يقبله الرجل، زوجها فإنَّها تحصل على الارتياح النفسى من هذا القبول، وقبول الرجل لجسد المرأة واعجابه بها، يلقى قبولاً نفسياً منها لذاتها، وتزداد ثقتها فى ذاتها.

وقد ذكرتُ أن الحب هو «اهتمام مشترك» بين المحبين.. اهتمام بماذا؟.. جواب: اهتمام كل طرف باهتمامات الآخر (ظروفه - هواياته - شخصه - مناسباته - أفعاله - أقواله - حياته... وهكذا).. بحيث يقفز الآخر (المحبوب) فى شخص (المحب) ويحمله المحب دوماً بما له، وبما عليه، وبحاله، وبظروفه.. يحمله فى داخله دوماً، ويسير به ويعيش معه، حتى وإن غاب عنه!.

وماذا عن الحب من أول نظرة؟.. غالباً يؤسس هذا الحب على «مفاتن الجسد» وحدها.. أو على «مفاتن النفس» أو على كليهما معاً جسداً ونفساً.. فقد يقول شاب: «اعجبت بها من أول نظرة؛ ومن أول كلمة، من أول لقاء، لأن نفسى ارتاحت لنفسها (مجرد ارتياح نفسى)، وجسدها نادى جسدى، وارتاح جسدى لجسدها (مجرد جاذبية جنسية).. فهل هذا فيه الكفاية؟.

ولعل النظرة الأولى إرث أو وراثة لهواية الرجل القديم، التى كانت هى: «امتلاك الأنثى» لمتعته الجنسية، وهو الأقوى، وهو الأضعف، وأيضاً كوعاء للتناسل والإنجاب.. واتهمت المرأة بأنها «سر الفساد» لأن جسدها هو مركز

الجاذبية جنسياً لدى الرجل.. وفكرة الرجل القديم عن المرأة ترسبت فى نفوس كثيرين، خصوصاً من لديهم ما يسمى بـ«النرجسية النفسية».. وهى نرجسية تعود إلى الطفولة الأولى، عندما كان الطفل يجد متعته فى جسده هو (يمص إصبعه، وثديى أمه) ثم فى (أعضاء جسمه) ثم فى الارتباط بأمه (كقول فرويد - بشىء من المغالاة - بما يعرف بمركب أوديب).. ثم حب أفراد جنسه ثم أفراد الجنس الآخر أخيراً.

ودائماً توجد «نرجسية طفلية» تربط الطفل بذاته (من خلال ذاته هو ثم أمه أو أبيها (فى حالة الطفلة) ثم أفراد جنسه ثم الجنس الآخر).. وإذا ارتبط رجل نرجسى بامرأة، فهو يريد أن يمتلكها أو يستحوذ عليها لذاته، وليس هذا حباً بل تملكاً.. ومن قبيل الاستحواذ والنرجسية أيضاً: الرغبة فى تطابق الشخصيتين المتزوجتين معاً.. هذا لا يجوز وغير موجود.. إذ لابد من وجود اختلافات بينهما.. ولكن ما هى الأمور التى يمكن قبولها من اختلافات، وما هى التى لا يمكن قبولها - هذا هو السؤال؟!.

هناك اختلافات يمكن قبولها إذاً.. وقبول الاختلاف دليل على اتساع الشخصية وعدم انغلاقها حول ذاتها النرجسية بحب ذاتى أقرب إلى المرضىّ، وليس حباً «مُرْضياً» للصحة النفسية لهذا الشخص النرجسى!.

فهل هذا الشخص النرجسى يمكن أن يكون معطاءً فى الناحية الجنسية والحياتيّة مع زوجته؟.. لا أظن.. «فالجنس الاتحادى» هو فى حقيقته وعمقه بذل لا أنانية.. ولا نرجسية.. فالنرجسية هى عمق تعظيم الذات والأنانية. ولا حب بلا عطاء.. ولا وجود للحب مع وجود النرجسية.

٩- الجنس متعففاً:

هى عبارة بالغة الغرابة: «الجنس متعففاً».. ولكنى أقصد بها معنى مهم

للغاية وهو ألا يصيبنا الجنس بالتخمة.. لابد أن يكون الجنس منضبطاً حتى فى الممارسة الزيجية المُحاللة.. فالجنس يجب أن يمسح بشىء أو أشياء من التعفف.. هذا التعفف يمكننا أن نطلق عليه «التعفف الجنسى».

فما رأيك فى معدة نهمة ممتلئة تماماً بالطعام؟.. ما رأيك فى بطن مضروبة بشهوة الأكل والتكالب عليه؟.. هل الأكل حراماً؟.. لا.. هل متعة الأكل مرفوضة؟ لا.. ولكن الضبط مطلوب للمعدة ولغيرها.. وأى انفلات فى أى غريزة إنسانية يؤدى إلى نتيجة عكسية.. والمثل البسيط العميق معاً يقول: «كل شىء يزيد عن حده، ينقلب إلى ضده».

والخوف أن يكون تعظيم دور التعبير الجسدى (أقصد: الجنسى) بين الزوجين يجور على جوانب العلاقة بينهما، وكأن التعبير الجسدى الجنسى هو مطلوب لذاته، مع أنه فى جوهره وسيلة حب واتحاد قبل أن يكون متعة ولذة.. فالمتعة ليست مرفوضة.. ولكنها منضبطة متعففة عن التزيد والتضخم و – إن جاز لى التعبير – عن «السرطانية».. لأن ما هى الخلية السرطانية إلا نشاط زائد فى الخلية أو الخلايا، وهذا النشاط الزائد عن الحد يلتهم خلايا الجسم الصحيحة الأخرى، ويتسيد و «يتسرطن» عليها ويسود، وكل الخلايا تصبح «سرطانية» مثل هذا النشاط.

فهل بركان الجنس ونهمه إذا انفجر حتى فى الزواج (الحلال)، ماذا تكون نتيجته إلا تدمير الحياة الزوجية، وحدوث (سُعار حادّ) بها، والتهام لمعانى الحب والاتحاد والوحدة والنواحى النفسية المتكاملة فى «العلاقة الحميمة» بين الرجل وامرأته.. فهل أنا أدعو إلى وأد أو تقزيم دور الجنس فى الزواج؟.. على الإطلاق.. ولكن ما أنبرّ عليه، وأشير إليه هو الآتى: «بالرغم من أن الجنس خلاصة ومرآة الزواج والعلاقة بين الرجل والمرأة إلا أنه وسيلة لا غاية فى ذاته!».

الوحدة الثانية

العلاقة بين الرجل والمرأة

(في الزواج)

الوحدة الثانية
العلاقة بين الرجل والمرأة
(في الزواج)

أولاً: معنى الزواج:

يقول «إبراهام لنكولن» (الرئيس الأمريكى الأسبق والأشهر): «إن قوة الوطن تتحقق خلال ما فى بيوت مواطنيه من قوة».. فما معنى الزواج إذاً؟.. الزواج هو قوة مضاعفة.. فالرجل بذاته قوة.. والمرأة بذاتها قوة.. فماذا إذا اجتمعت القوتان معاً؟.. أليست النتيجة هى قوة مضاعفة.. وهذه القوة ليست قوة «عضلات» ولا قوة «مصالح»، ولكنها قوة معنوية، منسوجة من خيوط الحب والتفاهم والتواصل.. فإذا أردنا أن نعرّف الزواج، لقلنا أنه «قوة العشق» بين الزوجين، ولولا هذه القوة ما احتمل أحد منهما مسئوليات وتبعات وتكاليف وتكليفات الزواج.. و«قوة العشق» هذه تتجلى فى «قوة التخلى».. فما معنى «قوة التخلى» ؟.. المعنى – ببساطة – أنها قوة الخروج من الذات، والتخلى إلى حد بعيد عن أنانية الذات وتمركزها حول ذاتها، من أجل الانفتاح على الطرف الآخر فى العلاقة الزوجية.

ولاحظ كلمة «زوجية» هنا.. فهى كلمة مثناة وليست مفردة.. فالرجل بعد الزواج اسمه «زوج».. وهذه الكلمة هى كلمة مثناة.. وكأن الرجل (الفرد) طالما تزوج وأصبح زوجاً (المثنى)، فهو فى حقيقته يحمل فى داخله، فى أى مكان يذهب إليه، وفى أى طريق يسير عليه، وعلى أية حالة يكون عليها، يحمل زوجته فى أعماقه.. فالزوج عبارة عن (١×١).. هو وزوجته معاً.. وكذلك الزوجة أيضاً. فـ «قوة الجاذبية» بين الرجل وامرأته، تلصقهما معاً وكأنهما صارا شخصاً واحداً لا اثنين.. ولا جاذبية أعظم من العشق أو الحب.

وفى الزواج تتجلى بوضوح «قيمة وقوة الحب».. فما هو الحب بأكثر تدقيق؟.. الحب هو تجاوز الذات والاقتراب من الآخر، والانفتاح على الآخر الشريك فى الزواج، من القلب والروح والعقل.. هو «انفتاح كلى شامل».. وحقيقة الأمر أن الحب لا يختبر إلا بالتعامل والعلاقة مع الآخر.. فالآخر، شريك حياتى، هو مرآة لنفسى، أرى فيها حقيقة نفسى: حقيقة حبى للآخر.. وحقيقة خصالى أو صفاتى.. وعلماء النفس يكتشفون ضعفات البشر، عن طريق التعرف على علاقاتهم واحتكاكاتهم بالآخرين.. وحقيقة الأمر أن من أسرار عدم قبولنا للآخرين، ومن ثم عدم قبولنا لأنفسنا هو تلك الأوهام التى ننسجها حول أنفسنا، والأكاذيب التى تلوكها أنفسنا تجاه أنفسنا من تضخيم وتسمين (وليس تثمين) للنفس. فإذا اقتربنا من الآخرين أو اقتربوا منا أكثر فأكثر، فسرعان ما نرى حقيقة أنفسنا فى مرآة أو مرايا الآخرين.. وهم بدورهم يروننا على حقيقة أنفسنا.. فننكشف وننفضح وتتقطع خيوط الأوهام، وتسقط الأقنعة.. والعجيب أننا غالباً، بدلاً من أن نُصلح عيوبنا لما نراها فى المرايا، نسرع بتحطيم هذه المرايا.. وما نراه فى أنفسنا من عيوب قد نلصقه بالآخرين بما يُعرف بـ «الاسقاط النفسى» بمعنى اسقاط العيب على الآخر، لإراحة ضمير النفس، وخداعها بالوهم ثانية.

وما نراه فى الآخرين من عيوب، عندما نتقارب معاً، وننزعج منها، ففى هذا أيضاً كشفاً لوجود هذه العيوب فينا.. وبالتالى نكره ونقاوم الآخرين.. وكأننا نقاوم أنفسنا فيهم، أو نريح ضمائرنا بكراهية عيوبنا فيهم.. وكفى!.. فنكرههم، وكأننا نكره نفوسنا فيهم، بكونهم مرايا لهذه النفوس سواء بكشفهم لنا أو كشف حقيقتنا أمام عيوننا، من خلال الاحتكاك بهم ومعهم أو بوجود عيوب لهم، تكشف عيوبنا.. وتفضح أمراضنا الداخلية.. فإذا أنت انزعجت من كبرياء أو تسلط أو بخل إنسان.. فمعنى ذلك أنك أنت كذلك، مثله!.. وإن كان الأمر كذلك، فما بالك بالحياة الزوجية، ومدى التقارب الشديد بين الزوجين الذى

يمكن أن يولد تنافراً شديداً فى بعض – ولا أقول فى كل – الأحيان!!.

وهنا ينبلج نور معنى مهم جداً فى العلاقة بين أى اثنين – منذ البداية – .. هذا المعنى هو: «التوافق» (وشرط المرافقة: الموافقة!).. (أى: أن يكون هناك توافق نفسى وفكرى بينهما).. فما بالك بالحبيبين ومن ثم الزوجين.. فالشرط الجوهرى لأى علاقة، بخاصة بين الزوجين هو: «التوافق النفسى والفكرى».. فإذا حرصنا على «المبدأ التوافقى» هذا، قبل الدخول أصلاً فى رابطة الزواج، لما فشل زواج بل نما الحب فيه وترعرع، ودوماً تطبعت العلاقة الزيجية فيه.

إن الإنسان منا يكون غير مصدق لحادثة انقلاب عاطفة الإنسان من الحب الكبير إلى الخصومة والعداوة والنفور، كما يحدث فى بعض الأحيان بين زوجين كانا متحابين وصارا متخاصمين.. ولكن تفسير هذا الانقلاب أو التقلب معروف، كما ذكرنا، وهو أن الآخر بالنسبة للنفس هو «مرآة كاشفة لها». ولكن يبطل هذا الأمر، مع وجود «التوافق».. باعتباره ترياق لمرض كشف النفس واحالة عيوبها على الآخرين!. فالحب بلا توافق هو حب ناقص أو هو لا حب!.

وإن أحببنا تلخيص ماهية «الحب الزيجى» فى عبارة واحدة، لقلنا أنه «حب كينونة» لا «حب تملك».. بمعنى أنك تحب زوجتك لذاتها.. لكيانها لا لما تملك من مواهب أو صفات أو خصال فى شخصيتها، ولا أقول ما تملك من ماديات فقط.. و «الحب الزيجى» هو عزف موسيقى بديع أو هو توافق موسيقى جميل للأنغام الموسيقية.. وقد أوضح هذا المعنى «د. وليم الخولى» فى كتابه عن الزواج، فبين أن عازفى الفرقة الموسيقية يعزفون أنغاماً مختلفة ولكنها متوافقة منسجمة، ومن اختلافها وتوافقها نستمع إلى اللحن الجميل.. ولكن لاشك أن كلاً من العازفين لا يعزف أى نغم فى نشاز مع الآخرين، إذ لابد من «علاقة معينة» توحد بين العازفين، رغم اختلاف أنغامهم، وكذلك الأمر فى العلاقة بين

الزوج والزوجة، فلاشك أن قدراً طيباً من التوافق والتقارب يلزم توافره فى حياتهما معاً.

وهذا هو السبب فى أن الزواج بين اثنين من بيئتين مختلفتين اختلافاً كبيراً، مثل زواج اثنين من جنسيتين متباينتين (أى: الزواج من الأجانب) كثيراً ما يفشل، رغم أن كلاً منهما قد يكون صالحاً فى ذاته، ذلك لأن اختلاف المزاج والقيم والمفاهيم والتقاليد والثقافة إذا كان كبيراً، فإما أن يوقعهما فى نزاع مستمر أو قد يؤدى إلى خضوع أحدهما للآخر عن غير رضى، وهذا الخضوع غير محدود بالطبع.. هناك إذاً حداً معقولاً من التوافق لابد من توافره لإنجاح الزواج.. ولكن لننتبه أن التوافق ليس مُرادفاً «للتطابق» بين شخصيتى الزوجين.. ففى القطعة الموسيقية المعزوفة، يوجد اختلاف فى النغمات، ولكن فى ذات الوقت يوجد توافق بين النغمات.. فلكل شخصية بصمتها وتميزها - كما هو معلوم - وهذا التميز والاختلاف هو أحد أهم أسرار الشخصية الإنسانية، وثرائها.. ولكن أيضاً هناك ألوان ومستويات من «التوافقات» مع الآخرين.. فالشخصية الإنسانية المختلفة المتميزة قد تتوافق وتتجانس وتتواءم مع شخصية أخرى لها بصمتها، ولها تميزها هى الأخرى.. وتلاقى الشخصيتين فى الزواج، يثرى الشخصيتين إثراءً محموداً، وتؤثر كل شخصية فى الأخرى تأثيراً مفيداً لكل شخصية.

ولا سعادة زوجية بدون «توافقات زوجية».. ولا قوة دفع لاظهار واستمرار هذه التوافقات، مثل «قوة العشق والحب» الرابض بحنان فى أعماق رؤوفة لرجل وامرأة، رفرف عليهما طائر الوجد والهيام، وأحاطت بهما أجنحة السلام والوئام هاتفة بلا أصوات بل بهمسات لا تموت: «الحب لا ينتهى أبداً!».

ثانياً: سر التشجيع الزيجي:

يقول أحد الباحثين فى العلاقات الزوجية: «الدرس الأكبر الذى وصلنا إليه

بعد البحث فى أسباب الطلاق، هو الطريقة أو الأسلوب الذى يبدأ به الزوجان الحوار بينهما، وينتهى بهذا الحوار إلى شجار.. وهذا الأسلوب هو: الهجوم، من خلال نبرات الصوت، وحركات الوجه واليدين، ومحتوى الكلام من جرح واهانة وازدراء وصياح وشتيمة!».

وعادة سبب الشجار هو تطور الحوار والاشتباك بين الزوجين.. فلماذا هذا الاشتباك أصلاً؟.. ببساطة يحدث الاشتباك بينهما لأن طرفاً يرى تقصيرات وعيوب الطرف الآخر وأخطائه، لذا فهو يهاجم هذا الطرف المخطئ المقصر المعيوب.. ويمنّى الطرف المهاجم نفسه بحياة رائعة وكأنها جنة لا مثيل لها، إذا ما تخلص الطرف الآخر المخطئ من شروره وعيوبه وتقصيراته.. بالطبع يقابل الهجوم بهجوم مضاد.. فلكل فعل رد فعل مساوٍ له فى المقدار، ومضاد له فى الاتجاه!.. ونار الانتقاد والهجوم تولد نار مضادة.. ومن يُلقى زيتاً على نار، يزداد اشتعالها.. ولسان حال الطرف المهاجم، البرئ فى عينى نفسه: «لو أن شريكى يُصلح من حاله وأحواله لأصبح زواجنا سعيداً!».. وهكذا يصوّر الطرف المهاجم نفسه فى صورة «الحمل الوديع».. ويصور الطرف الآخر المخطئ فى صورة «الحية الشريرة» التى تريد أن تخرج الطرف المظلوم من جنته الجميلة!.

تعالى – يا عزيزى – لنفكر سوياً وبمنطقية وموضوعية فى هذا الكلام، وهذه الحجج الزيجية.. ولنرتب أفكارنا فى عدة نقاط أو أسئلة :

١- أين هي عيوبك؟

إذا كنت ترى فى زوجتك عيوباً ونقائص وشرور، فهل أنت ترى عيوبك أم أن عيوبك تضع حاجزاً سميكاً على عينى ادراكك، فلا ترى هذه العيوب، ولا ترى سوى عيوب الآخر.. فأنا برئ وصحيح وغير مُلام فى شيء إنما هى التى...! .. وفى علم النفس يقولون عن مثل هذه الحالة أنها «خطأ ادراكى».. فهنا الزوج

أو الزوجة التى ترى ذاتها «بلا خطأ»، تقع فى «خطأ ادراكى» مؤداه أننى «على صواب دائم» وليس لى عيوب ولا نقائص إنما هو الذى...! .. فهل هذا الكلام من المنطق فى شىء؟.. وهل يُعقل أن أكون إنساناً لا يخطئ؟.. ألعلى ملاكاً، وأنا لا أدرى؟.

وقد يقول قائل: «ربما فى هذا الموقف بالتحديد الزوجة مثلاً هى المخطئة ولست أنا؟» .. والرد بسيط وهين: «من قائل لك أنها هى المخطئة؟ ومن قال لك أنك لم تقم بدور ما فى صنع هذا الخطأ أو لم تشارك فيه أو لم تدفع إليه؟». هناك إذاً خطأ آخر، يضاف إلى «الخطأ الادراكى» (الذى هو رؤيتى لنفسى أننى بلا خطأ)، وهذا الخطأ الآخر هو «الخطأ الحسابى» (أى: خطأى فى حساب النسبة بين خطأى، إذا اعترفت بوجوده، وخطأ الشريك الآخر) .. فلربما أنا المخطئ وليس الآخر.. أو أننى المخطئ بالأكثر منه.. وكم من مرات تم اكتشاف أن الطرف الشاكى أو المهاجم أو البرئ - أمام عينيه - هو الأكثر خطأ من الطرف المشكو فى حقه!!.

٢- أين هو تشجيعك؟

أنت عندما تهاجم أحداً وتنتقده بشدة، إنما تسير فى الطريق الخاطئ.. وتدخل طريقاً، ممنوع أصلاً الدخول فيه.. ألم تقرأ «يافطة»: «ممنوع الدخول»!.. إننا عندما نهاجم العيوب، إنما نبدد الوقت والجهد بلا داعٍ ولا نصل إلى أى نتائج!.. بينما عندما نبدأ بأنفسنا، نشجع الشريك على أن يعترف بخطئه، وبالتالى يصحح من عيوبه.. وبدلاً من هذا الهجوم والانتقاد الشديد، وهى كلها أمور سلبية تهدر الطاقة الايجابية، لعلنا نتبنى استثمار الطاقة الايجابية فى الحوار والتفاهم مع الطرف الآخر.. وهذا الاستثمار معناه تحويل الطاقة السلبية للهجوم إلى الطاقة الايجابية للتشجيع.. هى إذاً خطة تشجيع وجرعة حب واحترام واهتمام وتقدير.

وأنت عندما تكسى الآخر بكساء الحب والتشجيع، فماذا يكون الرد على هذا الكساء الرائع إلا حباً بحب، وتشجيعاً بتشجيع، وماذا يكون المقابل سوى أن يكون الطرف الآخر عند حسن ظنك؟!.. فتجاوز الأخطاء التى يرتكبها الطرف الآخر أو التى تظن أنه ارتكبها.. وليكن تجاوزك لها بلغة «الأفضل»، فبدلاً من أن تقول: «زوجتى مخطئة بل وكلها أخطاء»، قل: زوجتى مدهشة!».. والإنسان يتغير ببساطة وسهولة فى جو الحب والاحترام.. وبالعكس، فالهجوم والنقد المرير يزيد العنيد عناداً، والقاسى قساوةً، وبدلاً من الاعتراف بالخطأ، يعمل الطرف المخطئ على الحفاظ على كرامته المجروحة من جراء هجوم الطرف المهاجم عليه!!.

فلا طعم للحياة الزوجية بدون «مِلح التشجيع»، ولا حفظ الزواج من الفساد إلا بهذا المِلح الرائع.. وهناك مقولة نفسية معروفة تقول: «لكل كلمة نقد تتلقاها النفس، تحتاج إلى (٩) كلمات تشجيع حتى تزيل الأثر السلبى الذى تخلفه هذه الكلمة الناقدة!».

والتشجيع يبدأ من الكلمات.. فما أحلى أن تستبدل بكلماتك السلبية كلمات إيجابية مشجعة بناءة.. وكلمات الحب الدافئة قادرة على أن تذيب ثلوج وبرودة وجمود الكلمات السلبية الهدامة.. فكلمات الإغاظة هادمة للأسرة.. حتى وإن كنت تملك الحق، ومعك الحق، فلا يكون نقدك للآخر أو تنبيهك للآخر بأسلوب إغاظة أو إقحام أو تأنيب شديد بل بأسلوب لطيف لائق، يغلب المزايا على العيوب، ويبدأ بالخصال الحميدة قبل أن يناقش بهدوء وبموضوعية الصفات المعيبة!..

والتشجيع لا يخص العلاقة بين الزوج والزوج فحسب بل أيضاً يخص العلاقة بين الوالدين وأولادهم بداخل الأسرة.. فليس أعظم من التشجيع كأسلوب ساحر لغرس الحب وتنميته وصنع شخصيات سوية فى الأسرة!.

٣- أين هو تفاهمك؟

يحذر خبير اجتماعى فى مقال له بأحد المواقع المتخصصة على «الإنترنت» من نزعة الغاء الآخر وطمس شخصيته، وهى النزعة التى يتميز بها الكثير من الرجال، وفى أحيان أخرى بعض النساء.. وهذه العلاقة تشبه نظام «الحكم الدكتاتورى» الذى يبدو فيه الشعب كله وكأنهم على قلب رجل واحد فى حب القائد الأوحد، ولكن فى لحظة من الزمن يحصل ما لم يكن فى الحسبان، إذ تتكشف حقيقة الولاء الظاهر، لتتحول العلاقة إلى تمرد وهيجان مدمرين.. والعلاقة بين الزوجين هى علاقة «شراكة».. و «الشراكة» تفاهم لا هيجان ولا ديكتاتوريات ولا فرض رأى وهيمنة وسطوة وسلطة.

فعندما أرى زوجتى على قدم المساواة معى، وأنها شخصية إنسانية مثلها مثلى، وأن المحبة تقتضى منى أن أفضلها على نفسى، لأن المحبة باذلة، عندما أرى ذلك، فإنى أُعلىّ جداً من قيمة التفاهم الزيجى معها، لأصل أنا وهى إلى تفاهم مشترك وقرارات مشتركة وتوادّ وتعاون واحد فيما بيننا.. والتفاهم والبحث عنه هو لون من ألوان التشجيع والحب.. فأنا أشجع الطرف الآخر فى الزواج على أن يكون له رأى ورؤية ووجهة نظر بتفاهم فيما بيننا، وبلا أنانية ولا كبرياء بغيضة!.. ومن الأقوال البديعة الموجهة للزوج: «الحب – يا عزيزى – هو أن تعامل زوجتك كما لو أنت تعامل باقة من ورود فواحة!». فأنت فى عهد مع زوجتك.. فهل هو عهد حب أم عهد خصام؟.. وهل هو عهد تراحم وتوادّ وعطف وحنوّ أم هو عهد على التنابذ والهيمنة واثبات الذات؟!.

٤- أين هو أمانك؟ :

عندما تكون شرساً فى هجومك على زوجتك، وقاسياً فى نقدك لها، ومتحفزاً لكى تحصى أخطائها بل لكى تتصيّد لها الأخطاء.. عندما تكون هذا الرجل، ماذا

تُراك تجنى من وراءه سوى فقدان زوجتك الحبيبة للأمان.. فها أنا أسألُك - يا عزيزى - أين هو أمانك الذى تبثه لها؟.. فعند المرأة، ووفقاً لنفسيتها وسيكلوچيتها، الأمان يكاد يعلو على الحب!.. فإن لم تنجح فى بث مشاعر الأمان الحقة لدى زوجتك الآمنة، فحتى الحب الذى تكنه لك قد يتبخر، ويتبدّل رويداً رويداً. فالمصدر الحقيقى لقوة الرجل أن يمنح الأمان للمرأة، فلا تشعر بتوتر أو بقلق أو بتخوف على مصيرها معه.. ويختل بذلك التوازن النفسى لها، وتهتز ثقتها بنفسها.

فربّ كلمة تقولها فى ساعة غضب، يكون ثمنها هو نزيف من مشاعر وأحاسيس امرأتك، ويستمر هذا النزيف لسنوات، وقد لا يُجدى معه كلمة اعتذار أو باقة تعويضات عما حدث!.. والحكمة تقتضى ألا أفقد أرضاً فى حياتى الزوجية لصالح تعظيم كرامتى وكبريائى وذاتى.. فمن يكدّر بيته يجنى الرياح، ويقبض على الهواء.. وعندما ألقى على الآخر طيناً من الأرض التى أقف عليها، فإنما أنا فى حقيقة الأمر أفقد الأرض التى أقف عليها، وأرضى وحياتى، أفقدها تباعاً!.

إن النفس البشرية تنمو بالحرية والحب، وتغتذى بالاحتواء والتشجيع والتسامح والأمانة والتأمين والشعور بالاطمئنان.. فما أجمل أن يكون لسان حالك لزوجتك العزيزة هو: «كونى مطمئنة يا حبيبتى.. كونى فى أمان.. فأنا لن أخذلك.. لن أُتعبك».

وماذا إن كانت هناك أخطاء من زوجتك؟.. جواب: اقبلها وناقشها بروح الهدوء والتفاهم والفهم والتوجيه والارشاد، لا بروح الاتهام والتعالى.. فليست هى وحدها التى تخطئ.. أنت أيضاً.. وليست هى ملاكاً لا يعرف الخطأ له سبيلاً ولا أنت أيضاً.. وإن كان هناك ضعف، فلا مشكلة، نحن ننطلق من الضعف، وننمو

من النقص.. ولنمتد إلى ما هو أمام.. إلى قدام، وننسى ما هو خلف.. ننسى الخطأ، وإن حاولنا علاجه.. ننساه بعد أن نستفيد منه عبرة وخبرةً ودرساً، دون أن نتقيّد به فى مشاعرنا ولا فى سلوكياتنا.. وننطلق من الناقص إلى الكامل.. وفى الهندسة مثل شهير يقول: «إن طريقة البناء يحدّدها نقص مواد البناء!».

ثالثاً: الخصام الزيجي:

أقوى زواج فى العالم يمكن أن يتحطم ويتفتت على جبل صلد اسمه «الخصام الزيجى».. فالسكن على سطح منزل أفضل من السكن مع امرأة مخاصمة.. وقطرات متوالية من ماء الخصام والنكد فى الحياة الزوجية قادرة على أن تفتت أعتى وأصلب الصخور!.

كتب «د. هارى ايمرسون» قصة طريفة، قال فيها: «على سفح جبل شهير فى (كولورادو) ترقد بقايا شجرة ضخمة عمرها أكثر من (٤٠٠) سنة.. ولعلها كانت شجيرة صغيرة عندما اكتشف (كريستوفر كولومبوس) قارة أمريكا فى غابر الأزمان. ولقد أصيبت هذه الشجرة العملاقة فى خلال حياتها الطويلة بالصواعق مرات كثيرة، ومرت بها العواصف العاتية (٤٠٠) سنة متوالية.. ولكن الشجرة الضخمة صمدت فى مكانها.. ثم حدث أخيراً أن زحف عليها جيوش الحشرات والهوام، فمازالت بها تنخرها وتقرضها حتى سوّتها بسطح الأرض، وجعلتها أثراً بعد عين!».. فما المعنى؟.. المعنى أن تراكم الخصومات الصغيرة، والمشاكل التافهة، وكلمات النقد القاسية الصغيرة، تؤدى إلى التحامل، وبالتالى إلى الانفجار، والدمار لشجرة الحياة الزوجية!.

فتوافه الأمور فى الزواج، تؤدى فى النهاية إلى الخصام بين الزوجين، وكان الأجدر أن نمنع التوافه من التراكم، لئلا يؤدى التراكم إلى التحامل بين الطرفين.. فكما تؤدى القنابل العاتية إلى هدم المنازل فى الغارات، أثناء الحروب، فكذا تؤدى قطرات المياه المنسابة تحت أساس المنزل إلى نفس النتيجة المدمرة!.

قال أحد النواب العموميين فى «نيويورك»: «إن نصف القضايا التى تُعرض على محاكم الجنايات تقوم على أسباب تافهة، كجدال ينشب بين أفراد عائلة، أو إهانة عابرة، أو كلمة جارحة، أو إشارة نابية!».. وهناك حكمة قديمة تقول: «القانون لا يشغل نفسه بالتوافه!».. والمثل الحكيم يقول: «إن النار من مستصغر الشرر!».. وقال، ذات مرة، الفيلسوف «بيركليز»، (وهو قد عاش منذ ٢٥ قرناً) «هيا ننهض أيها الإخوان.. فقد طال جلوسنا فوق التوافه!».. وكم من بيوت تدمرت بسبب أسباب صغيرة أو صغار أمور.. وقد أورد «د. مجدى إسحاق» فى كتابه المُذهل «أسرار السعادة الزوجية» قائمة بصغائر الأمور التى تؤدى إلى الخلافات الحادة، حسب كثير من استطلاعات الرأى، وهذه الصغائر هى :

١- إهمال المشاعر المتكرر، وغياب المجاملات البسيطة.

٢- نسيان المناسبات المهمة فى الحياة الزوجية.

٣- كلمات النقد والتجريح، خصوصاً أمام الناس.

٤- غياب اللمسات الرقيقة التى تعبر عن الحب.

٥- الصوت العالى والحاد بشكل مستمر ومستفز.

٦- كثرة السخرية من عيوب الآخر.

٧- كثرة التوجيه والتحكم، مع وجود الالحاح بصورة مستمرة.

٨- عدم الانصات والاستماع لمشاعر الآخر العميقة.

ألم يحن الوقت بعد لنراجع مواقفنا - حسب تعليق «د. مجدى» - ونكتشف حجم الخسارة التى صنعناها بأنفسنا وبيوتنا وأولادنا وعائلاتنا كلها.. فإلى أين يأخذنا الخصام؟.. وكم من الوقت والجهد والطاقة تُهدر بسبب الخصام والتوافه والتراكمات والتحاملات والمناقشات السخيفة العقيمة غير العميقة!.

والآن، يجب التوقف عن الدوران فى دوامات من الاهتمامات بالتوافه

والتفاهات من الأمور.. فالحياة أقصر من أن نقصِّرها.. وما معنى أن نشترى الشقاء لأنفسنا، وندفع ثمن هذا الشقاء من أعصابنا وتعاستنا ودمائنا ومرارة قلوبنا؟.. وما معنى أن نبيع السعادة فى سبيل أن نقتنى الشقاء، ونبتعد عن الشفاء!..

وعندما يتجنب كل طرف اظهار الحب والاحترام والتقدير للآخر، ويحرمه من العشق والاهتمام وصرف الطاقة الايجابية واغراقه بباقات العطف، وعندما تفقد القرارات المشتركة مكانها، ويحيا كل طرف فى دائرته الخاصة، بلا رأى متبادل ولا حوار مع الآخر.. وعندما تنمو الذكريات الأليمة والتحاملات داخل النفوس، ويحيا كل طرف فى الماضى المملوء بالجراح والحزن العميق.. بل وعندما يتجنب الطرفان «لقاء العيون» بينهما!.. عندما يحدث هذا وأكثر، فهذا معناه أن الخصام بدأ يشق طريقه إلى الأفئدة - للأسف - .

والطرفان أو الزوجان أمامهما موقف من ثلاثة :

١- تجميد العلاقات بينهما، حفاظاً على الشكل الاجتماعى أمام الناس فحسب.

٢- الاتجاه إلى الانفصال، خصوصاً عندما يفتقد الاحترام بينهما.

٣- البحث عن الحل والمساعدة والشفاء من جراح الخصام والسعى نحو بناء زيجى حى.

رابعاً: قصص في الخصام الزيجي :

منذ حوالى (١٣٠) سنة. وقع (نابليون الثالث» (إمبراطور فرنسا، وهو ابن عم نابليون بونابرت) فى غرام «مارى أوچينى» وقد كانت «كُنتيسة»، وأجمل امرأة فى ذلك الحين، وأصر على أن يتزوجها، وتزوجها بالفعل بعد قصة حب جمعت بينه وبينها.. وهو زواج، من المنطقى أن ينجح، لتوافر عناصر الزواج السعيد فيه من حب وشهرة وسلطة وجمال وجاه وصحة وسطوة و.. و.. ومع ذلك

فشل الزواج.. هل تدرى لماذا – يا عزيزى –؟.. لأن «أوچينى» تملكتها الغيرة بشكل فظيع، فأخذت تتدخل فى شئون زوجها، وتتهمه بالخيانة لها، وعدم الاخلاص، فدفعه هذا الشك، وهذه الخيانة إلى خيانتها بالفعل، وأخذ يتسلل خارج قصره متنكراً ليخونها مع فتيات الليل!.

وها نحن نرى سبباً مرعباً للخصام الزيجى وهو: «الشك والغيرة».. والحكمة تقول أن المطر الشديد يتساوى مع المرأة المخاصمة.. فما رأيك؟.

ويُحكى عن «إبراهام لنكولن» أن زوجته أحالت حياته إلى جحيم لا يطاق، فكتفاه فى رأيها مُتهدلتان، وأذناه كبيرتان، وأنفه معوج، وشفته السفلى مدلاة، وقدماه ويداه كأقدام القردة وأياديها.. وقد قامت هذه الزوجة، ذات صباح، ولخطأ بسيط ارتكبه «لنكولن» قامت الزوجة بقذف قدح القهوة الساخنة فى وجهه، وهى تسبه وتلعنه.. وأسرعت وصيفة الزوجة لتمسح وجه «لنكولن» من آثار هجمة وهمجية زوجه الوقور!!.

وهذا ما أخذته الزوجة من جراء ما فعلت.. حصدت كراهية وجفاء زوجها «لنكولن»، وقد ظل يقضى عطلته بعيداً عن أسرته حتى مماته.

وها هو سبب شديد للخصام الزيجى وهو: «الإهانة».. وهى كما ترى إهانة غير مبررة مطلقاً، فقد كان معروف عن «لنكولن» أنه كان شخصاً ممتازاً، ويعد أشهر رئيس للولايات المتحدة الأمريكية عبر تاريخها.

ولا أقصد بالقصتين السالفتين أن الخصام مقصور على الزوجة وحدها، وأنها هى دائماً سبب الشقاق والفرقة.. ولكن هناك من الرجال من يعشقون الخصام عشقاً لا يثنيهم عنه أحد ولا رأى ولا شيء ولا هدف!!.. ولكنى أقصد، عموماً، أن الحياة التى يسودها الشك والغيرة أو الإهانة أو أى عامل نفسى آخر مؤلم، هى حياة يتربع الخصام والنكد والشقاء على عرشها ويكاد لا يبرحه!.

خامساً: الاحتياجات الزوجية:

للزواج احتياجاته.. فالزواج أشبه بوردة جميلة تحتاج إلى سعى ورعاية وعناية حتى تكون ناضرة باسمة ناضجة منتعشة طازجة!.. والزواج ما أشبهه بالنبات الذى يحتاج إلى عوامل تنمية حتى ينمو ويزدهر ويثمر أيضاً.. وبدون توفير الاحتياجات للنبات الزيجى، فإنه سرعان ما يذبل ويتهاوى ويسقط، والخوف من أن يكون هذا السقوط عظيماً!.. وكل احتياج غير مُشبع لدى الزوجة معناه قصور فى اشباعه لدى الزوج.. وكذلك كل احتياج لم يتحقق لدى الزوج معناه أن الزوجة هى المسئولة.. فمن هو صاحب الحق أكثر فى أن تشبع احتياجاته؟.. ومن هو عليه الواجب بالأكثر أن يشبع الاحتياجات؟.. عجباً من هاذين التساؤلين!.. يا عزيزى لا يكون هناك صاحب حق أكثر من آخر فى الزواج.. ولا يكون هناك مسئول عن واجب يفوق الآخر.. الطرفان متساويان.

فقد تختلف أو تتباين الاحتياجات.. ولكنها تتساوى بين الزوج وبين الزوجة.. فكلٌ منهما كائن بشرى.. إنسان له ما له، وعليه ما عليه!.

فهيا لنجيب عن سؤال طالما تردد، وقليلاً ما عمل أحد باجابته.

السؤال هو: ماذا تريد الزوجة من الزوج؟.. ماذا تحتاج منه لكى تكون سعيدة ومشرقة وفعالة وناجحة فى حياتها معه؟.. وبناءً على دراسات عديدة، قرأتها ودرستها، ألخص لك - عزيزى القارئ - احتياجات الزوجة من الزوج:

١ - أن يكون الزوج قادراً على تحمل المسئولية، مسئولية الحياة، ومسئوليته عن نفسه وعنها وعن أسرته، والمسئولية تنبثق من الارادة التى تعى دوره كزوج وكأب.. والرجل الحقيقى هو من لا ينساق إلى تحمل المسئولية رغماً عنه، بل يتجه اليها بصدق وهمة وإيمان وفهم وحب وعطف ورغبة فى اسعادها بنبل وتفان.

٢ – أن يعاملها باعتبارها شريكاً حقيقياً لحياته، وليست تابعاً وليست أقل منه ولا دون مستواه، فهي ليست بديلاً لأمه، ولا خادمة له، ولا ابنة أو طفلة، هو المسئول الأكبر عنها.. وهى شريك أنثوى له.. والرجولة الحقة هى التى تجعل المرأة تشعر بأنوثتها الحقة، فلا يمكن أن تشعر امرأة بأنوثتها فى ظل رجولة مهزوزة أو مهزومة أو منتقصة.. والرجل الذى يشعرها بأنوثتها هو رجل قوى شجاع لديه القدرة على الاحتواء، بل وحتى غيرته عليها هى غيرة موضوعية نابعة من حبه ومن خوفه عليها، والمحافظة على أنوثتها المحببة، وليست غيرة نابعة من مشاعر ضعفه أو مشاعر هوانه أو حب الامتلاك لديه أو تعلقه المَرَضِىِّ، وهذه المشاعر والأحاسيس تأخذ شكل «غَيْرة زائدة»، هى فى حقيقتها أقرب إلى الشك، وهذا النوع من الغيرة لا يعنى إلا انهياراً رجولياً داخلياً، وعدم ثقة بالنفس.

٣– الزوج الناجح فى نظر زوجته – ولها حق فى ذلك – هو من يعبر عن عواطفه لها بشاعرية ورقة وشغف عاطفى مدهش، ويحافظ على مشاعرها، ويقدم لها لمسة العطف، وكلمة الحب، ومشاعر الأمان، بل ويشعرها بأنها أجمل امرأة فى نظره، وأنها عشقه الوحيد، وأنها ملء عينيه وقلبه وفكره وكيانه، ويتعامل معها برومانسية محببة.. ولكن ليست الرومانسية والعاطفية والرقة التى يقدمها الرجل لامرأته كافية وحدها لجعل الزوج ناجحاً فى نظرها، وناجحاً فى الأسرة، وفى نظر نفسه ومجتمعه وعائلته عموماً، «فالعاطفية وتوابعها» هى جناح لطائر اسمه النجاح، ولكن أين الجناح الآخر؟.. الجناح الآخر المقصود هنا هو – على حد تعبير «د. عادل صادق» (الطبيب النفسى المعروف) – هو «الادراك السليم للواقع، والحكم الموضوعى على الأمور، والقيادة الواعية المستبصرة بمقتضيات الحياة، فالمرأة تطمئن للرجل المتوازن، وتفتن بالرجل المتكامل، وتتعلق بالرجل الحى المتحرك النشط القوى الشجاع الحالم الرقيق.. فيكون مزيجاً من الرجولة الحقة». ويقول أيضاً: «القائد الناجح (أى: الزوج الناجح) لابد أن يكون حازماً

بلا قسوة وبلا عنف، فالضعيف هو الذى تنتابه حالات العنف والثورة، وهو الذى يقسو قسوة زائدة.. وحزم الرجل هنا مصدره عقله ومنطقه وحجته وقدرته على أن تقتنع زوجته بآرائه.. والحزم لا يعنى أن يكون مرهوباً بل أن يكون عطوفاً.. ففى العطف حزم.. وفى المنطق حزم.. وفى عدم التنازل وعدم التهاون فى الأمور المهمة حزم.. وفى التجاوز عن الصغائر حزم.. وفى التسامح عن أخطاء غير مقصودة حزم أيضاً»..

بينما الفشل يتربص بكل زوج قليل الحيلة والحركة والهمة والنشاط.. انهزامى أو من دعاة الهزيمة.. ينسحب من المواقف الضرورية، ويهرب من المواجهة ولا يتخذ مواقفاً حازمة وقت الضرورة، وسرعان ما يتهاوى إلى مهاوى الخذلان واليأس ويتسم بسرعة الانفعال والتهيج والغضب بإزاء المواقف الصعبة، وبالتالى يفتقد لروح القيادة، وفى تهاون مخزٍ، يقبل سيطرة الآخرين عليه، وهيمنتهم عليه فلا يحزم ولا يقود ولا يُشعر زوجته برجولته، وبالتالى لا تشعر هى ولا تُشعره بأنوثتها!.

٤– أن يكون الزوج مقدراً لتعب زوجته فى البيت وفى تربية الأولاد، وليس مقدراً فقط بل ومشاركاً لهذا التعب أيضاً، ومساعداً لها فى الأعمال داخل البيت، فهذه المساعدة إن نمّت على شىء، فإنما تنمُّ عن حبه لها وتقديره العملى – لا النظرى – لتعبها وبذلها.. أليس الحب المقدّم من المحب إلى المحبوب هو حب يفرغ النفس من ذاتها المتكبرة الأنانية، ويفتح القلب نحو الآخر فى ود صافى غير مصطنع؟.. وأليس الحب الحقيقى هو الحب العملى الباذل المضحى غير المنغلق على ذاته؟.. والحب الصامت غير العامل، غير العملى إن هو إلا حباً مغتالاً أو مختالاً بما ليس فيه من حب حقيقى!..

٥– وهناك مطلب أساسى، قد تتحرج من طلبه، ولكنها فى النهاية تطلب بل تطالب به.. إنها تهمس لزوجها «أرجوك يا حبيبى.. احترمنى.. لا تجبرنى..

تعامل معى معاملة العاطفة الراقية قبل الاتجاه للجسد.. وذلك فيما يتعلق بالعلاقة الحميمة بيننا.. وأرجوك ألاَّ تتضايق إذا رفضت فى وقتٍ ما هذه العلاقة، بسبب ظروفى أو حالتى الجسدية أو النفسية.. فياليتك يا عزيزى تقدِّر ظروفى وحالتى!».

٦- ألا يهمل الزوج زوجته اهمالاً عاطفياً، فقد أفادت دراسة تم اجراؤها فى إيطاليا أن من أكثر الأمور التى تغضب النساء من الرجال ما يُعرف بـ «الاهمال العاطفى»، فكثيرات من النساء المشاركات فى الدراسة، يشكين من رغبة الرجل المستمرة فى الحصول على الإطراء دون أن يكلف نفسه عناء تذكُّر أبسط الأمور التى تهم زوجته، كيوم ميلادها مثلاً أو ملاحظة طريقة تصفيف شعرها الجديدة أو ملابسها التى اشترتها حديثاً.. «فالإطراء العاطفى» عامل من أبلغ العوامل على إنجاح العلاقة الزوجية.. والحكمة تقول أن الكلمة الطيبة تسمن حتى عظام الإنسان، لا نفسه ولا قلبه ولا روحه فقط!!.

٧- أن يهتم الرجل بأن يساعدها على أن تبنى شخصيتها، وتصنع نموَّها النفسى والاجتماعى إلى جواره.. فليس الرجل هو كل شىء، والمرأة هى لا شىء أو هى مجرد مساعد أو معاون أو معضد للرجل فقط.. لا - يا عزيزى - هى «شريك حياة» فأنت تنمو بالقراءة والثقافة والخبرة العملية والمعرفة والمسئولية والحكمة.. ولابد أن تشركها معك، وتوجهها إن هى احتاجت إلى توجيه.. وترشدها عند رغبتها فى الارشاد.. وتقيم صرح نفسيتها قوية مرنة لها خبرتها.. إذ أنه لمن قبيل الأنانية المستترة أن ينمو الرجل دون أن يعمل على إنماء زوجته.. إن لسان حال الزوجة التى يهملها زوجها فى الإنماء العام لشخصيتها وعقلها: «لا تدفنى بجانبك يا زوجى!».

٨- تطلب المرأة من الرجل، زوجها ألا يفاجئها بقراراته أو أفعاله.. وتودُّ أن تؤكد عليه أن يتحاور معها قبل اتخاذ القرار أو الفعل.. ومازالت تصر - وهذا حقها فعلاً - على أنها «شريك» فى التفكير واتخاذ القرارات، خصوصاً تلك

القرارات التى تعود بالفائدة أو بالخطورة على حياة الأسرة كلها.. فهل هناك ما يضر الزوج من الحوار والمناقشة والتحاور مع زوجته..

يقول «د. وليم الخولى» قولاً رائعاً فيما يختص بحياة الشركة الزوجية أو الشراكة الزواجية بين الزوج والزوجة: «أنت نفسك حينما تكون بازاء مشكلة مهمة، فأنت تقلب الأمر بين يديك، من جميع وجوهه، وتعارض نفسك مراراً، قبل أن تصل إلى حكم أقرب إلى الصواب.. ولا تنس أنك لن تتزوج عجينة تشكلها كما تريد، بل تتحد بإنسان له كيانه وخصائصه!».. وروعة القول أنه يشير بوضوح إلى ضرورة «المشاركة فى الرأى».. فإذا كنت تأخذ وتعطى مع نفسك، فبالأولى أن تأخذ وتعطى مع قرينة نفسك بل مع نفسك الأخرى التى هى زوجتك وشريكة حياتك وأيامك.. ألست أنت وهى أصبحتا «نفساً واحدةً» !!.. أقصد أصبحتا متحدين وكأنكما صرتما نفساً واحدة أو شخصاً واحداً.

يا – عزيزى – أرجوك لا تظن أنها (هى) أقل منك.. ولا تثق فى نفسك بكبرياء مكتفٍ بذاته فى التدبير والرأى والتفكير.. أنتما «واحد».. فلعلك تثق فى قدراتها، وتفكيرها وتسمع رأيها، وتحترم هذا الرأى.. وتقدر هذا التفكير.. فهى تفكر وتدلى بالرأى، وأنت أيضاً.. وتتفاعل الأفكار والآراء لتنتج فكراً صائباً أو رأياً جميلاً حكيماً.. فالفيلسوف الألمانى الكبير «هيجل» يقول أن احتكاك وتضافر فكرتين، وتفاعلهما معاً يؤدى إلى انبلاج وظهور فكرة ثالثة أو رأى ثالث هو الأشمل والأصوب، عادةً، من الفكرتين الصانعتين لهذه الفكرة الثالثة الأخيرة!!..

٩– توجد حقيقة، تشعر بها الزوجة أبلغ من الزوج، نظراً لحساسية وعاطفية المرأة بشكل متميز أو أنثوى خاص.. هذه الحقيقة هى أن «الفتور الجنسى» بين الزوجين يعد علامة على «الفتور العاطفى»، وعلى «فتور التفاهم والحب»، و«سواد العناد والأنانية»، و «الفتور النفسى».. «فالفتور الجنسى» مرآة لكل أنواع الفتور والأنانية والعناد.. وهذا كله وغيره يهدد ما يسمى بـ «التآلف الزيجى».. فـ

«تآلف الأجساد» يسبقه، ويتبعه «تآلف الأرواح والقلوب».. إنها «علاقة تبادلية» بين الأجساد والأرواح والقلوب..

١٠- هناك رغبة مستمرة لدى الزوجة، ولكن قلما تتحقق لها هذه الرغبة.. إنها ترغب - ببساطة - في «الحَكْي».. هي تحب أن يحكى لها زوجها كل شيء.. يحكى لها عن تفاصيل عمله، وماذا فعل في يومه، وماذا رأى، وماذا قابل من أناس، وماذا تكون حياته خارج البيت.. وهي تكاد تصيح في وجهه: «لماذا تحكي أخبارك لأصدقائك، وتتكلم معهم ساعات وساعات، خارج البيت، أما أنا فلا؟»..

وقد يكون ما تطلبه الزوجة منك مبالغاً فيه بعض الشيء أو مبالغاً فيه في أشياء عديدة.. ولكن احترم طبيعتها الأنثوية.. فهي بحكم طبيعتها تحب «الحَكْيْ»: تحب أن تحكي، وتحب أن يحكى لها زوجها.. ربما لأن الحَكْي يشعرها بالأمان.. بدفء الكلمات والمعاني.. ربما!.. ولكنها طبيعتها وهذا ما تحب وترغب.. فهل هناك مشكلة أو مَضَرَّة عليك كزوج، أن تشبعها بشيء من الحكايات؟.. ثم أن هناك سراً مهماً ومفيداً في الحَكْي مع الزوجة، غير اشعارها بشيء من الأمان، وهذا السر هو التقارب والتلاقي بينك وبينها.. فالكلام، أياً كان لونه أو نوعه طالما ليس جارحاً، وسيلة تقارب وتلاقي وتعاضض نفسي بين الناس.. فبالأحرى بين الزوجين!.

ولعلنا بذلك نسعى نحو تلافي ما يعرف بـ «السكتة الزواجية» أو «الصمت المنزلي»!!.. ولا يحتاج إلى أن أؤكد عليك اهمية اشاعة روح المرح في بيتك.. ومع زوجتك.. فمن الأمور المحببة وأيضاً المشعرة بالأمان لدى الزوجة أن يمرح معها أو أمامها زوجها.. وليس في المرح البرئ عيباً.. فالقلوب إذا كلت طلبت شيئاً أو أشياء من الترويح المريح لها وللنفوس!.

والمرح هو فرح.. هو شيوع بهجة وراحة نفسية واسعاد قلوب.. وأى حياة لها معنى بلا سعادة!.. فهل تستكثر أن تمنح قبساً من السعادة لزوجتك، للنصف الآخر من جسدك ونفسك وقلبك وحياتك و.. و.. أليست شريكاً؟.. والمرح يولدً مرحاً.. والبهجة تصنع بهجةً.. والسعادة تجذب سعادة.. والفرح فى ذاته هو قوة نفسية، تسعد، وتعلى النفس أيضاً فوق نوائب الدهر وتقلبات الأيام.. إن الفرح أشبه بكمية كبيرة من القطن، إذا سقط عليها إنسان غفلةً أو عرضاً، ما أصابه مكروه.. لأن القطن امتص سقوطه أو صدمته.

فلتكن إذاً معانى وكلمات وعبارات «الفرح» و «البهجة».. و «المرح».. و«السعادة» على ألسنتنا، وفى قلوبنا، ومعششة فى عقولنا، ومرفرفة على حياتنا بأسرها.. فأسرة مرحة تعنى أسرة فَرِحة!.

وفيما يلى احتياجات الزوج من الزوجة :

١ – الزوج يحتاج من الزوجة «التبادل»، أن تبادله حباً بحب، وولاء بولاء وأن يكون لحبه وبذله لأجلها مردود متوازن تجاهه.. فالحياة الزوجية، فى العلاقة بين الرجل والمرأة هى علاقة أشبه بلعبة «البنج بونج» أخذاً وعطاءً.. فلا معنى لأن يعطى الزوج دائماً، وتأخذ الزوجة دائماً، أو العكس.. ولكن إذا ساد الجمود من طرف تجاه آخر فى الزواج، فمثل هذا الجمود كفيل بأن يخنق العلاقة الزوجية، ويملأ احساس وشعور الطرف الباذل المعطى بمشاعر الاحباط.. وإن كان هناك من الأزواج من يحبون أن تبادر – وليس أن تبادل فقط – الزوجة باظهار العواطف والمشاعر الايجابية المعبرة عن الحب والولاء والشراكة الزواجية، بل ويطالبها بألا تخجل من اظهار مشاعرها وعواطفها.

٢– الزوجة الناجحة هى من تتخير الوقت المناسب، والظروف المناسبة حتى تطلب من زوجها ما تريد.. فالزوجة الذكية هى التى تحسن التخير أو اختيار

الوقت والظروف المناسبين دائماً.. وهذا النوع من التخيير هو نوع من الذكاء الاجتماعى.. وحقيقة ما أحوج الحياة الأسرية إلى هذا الذكاء.

٣- الزوج يحتاج من الزوجة ألا تكون متسلطة.. فلا تقتحم مساحات حريته، وتتدخل فى شئونه، وتعبر عن نفسها بالصوت العالى، وبالغضب الشديد، فالزوج يحب أن يرى فى زوجته جمال الأنوثة الوادع الذى لا يتدخل ولا يقتحم ولا يتعالى ولا يغضب وإلا فما معنى الأنوثة فى عيون الرجل؟.. والزوج يطالب زوجته بأن تخفض صوتها عندما تتناقش معه، خصوصاً أمام أبنائهم.. ويطالبها أيضاً بألا تسخر منه، أو من تصرف أو أكثر يكون قد قام به، خصوصاً إذا كانت هذه السخرية أمام الناس أو أمام الأبناء.. وأن تقلل الزوجة من كلمات النقد والتجريح، وتكثر من كلمات البناء والمديح والتقريظ.. فالزوجة عندما تمتدح زوجها، وترفع نفسيته، فهى إنما تضفى عليه قوة مضاعفة تجعله يزداد فى حبه لها، وحمايته لها، وحفاظه عليها، ويكون على استعداد أن يحمل جبالاً لأجلها!.

٤- سر جمال الزوجة فى عين الرجل الزوج، أن تكون هادئة الأعصاب، وغير قلقة، وتأخذ الأمور ببساطة وصبر وصدق.. وقد قال الشاعر «طاغور» مقولة جميلة: «الزوجة الجميلة هى التى تخلق الجمال فى قلب زوجها!».. وجمال الزوجة ليس جمالاً خارجياً فقط، ولكن بالأحرى هو جمال داخلى يُسبَغ على خارجها، فتصبح زوجة جميلة حقاً من خارجها، ومن داخلها أيضاً.

٥- يحتاج الزوج من زوجته ألا ترهقه بمطالب مادية، وزينة خارجية تفوق امكانياته.. فالزوجة التى لا تقدر ظروف زوجها وترهقه بطلباتها المادية المتزايدة إنما هى زوجة أنانية لا تعبأ بشيء إلا بنفسها.. وهى لا تدرى أنها بذلك تخسر زوجها بل وتخسر تلك النفس التى لا تعبأ بسواها، فى نهاية المطاف.. ولتعلم الزوجة أن القناعة هى الأصيلة والباقية والتى لها الأولوية فى الزواج الصحيح!.. فالكلمة السارة من الزوج وليس الرصيد البنكنوتى الكبير.. والابتسامة العذبة من الزوجة

وليس أطنان التزين والملابس، أقول أن الكلمة والابتسامة همـا معيار السعادة فى الأسرة، ونبراس الفرح!.

٦- من الأزواج من يتجرأون ويقولون: «لقد أصبحنا مواطنين من الدرجة الثانية، عندما أنجبنا!» .. فيظل الأزواج، غالباً وليس فى كل الحالات بالطبع - شاعرين أن الأولاد قد أخذوا مكانهم، واستولوا على مراكزهم فى البيت، وأصبح جلّ اهتمام الزوجة أو الأم هنا هو بأولادها، وكأن الزوج غدا مجرد «صرّاف فلوس» أو شخص يقوم بحل المشاكل فى البيت.. ومن هنا يشعر كثير من الأزواج، بالدونية، وأنهم مواطنون ليسوا من الدرجة الأولى، وأن الحياة الزوجية صارت مجرد «عقد تجارى» بين طرفين، مفتقدة للحنان والمشاركة العاطفية القلبية.. ويترحمون على أيام الخطوبة التى ولت، وعلى الأيام الأولى فى الزواج.. فهل حياة زيجية بهذا المفهوم الحالى، هى حياة حقيقية وفعالة وقوية أم أنها فى حقيقة أمرها حياة شكلية مظهرية؟!!.

٧- يقول الزوج لزوجته: «أرجوكِ يا حبيبتى، اهتمى بملابسك، وبمظهرك داخل البيت، بحيث يكون جميلاً وأنيقاً، فالعيون التى ترى جمال ملابسك خارج البيت، وتُعجب بها، أفليس عيناى بالأولى، وأنا زوجك!» .. والواقع أن الزوج له الحق فى قوله.. لأنه ما معنى أن تنشر الزوجة الجمال خارج البيت، ولا تنشره داخل البيت؟ أليس فى هذا انقسام لدى الزوجة؟.. ثم أيهما أجدر بالاحساس بالجمال وتذوقه مَنْ فى الخارج أم مَنْ فى الداخل؟..

ولا ننسى أن اهتمام الزوجة بجمالها وملابسها ومظهرها داخل البيت إنما هو فى حقيقته امتداد لاهتمامها بزوجها، واحترامها له ولتذوقه للجمال، وهو نوع من الرعاية المعنوية للزوج، عن طريق تجديد احساسه بالجمال وبقيمة وجود الزوجة الذكية الواعية الجميلة معه.. فالجمال الخارجى يشير إلى الجمال الداخلى ويضعه فى «برواز» أنيق!.

٨- يرفض الزوج أن تعاقبه زوجته بأن تمتنع عن العلاقة الحميمة معه.. ويرى أن مثل هذا الأسلوب منفر ومهبط من قيمة زوجته بل من قيمة العلاقة الزوجية كلها فى نظره.. فليس هذا أسلوب عقاب إنما أسلوب مهانة للزوج.. فالمفروض فى علاقة الزواج أن الزوجان يتوحدا فى كل شىء جسدياً ونفسياً وذهنياً و.. و.. فما معنى أن ترفض الزوجة التوحد جسدياً كأسلوب من أساليب الضغط أو التخويف أو المعاقبة لزوجها؟.. أليس مثل هذا الأسلوب دافع ومعثر للزوج للبحث عن طريق آخر منحرف لاشباع رغبته.. بالطبع هذا الأسلوب الآخر خطأ، ومهما كان الدافع إليه أو الحافز نحوه، فالخطأ هو الخطأ، والخطأ لا يبرر بخطأ مطلقاً.. ولكن تأكدى يا - عزيزتى الزوجة - أنك متضامنة ومسئولة بشىء أم بآخر فى دفع زوجك إلى القيام بالأسلوب الآخر المقابل الخاطئ هذا!!.

٩- بقدر ما تُسعد الزوجة زوجها، بقدر ما يُسعدُها هو.. وتكون سعادتهما امتداد واستمرار «لشهر العسل» ونموٌ له أيضاً.. والسعادة أو الاسعاد - قبل كل شىء - هو رغبة واقتناع وارادة نافذة (أو سلوك).. وهذا ما يعرف بـ «تهديف الحياة» (بمعنى: أن يكون للحياة هدف، وهو السعادة).. وسوف أعرض ذلك بالتفصيل عن مفهوم «السعادة الزوجية» فى نقطة مستقلة لاحقاً.

١٠- أن تقبل الزوجة زوجها كما هو، وهو ما يُعرف بـ «قبول الآخر».. فالزواج وعد نهائى غير مشروط يقطعه كل منهما مع الآخر، ولذا يجب التزام الواقعية فى تقدير ما يرجوه الواحد من الآخر، فلا يتوقع منه السلوك المثالى، إذ أن من طبع الإنسان أن يخطئ، وأن يصحح أخطائه أو يحاول ذلك.. والمحبة تستوعب وتحتمل كل أخطاء الآخر.. فالزوج يطلب هذا الاحتمال من زوجته.. يطلب منها أن تعذره.. أن تستوعبه.. أن تغفر له أخطائه. وألا تعايره بها.. لأنه إنسان لا ملاكاً.. وتعطيه فرصته فى الخطأ والاستفادة من الخطأ، وتصحيح الخطأ.

وينبغى ألا تحلق الزوجة (ولا الزوج) أيضاً فى سماء المثاليات والخياليات، إذ

أن الحياة الزوجية هى «حياة واقعية عملية ترنو نحو المثالية».. فالهدف من واقعية أو عملية الزواج أن يسعى كل من الزوجين نحو مزيد من المثالية والقيم العليا والنموذج المثالى للحياة الزيجية.. ولكن فرقاً ما بين أن تكون الحياة مثالية تماماً، وهذا مستحيل، وبين أن تكون الحياة فى سعى دؤوب، وفى سلوك مخلص فى اتجاه الحياة المثالية كهدف بعيد، تقترب منه رويداً رويداً حتى ولو لم ندركه تماماً!.

سادساً: السعادة الزوجية:

فى أيام مجد «الإمبراطورية الرومانية»، استعصت مدينة «اسبرطة» على أى هجوم من الإمبراطورية أو غيرها، فقد بلغت هذه المدينة من القوة العسكرية درجة جعلتها تستعصى على أى مهاجم، ويعيش فيها المواطنون فى أمن كامل وأمانٍ دائم.. وحدث أن زار أحد سفراء دولة أخرى ملك «اسبرطة» لعله يعرف أو يفهم منه كيف يكون أمن هذه المدينة الرائع.. وقد توقع السفير أن يجد المدنية مُحاطة بسور جبار يحميها، ولكنه دُهش عندما لم يرَ للمدينة سوراً وسأل الملك: «يا جلالة الملك، إننى لا أرى سوراً أو استعدادات دفاع لهذه المدينة، لحمايتها، كيف ذلك؟.. وكيف تكون المدينة من أكثر المدن المُحصنَّة فى العالم، وهى بلا سور؟».

ابتسم الملك، وطلب من السفير أن يأتى معه ليريه كيف تتم حماية المدينة بلا سور؟.. قام الملك والسفير، وسارا معاً حتى وصلا إلى سهل مرتفع قرب مدينة «إسبرطة»، وعلى هذا السهل فوجئ السفير بمشهد رهيب.. رأى كل جيش الملك واقفين، ومتأهبين، وكأنهم على وشك خوض معركة هائلة، وكل جندى وقائد فى جيشه يقف بمنتهى الانتباه والاعتزاز والحمية..

فأشار الملك إلى جيشه المغوار وقال للسفير الضيف: «إن إسبرطة يحميها سور من رجال لا سور من طوبٍ ورمال!».

انتهت القصة البليغة، ولعل معانيها لا تنتهى من مخيلة الأزواج والزوجات.. والسؤال المهم: ما الذى يحمل ويحمى حياة الزوجين؟.. أى نوع من الأسوار يحمى بيت الزوجية؟.. هل الحجارة الجامدة أم الحجارة الحية؟.. وما هى الحجارة الحية سوى حياة السعادة الدائمة والفرح المقيم بين الزوجين.. لقد كتبت فى موضع سابق أن الفرح قوة، وأن الحزن ضعف.. والابتسامات التى تظلل على الأسرة هى سور لها يحميها ضد أى عدو ماكر يبغى اقتحام الأسرة وهدمها.. وما أكثر الأعداء!..

أتريد أن تعرف من هم هؤلاء الأعداء؟.. حسناً.. سأقول لك.. الحزن عدوّ.. والخصام عدوّ.. والخوف عدوّ.. والأنانية عدوّ.. و.. و إلى آخره.. أما السعادة الزوجية فهى وقاية وسور يحول دون الاعتداء عليها!.. فالسعادة هى «سور وقائى» دائم.. وقد نادى بهذه الحركة الوقائية أو هذه الومضات الوقائية «م. شوقى توفيق» فى كتابه «ومضات وقائية نحو أسر قوية».. وارتأى فيه أن الحركة الأسرية الوقائية القائمة على السعادة الزوجية (زوج وزوجة وأبناء) هى حركة ودعوة بناءة صالحة لمواجهة ما أصاب العالم من تغيرات، أدت إلى عدم الاستقرار وضعف الترابط والتفكك الأسرى، وتبدأ الشكاوى من الأزواج والزوجات، والكل تسكنه المرارة، وتفيض على من حوله، فبدلاً من أن ترفرف السعادة الزوجية على الأسرة وعلى الزوجين، تتفاقم التعاسة الزوجية..

إن العالم دعى إلى البرامج الوقائية على اختلاف أنواعها وجوانبها من وقاية صحية بالتطعيم ضد الأمراض الوبائية والتوعية بالتغذية السليمة.. ووقاية بيئية بالحرص على نقاوة الجو والبيئة من التلوث.. ووقاية زراعية من أجل حماية المحاصيل من الآفات الزراعية.. وهكذا ترى أنها وقاية من كل جانب.. ولكن على الرغم من كل هذا، فلم تسارع الأسرة كما يجب أن تكون عليه المسارعة لأجل أن تتخذ «سور الوقاية» ضد كل ما يسرى فى المجتمعات والعالم من حركات

وتطرفات تهدد سلامة الأسرة وسلامة كل عضو فيها، بخاصة تهدد عرش السعادة الزوجية.. فالمجتمع يبنى الأسرة.. والأسرة تبنى المجتمع.. والسعادة هى التى تبنى الأسرة والمجتمع.

والسعادة الزوجية قادرة على أن تهزم الوحدة، ومن ثم الكآبة التى يمكن أن تهيمن على الزوجين إن عانا من الوحدة.. ومن أقوال «أينشتين» (أشهر عالم فى تاريخ البشرية): «من العجيب أن أكون معروفاً (أو مشهوراً) على مستوى العالم، ومع ذلك أشعر بالوحدة!».. فما هى الوحدة؟.. الوحدة هى أن أعيش مع ذاتى وحدها.. وذاتى لا تشبعنى ولا تسعدنى.. إذ لا اشباع إلا مع ذات أخرى.. فإن لم توجد هذه الذات أو لم تكن قادرة على اشباعى أو إن كنت أنا غير قادر على أن أشبع بهذه الذات الأخرى، فأنا إذاً أعيش مع ذاتى وحدها حيث الفراغ والوحدة والدائرة المغلقة.. وهكذا يا - عزيزى، ويا - عزيزتى - الحياة الزوجية دفء الشعور بالآخر لا بالذات.. فأنا أستدفئ فى ذاتها.. وهى تستدفئ فى ذاتى.. بل وحتى فى غياب الآخر عن ذاتى، فهو (أقصد: الآخر) غائب بجسده دون روحه وصورته، فها روحه وصورته مرتسمة وملتحمة فى ذاتى، حيثما أذهب، وأينما أسير.

ولا استدفاء ولا التحام بين الذاتين بدون حب.. بدون فرح.. بدون سعادة زوجية.. فكيف ألتحم وأتحد بمن لا أحب ولا أسعد به؟.. وبدون السعادة والاشباع الزوجى على كافة أصعدته، فأنا جائع وحائر وناقص كزوج.. فيا ترى ماذا تفعل إذا جعت ولا طعام هناك؟.. أو إذا عطشت ولا ماء بين يديك؟.. لابد لك أن تبحث عن أى طعام.. عن شربة ماء.. إذ لا يُعقل أن تظل محروماً مما تحتاج!.

ومن القواعد الشهيرة النفسية أن الاحتياج النفسى أو الجسدى إن لم يتم اشباعه بطريقة صحيحة سديدة، فهو يظل يجأر بالشكوى ويصرخ حتى وإن بلا

صوت ويتحدث بلا كلمات: «أريد أن أشبع.. أريد أن أرتوى.. أريد أن..». وقد يظل الإنسان صامتاً ومحتملاً فترة من الزمن.. وقد يجاهد الإنسان لئلا ينحرف فى طريق آخر غير صحيح، يحقق له اشباعاً ولو وهمياً ولو مؤقتاً.. ولكن عادة بعد فترة من المجاهدة ضد الاحتياج، طالت أم قصرت، تسلم النفس نفسها إلى أول بادرة اشباع لها.. ولاحظ عبارة «أى بادرة» هذه.. إذ من الواضح أن البادرة قد تكون خاطئة أو مضللة أو خادعة.. والعجيب أن تحرك النفس نحو ما يشبعها، غالباً ما يكون على مستوى اللاشعور أو اللاوعى.. وقد ينتهى هذا كله بتدمير للنفس، ومحق لها.. فلماذا كل هذا؟.

جواب: لأن نقص الاحتياج يدفع الإنسان تحت ضغط هذا النقص ووطأته الشديدة والحاحه المُضنى إلى أى اشباع.. إلى أى شىء.. إلى أى حد.. فالبطن الجائعة جوعاً شديداً تريد أن تُلقى فيها أى شىء.. أى أحد، وكفى!.. نعم هذا خطأ بيّن واضح.. ولا اعتذار عنه، ولا عذر فيه ولكن ما العمل، والطرف الآخر فى العلاقة الزوجية زوجاً كان أم زوجة عليه مسئوليته عن هذه الحالة المريرة!.

فالسعادة الزوجية مأكل ومشرب نفسى وجسدى، إن لم يتحقق ولم يُشبع، ماذا تكون النتيجة إذاً؟.

وإذا أردنا تعريف معنى السعادة الزوجية لقلنا أنها رفرفة روح العطاء والبذل والتقارب فى العادات والميول والأفكار والعواطف والسلوك، وأن يحوى عش الزوجية حالة نشوة نفسية وعاطفية تتخلل كل نواحى حياة الزوجين داخلياً وخارجياً، حتى تمنع تخلخل أى ناحية من هذه النواحى.. فالسعادة الزوجية إذاً هى التكامل فى حياة الزوجين فى الداخل (أقصد: فى داخل نفوسهم)، وأيضاً فى الخارج (أى: فى خارج النفوس، فى علاقاتهما معاً).. والسعادة الزوجية كالبناء لا كالأساس فقط.. فهناك أساس لأى بناء.. ولكن الأساس وحده ليس كافياً.. لابد من البناء عليه، ولابد من احتمال البناء.. ولابد من صيانة البناء،

والحفاظ عليه، وتجديده وطلائه وتجديد طلائه.. وأمور عديدة لئلا ينتهى البناء أو – على أقل تقدير – يتهالك ويصبح قبيحاً ومُهملاً.. فالسعادة ليست مُلك أيمننا.. ليست مِلك يمين كل زوج وزوجة إلا بمزيد من الرعاية والعناية والتعهد والمحافظة!.

والسعادة الزوجية لها مقومات وعناصر، من شأنها أن تحقق هذه السعادة للزوج والزوجة بشكل متوازن ومتنام ومتأجج.. وهذه المقومات هى:

١- الرغبة في الإسعاد:

يعلمنا علم النفس أن تنفيذ شيء هو رهن أولاً بالرغبة فيه، وفى تنفيذه!.. فالرغبة الشديدة فى الوصول إلى شيء ما، يولِّد بداخل النفس إرادة قوية للوصول إليه بالفعل..فالإنسان هو الرغبة.. وهكذا الحال بالنسبة للسعادة الزوجية.. اسأل نفسك – يا عزيزى – هل أنت تريد أو تبغى أو ترغب فى اسعاد شريكة حياتك أم لا؟.. سؤال غريب.. أليس كذلك؟.. ولكنه سؤال مهم مبدئى قبل الخوض فى أسئلة أخرى.

والمنطق يعلمنا أن يسعى الإنسان نحو اسعاد نفسه.. والحقيقة تعلمنا أن لا سعادة للنفس مطلقاً طالما كانت النفس حبيسة بداخل نفسها.. فلا سعادة لنفسٍ وحدها بلا آخرين.. والحكمة تقول إنه ما استحق أن يولد من عاش لنفسه فقط.. وليس ذلك فقط، بل النفس التى تعيش لنفسها وحدها، لا تستطيع أن تعيش بسعادة.. فالبئر الذى لا يشرب منه الآخرون يجف.. والحفرة التى لا تأخذ منها لا تكون عميقة، ولا تصل بك إلى المياه التى فى جوف الأرض!.. قل هى «مياه السعادة» المروية للنفوس العطشى للحب وللجمال!.

٢- الحب «بالرغم من»:

الحب هو غذاء العقول والنفوس والقلوب.. وحياة بدون حب هى حياة بدون

حياة.. وأبلغ ميدان للتعبير عن الحب بمعانيه العديدة، هو ميدان الزواج، حيث تصل العلاقة بين الزوجين إلى مستوى من الحب والوحدة والاتحاد بينهما، إلى درجة يشعر معها الزوج أنه حامل لزوجته دائماً.. أليس زوجاً لا فرداً (أى: ٢×١) ؟.. وكذا الزوجة.. ولا توجد علاقة حب فى العالم، وفى كل أنواع علاقات الحب، تعبر عن هذه الوحدة الائتلافية العجيبة بين رجل وامرأة جمعهما الحب، ووحد بينهما الزواج.. لدرجة أنه من طول العشرة بينهما، يأخذ كل منهما من ملامح الآخر، ليست الملامح الجسدية أو الشكلية فحسب بل بالأحرى الملامح النفسية والشخصية والمعنوية.

ولكن هل الحب هو التطابق مع نفسى تماماً، وكأنى أحب نفسى فيما أحب زوجتى، وكأنها مرآة لنفسى أو كأن لا لوجود لهافى ذاتها بل وجودها فى ارتباطها بى أنا ذاتى؟.. طبعاً إذا كان الحب بهذا المفهوم المنحرف، فهو ليس حباً بل عشقاً للذات، وهذا العشق للذات يتنكر فى صورة حب للآخر، للزوجة!..

ولكى أعلم، هل أنا أحب الآخر، شريكة حياتى بالفعل أم أنى أحب صورة ذاتى فيها، فلأواجه ذاتى بسؤال: هل أنا أحبها «بالرغم من» أم «بسبب أن» ؟.. سؤال عجيب.. لأوضحه لك.. عندما تحب إنساناً، فغالباً ما تكون هناك صفات وخصائص وخصال فى هذا الإنسان، تثير اعجابك وحبك له.. وهذا هو الحب «بسبب أن» المحبوب له من المواصفات والصفات ما يستحق الحب، وخصوصاً إذا كانت هذه المواصفات والصفات تسعدنى وتشبعنى.. ما رأيك فى هذا المفهوم للحب؟.. أليس يحمل معنى «المنفعية» ؟.. وبالطبع ليس مقصوداً أن ترتبط بامرأة، مليئة بالنقائض والعيوب والمثالب، لتكون زوجة لك، ولكن أنت تختار من تتوافق معك، ومن بها من الصفات ما هو طيب.. هذا حسن.. ولكن إذا ظهرت عيوب لها – ولا إنسان خالٍ من العيوب – فى أثناء الخطبة أو فيما بعد، فى الزواج، فماذا أنت فاعل؟.

الحقيقة أنك إذا كنت تحبها حقاً، وتحبها لذاتها، بغض النظر عن صفاتها، فأنت ستتغاضى عن عيوبها ونقائصها، باعتبار أنها لها مالها، وعليها ما عليها.. (أى: لها من المزايا، وعليها من العيوب).. وهذا المفهوم للحب هو الحب «بالرغم من» العيوب.. وإلا فأنت تحب مزاياها لا شخصها.. صفاتها الحسنة لا ذاتها.

إن الحب الحقيقى الذى لا يموت هو «الحب بالرغم من»، وليس «الحب بسبب»!.. فتأمل حب الأم لابنها وابنتها، ماذا ترى؟.. «حبٌ بالرغم من» عيوب بل وأحياناً عقوق ابنها أو ابنتها.. وانظر لحب زوجة وفية لزوجها المريض، الملازم لفراش المرض والألم، ماذا تجد؟.. «حبٌ بالرغم من» المرض.. وهكذا. وإلا كان حباً منفعياً أو استهلاكياً أو ليس حباً على الاطلاق!.

٣- الحب «الأغابي»:

والكلام عن الحب «بالرغم من» معناه الكلام عن الحب «الأغابى».. وكلمة «الأغابى» هى كلمة يونانية بديعة معناها: الحب الباذل المضحى بكل شيء من أجل المحبوب.. ولندرس معاً أنواع أو معانى الحب، بصفة عامة.. وهذه دراسة قدمها «د. عادل حليم» (المتخصص فى الشئون الزواجية والأسرية).. وهاك هى:

يقول «د. عادل» أن الحب يتخذ أشكالاً عديدة فى حياتنا اليومية، فليس كل علاقة عاطفية حباً، إنما الحب درجات ومستويات، كما أنه يتطلب قدراً من النضج النفسى، حتى يمكن أن يكون حباً راقياً، خصوصاً فى العلاقة الحبية المتفردة بين الرجل والمرأة. والحب له ألوان وأنواع، كما يلى :

• حب «الإيروس»:

وهو نوع من الحب، طفولى وأنانى وشهوانى، ويبدأ هذا الحب مع الطفل فى سنوات حياته الأولى حيث يشعر بأن ذاته هى محور للكون كله!.. ويبغى بناءً

على ذلك أن يمتلك كل شيء.. ولذا فهذا الحب هو حب غير ناضج لأنه ناقص، غير مكتمل بدائي.. ولكن هذا الحب الطفولي، الطبيعي أنه يرتقي مع الوقت، ومع عملية النضوج النفسي والجنسي للإنسان، ليخرج الإنسان من هذا الطور الطفولي مروراً بالمراهقة، وصولاً إلى البلوغ فالنضوج.. غير أن بعض الناس يصلون إلى سن الرشد، ولا يزال بداخلهم هذا النوع الاستئثاري الامتلاكي من الحب، فيظل هذا البعض متمركزاً حول ذاته، حبيساً سجن أنانيته وطفوليته، ينظر إلى الآخرين كأدوات لتحقيق أغراضه وحده.. وطبعاً إذا كان زوج أو زوجة لم يتجاوز أحدهما مرحلة حب «الإيروس»، فحياته في الزواج أقرب ما تكون إلى حياة طفل يريد أن يأخذ دون أن يعطي في أنانية طفلية.. وتكون الحياة الجنسية الزواجية بالنسبة إليه مجالاً لاشباع الشهوات اشباعاً بيولوجياً مجرداً، تماماً مثل اشباع المعدة الجائعة!.

ولا يمكننا أن نطلق على هذا اللون من الحب، حب حقيقي.. لماذا؟.. لأن الحب هو خروج من «الأنا» إلى «الآخر» أما الدخول من «الأنا» إلى «الأنا»، فهذه هي «النرجسية» (أي: الاعجاب الشديد بالأنا)، والتمركز حولها.

ويرجع مصطلح «النرجسية» إلى أسطورة إغريقية قديمة عن شاب وسيم جداً يسمى «نرسيسوس»، افتتن جداً بجمال صورة وجهه على صفحة المياه، ظاناً بأنها لشخص آخر.. ومن شدة افتتانه بهذه الصورة، ضعفت صحته، وذبل جسده، وتحول في النهاية إلى «زهرة النرجس»!!.

وبالتالي فإن لفظ أو مصطلح «النرجسية» يستخدم للدلالة على الاهتمام الشديد بالذات والأنانية التي لا تراعي وجود شخص آخر سوى الذات.. والمفروض أن حب «الإيروس» يكون مؤقتاً في مسيرة الإنسان من طفولته إلى نضجه، ولكن أن يستمر معه إلى مرحلة متقدمة.. فعند فوصوله إلى سن الرشد، يظل معه هذا الحب.. فهذا يشير إلى قصور النمو النفسي والجنسي لدى هذا الإنسان.

ومما يجدر ذكره أن كلمة «إيروس» هى كلمة يونانية معناها: شهوة أو شهوانية.. وحب بهذا المفهوم هو حب قاتل للمحب، وللمحبوب معاً!.

• حب «الفيليا»:

وهو الحب الإنسانى الطبيعى أو هو حب الصداقة، وهو نوع آخر من الحب، أكثر نضجاً من «الإيروس».. وهو حب المشاعر الطبيعية الإنسانية الرقيقة بين الناس.. ويتجلى هذا الحب فى علاقات الصداقة بين الناس بصفة عامة، وأيضاً يتجلى فى العلاقات العاطفية بين الرجل والمرأة.. وهو الحب «الرومانسى» الذى كثيراً ما يحلق فى الخيال ولا يراعى كثيراً معايير العقل أو الحكمة، ولا ظروف الحياة الواقعية.. وحب «الفيليا» هو حب العطاء المتبادل بين المحبين.. ولا ننكر أن هذا اللون من الحب فيه خروج من الذات أكثر من حب «الإيروس» بل الحقيقة أن حب «الإيروس» ليس فيه خروج من الذات أصلاً.. ولكن هذا الخروج من الذات فى إطار حب «الفيليا» هو خروج جزئى لا كلى أو هو خروج ليس كاملاً من الذات!.

وهناك من الشباب من يقررون الارتباط الزيجى، فى غمرة حب «الفيليا» الذى ينتابهم.. إذ فى لحظة عاطفية فوارة، يطفر قرار الارتباط الزيجى دون مراعاة للعقل ولا للظروف.. ومن مشاكل هذا الحب أنه متقلب لأنه زائد فى العاطفة.. فالشاب الذى ارتبط فى إطار حب «الفيليا»، قد تتقلب بل قد تنقلب أساساً عاطفته وتتغير بعد الزواج، بل قد تتبخر هذه العاطفية الزائدة مع الوقت، وبحكم التعود، ومع تكشف الشخصية الحقيقية للطرف الآخر فى الزواج، مزايا وعيوبه وخصاله كلها.. وعندئذٍ يبزغ العقل الذى كان غائماً ونائماً أو مغيباً، ويخفت صوت العاطفة، وقد يندم الشاب على ما فعل وتزوج لأنه تسرع بالارتباط من زاوية العاطفة وحدها، ومن ناحية سخونتها فحسب دون تحكيم العقل والحكمة الواجبة عند الاختيار.

وينتشر حب «الفيليا» بكثرة فى «مرحلة المراهقة».. وهو حب السخونة العاطفية وعنفوانها، و «الخيال» يظلل هذا النوع من الحب.. وهو حب يخاطب الذات أكثر مما يخاطب الآخر.. كيف؟.. لأنه يسعى للاشباع العاطفى من الآخر بشكل فيه «نفعية عاطفية معنوية».. فإذا كان حب «الإيروس» يسعى نحو «النفعية الجسدية» من الآخر، فحب «الفيليا» يرتقى درجة عن ذلك، ويسعى لاشباع العاطفة، باعتبار أن العاطفة ترقى عن الغريزة الجسدية البحتة.

ولكن من مشكلات حب «الفيليا» أنه لا يحتمل الآخر فى عيوبه أو ضعفاته أو نقائصه.. مع أن الحب فى جوهره بذل واحتمال و «عمق من القلب» وتضحية من أعماق النفس، ورغبة فى اسعاد الآخر حتى ولو كان هذا الاسعاد على حساب الذات ذاتها!.

وغالباً يخفق هذا الحب «الفيليا» عن تحقيق الوحدة الحقيقية بين المحبين.. ربما هو خطوة نحو الوحدة، ولكنه ليس كل الخطوات!.. وكلمة «فيليا» هى كلمة يونانية ومعناها: «الأخوة» ، أو «المحبة الأخوية» .. باعتبار أن حب الأخ للأخ هو حب إنسانى لطيف يتسم بالعاطفية الجيدة وفى أحيان كثيرة، يتسم بالعاطفية الشديدة.. ولكن على الرغم من ذلك، فالزيادة فى العاطفة قد تنقلب لعداوة أو فتور أو أنها تتقلب وتتغير، حتى بين الأخوة.. ومحبة أو حب «الفيليا» هى متوازنة أو متعادلة بمعنى أننى أحبك كما تحبنى، واعاديك كما تعادينى.. وكأن علاقتى بك على مستوى «الفيليا» هى علاقة على مستوى «واحدة بواحدة» .. ولكن أن تعادينى وأسامحك، أو أرتفع عن هذه العداوة أو أستمر أحبك أو أن أعفو عن أخطائك فى حقى، فمثل هذا المستوى لا يصل إليه حب «الفيليا» لإفتقاده لصفة جوهرية من صفات الحب الحقيقى الباذل الذى هو «الأغابى» .. وأظن أن الأوان آن لنعرض للحب الباذل المُسمى بـ «الأغابى» .

● حب «الأغابي»:

وفى الواقع أننى أقف أمام هذا النوع من الحب، موقف اعتبار شديد، وانبهار أشد.. فهو أعلى مستويات الحب، لأنه حب نابع من الخالق، ومن حب الخالق لخليقته.. وحب «الأغابى» هو الحب الحقيقى الذى يؤمن ويصدق ويفعل كل كلمة يقولها أو يؤمن بها.. فعندما يقول الحبيب لحبيبته: «أنتِ حياتى»، ويقولها فى إطار «الأغابى»، فهو يعنى ذلك فعلاً، ويقصد أن حياته هى حبيبته، وأنه على استعداد لأن يفقد حياته من أجل حياة حبيبته، وأنه مهيأ لأن يبذل ويضحى لأجلها، ولا يستأثر بشيء لنفسه طالما هى فى حاجة أو فى رغبة لهذا الشيء!.. ليس كلاماً بل فعلاً.. أو هو كلام مترجم إلى فعل أو هو فعل مُعبَّر عنه تماماً بالكلام.. فحب «الأغابى» هو الحب الذى يخاطب «إنكار الذات» فى شخص المحب، والمحبوب معاً سواء أكانت علاقة الحب بينهما هى علاقة رجل بامرأة أو زوج بزوجته أم أى علاقة محبة قوية تجمعنى بالآخر، أياً كان هذا الآخر!.

والحب بهذا المعنى هو «خروج كامل وحقيقى عن الذات» و «دخول كامل وحقيقى ومستمر إلى ذات الآخر».. وفيه تنفض الذات تماماً عنها أنانيتها وكبريائها، وأن تخرج من دائرة ذاتيتها لتدخل فى دوائر الآخرين، بانفتاح قلب. وبانفساح نفس، وأن تحمل الآخرين فى القلب، وفى العين يبيتون!.

ومن خصائص الحب «الأغابى» أنه حب حقيقى ثابت لا يتغير بسهولة بتغير ظروف الحياة، بل هو حب يزداد قوة ومتانة عبر الأيام، وهو حب باذل ومعطاء من أجل الآخرين دون انتظار لمقابل أو ثمن لحبه.. وهو أيضاً حب ناضج وواعٍ يقوم على الاتزان الحقيقى بين العقل والعاطفة.. لذا فالصفة أو الخصيصة المذهلة للحب «الأغابى» أنه يتعهد الآخر مهما كانت الظروف والأحوال.. فهو مزيج رائع ومريح من العطاء، وتحمل المسئولية برضىً كامل.. وهو حبٌ يتجه إلى الله، وينبع من الله مروراً بشخص الآخر بكل ما للآخر من مدلول إنسانى حقيقى

وراق.. وهو حب «خارج الذات» أو هو حب «خروج من الذات» بلا انغلاقية نفسية بل بانفتاحية حقيقية تتجه نحو الآخر لأجل أن تتعهده بالرعاية والحب والحماية والعناية..

ويتجلى الحب «الأغابى» الباذل أبرز ما يتجلى فى شخصى الرجل والمرأة المحبين.. يتجلى فى الزوجين.. فى بيتهما ومع أولادهما.. فالأسرة أبلغ وأجمل ميدان للتعبير عن «الأغابى» وروعته وعمليته.

وحب «الأغابى» هو حب الوحدة القلبية والنفسية بل والكيانية بين المحبين.. والدخول فى أعماق كل منهما.. فأنا أدخل فى أعماقك.. وأنت تدخل فى أعماقى.. أياً كانت علاقة الحب هذه: صداقة.. أخوة.. زواج!.

وكلمة «أغابى» باليونانية تعنى: «البذل والتضحية بل والفداء لأجل الآخر».. وهذا الحب هو حب العطاء حتى دون الأخذ.. فهو عطاء مستمر متصل لأن طبيعته هكذا. وهو حب يتمثل بالله الحب الأعظم أو أصل الحب ذاته.. فالله يحب الناس حتى وإن كانوا يجحدون نعمته، ولكنه يشرق خيراته عليهم، ويبسط رحمته فوقهم.. فماذا ترى الشمس تفعل مع البشر إلا أنها تشرق على أبرارهم، وأشرارهم؟.. وماذا تفعل الأمطار مع الأراضى؟.. هل تختار الأمطار الأرض التى تسقط عليها، أرضاً جيدة أم غير جيدة؟.. أليس المطر يسقط على الكل، بلا تفريق؟.. هكذا كنه وقيمة ومضمون حب «الأغابى»..

ونبراس معرفة قلبك، بأى نوع حب ينبض لمن تحب، هو نبراس أو مصباح «التضحية».. «فالتضحية» هى المقياس الذى تقيس به مدى ومقدار بل ونوعية حبك: هل هو حب «الإيروس» أم «الفيليا» أم «الأغابى» ؟!.. والشخص الواحد قد يتذبذب بين أنماط الحب الثلاثة: «الإيروس»، و«الفيليا»، و «الأغابى» أو بين «الغريزة»، و «العاطفة»، و «البذل والتضحية».

فإذا تأسس الزواج على حب «الإيروس»، فهو «زواج جسدى نفعى» مبنى على اشباع الغريزة الجسدية، وعلى اشباع الذات المتضخمة الأنانية.. أما إذا تأسس الزواج على حب «الفيليا»، فهو الزواج الاجتماعى العادى، «غير المتميز».. هو زواج عادى، مبنى على المشاعر العاطفية التى قد تكون قاصرة أو متذبذبة أو متغيرة.. بلا توازن بين العقل والعاطفة.. وهو زواج فيه خروج من الذات، ولكنه ليس خروجاً كاملاً ونهائياً، إذ ما تزال الذات قائمة وتطلب ما يشبعها من عواطف ومشاعر وأحاسيس واعجاب نفسى.. وهو مبنى على العطاء والأخذ، وليس العطاء الدائم وحده، كما فى الحب «الأغابى» الحقيقى.. بينما حب «الإيروس» هو حب عطاء فحسب، ولا يعرف الأخذ.. وإن عرف العطاء، فلأجل أن يأخذ أكثر فأكثر!.

٤- الاحترام المتبادل:

من مقومات السعادة الزوجية أن يسود جو الاحترام المتبادل بين الزوجين بدون لوم ولا تقريع ولا تأنيب ولا كشف للعيوب أمام الآخرين، خصوصاً أمام الغرباء، وحتى إن كان هناك عتاب بين الزوجين أو المحبين فهو «عتاب أحباء» لا «عتاب أعداء».. وهناك فرق كبير بين أن أنقد أو اعاتب من أحب، وبين أن أنقد أو اعاتب من لا أفضل ومن لا ارتاح إليه.

ومن قال أن «شدة الألفة ترفع الكُلفة (أو الاحترام)؟».. لعلك تفهمنى.. فالألفة هى الحب والود والتآلف.. ولكن الكُلفة (أو الاحترام) ليست ضد الحب والتعاطف والوحدة.. فأنا أحبك وأأتلف بك، فلا يعنى هذا ألا احترمك وأرفع الكُلفة معك!.. بل على العكس، كلما ازدادت الألفة، ازدادت الكُلفة (أو ازداد الاحترام).. وقوة الحب بين الزوجين، تجعل من حياتهما «حياة إخلاء» (أقصد: اخلاء ذات كل منهما للآخر) لأجل أن يسكن فيها الآخر ويتربع على

عرشها!!. فما أحلى أن يكون الحب حانياً لا جانياً!.. فالحب الذى يظلله الاحترام هو حب يحنو على الآخر، بعطف حقيقى وسكن مزدوج.. فأنا سكنك يا زوجتى، وأنت سكنى.. أنا أسكن فى قلبك وحياتك.. وأنت تسكنين وتقيمين فى قلبى وحياتى.

ولا احترام دون احترام أنواع التوافق بين الزوجين؛ التوافق الجسدى، والنفسى والعاطفي.. وخصوصاً لدى المرأة تقدير مضاعف لدلائل الحب والعطف والحنان.. والمرأة مُولعة بأن تكون موضوعاً لاعجاب ومدح وتقدير زوجها، وتشجيعه أيضاً.. فمأكل ومشرب المرأة هو التشجيع من قِبل زوجها واظهار حبه الحقيقى لها.

٥- الفرح المتبادل:

ما الفرق بين السعادة وبين الفرح؟.. السعادة هى جماع الفرح.. فالسعادة هى مجموع أفراح عديدة فى الزواج.. والأفراح ألوان وأنواع وأوجه عديدة تظهر - أو هكذا - يجب أن - تظهر فى الحياة الزوجية.. وفيما يلى هذه الألوان من الأفراح:

• اللقاء الجنسي بين الزوجين:

وهو ثمرة للحب المتبادل، والاحترام المتبادل بينهما، ولمدى توافق العاطفة فيما بينهما، مع مراعاة لشعور وظروف الآخر، الشريك فى العلاقة الزيجية، من الناحية النفسية والجسدية أيضاً.. و «الفتور الجنسى» هو فى حقيقته التى لا جدال فيها هو علامة أكيدة على الفتور فى نواحى عديدة فى حياة الزوجين.. فهل يمكن أن يسود «الفتور العاطفى» أو يسود «الفتور فى التفاهم وفى الاحترام» دون أن يسود «الفتور الجنسى»؟.. لا أظن.

يقول «مجدى كامل شحاتة» فى كتابه البديع «القواعد الذهبية فى الحياة

الزوجية» : «تآلف الأجساد، يسبقه ويتبعه تآلف القلوب.. إنها علاقة تبادلية، تؤدى إلى التآلف الزيجى المستمر!».. ويتابع أيضاً دراسته فى مقومات السعادة الزوجية فى كتابه «القواعد الذهبية» كما سنرى، وكذا فى الأفراح المكوِّنة للسعادة.

• القناعة :

وتعنى ضبط الاحتياج، وفقاً للامكانيات المتاحة.. وعدم التطلع الزائد، بما يحمله هذا التطلع من ارهاق لأعصاب ونفسية كل طرف من طرفى العلاقة الزيجية. وعلماء الزواج — إن جاز لنا التعبير — أو المتخصصون فى الأمور الزوجية يقولون عبارة عجيبة تقول: «لا يؤثر وفرة الدخل المادى أو قلته كثيراً على الاستقرار الزوجى، إنما ما يعتد به أساساً هو انتظام هذا الدخل، فالعبرة بتقييم الميزانية، وكيفية تحديد أوجه الانفاق فيها، مع جعل رصيداً وقت الشدة، مع الاحتراس من الاستدانة!».. إن «حُسن التدبير فى كل شىء أفضل من وفرة كل شىء!».. فالتدبير الحسن قادر على أن يجعل من الحياة الزوجية جنة فيحاء، حتى وإن كان المصدر المادى قاصراً أو محدوداً.. وسواد الحب الحقيقى بين الطرفين هو أساس الاحساس بالقناعة.. فالحب إذا وُضِع فى مقابل المال، فما الذى يكسب منهما؟.. الحب أم المال؟.. المعنويات أم الماديات؟.. لستُ أتكلم نظرياً ولا أدعى أننى أعظ أو أخطب.. ولكننى أقرر حقيقة تقول: ليست السعادة ولا الفرح منبعها المال بل الحب حتى مع قلة الأموال.. وعندما تتأجج «النزعة المعطائية» لا «النزعة الاستيلائية» فى الزواج، يتراجع دور المال عن المقدمة.. حقاً المال مهم، لا ننكر ذلك وإلا لكنا ساذجين، ولكن ليس المال هو الأهم.. وليس الأساس.. وأنت كزوج لَمّا تكون رغبة نفسك أن تعطى من نفسك، وتبذل، وتضحى، ولا تجعل نفسك هى البؤرة وهى الجوهر فى حياتك عموماً، وفى حياتك الأسرية خصوصاً، بل تجعل الافضلية والاسبقية لذات من تحب، فعندما يكون الأمر كذلك، وعندما تلتمع فى سماء حياتك النزعة التى تعطى وتعطى دائماً حتى دون انتظار لأخذ،

وهو ما قلناه أنه يعرف باسم «الأغابى»، فالمال عندئذ لا يصبح سيداً يُطاع. ولا ملكاً تُحنى له الجباه بل مجرد خادم، يخدم الحب والاحتياجات «المعقولة» للأسرة، وتصبح التطلع الحقيقى نحو ازدياد الحب، وتفاقم الاسعاد، كل للآخر!.

• **التشويق والاشتياق (بلا ملل) :**

وقضية الملل قضية خطيرة فى الحياة الزوجية.. فما أحلى أن يكون الزواج نسمة.. هو يكون كنسمة تستنشقها الزوجة، وهى تكون كنسمة تحوط بالزوج.. وهذه النسمة هى نسمة التشويق والاشتياق بينهما.. فهى تشتاق إليه، حتى وهو معها، وهو يتشوق إليها، حتى وهى معه.. فالحب يطفئ سعير أى ملل زيجى.. والوحدة فى الزواج، والاتحاد القائم المستمر بين المحبين الزوجين، قادر بقوته الذاتية أن يجعل الاثنين واحداً (بمعنى: ١×١ وليس ١+١).. فالزواج وحدة لا إضافة.. أو هو إضافة فى وحدة أو وحدة فى إضافة.. ليست مجرد إضافة عددية متحدة ولكنها إضافة كيفية مؤسسة على الحب والتوافق والتفاهم والاحترام المشترك.

ومن العلاجات اللطيفة للملل الزيجى تبنى هوايات مشتركة بين الزوجين.. أو نزهة مشتركة.. أو الاعتناء ببعض الاجتماعيات.. أو الاهتمام بالقراءة.. وكذا بخدمة الناس.. كما ينبغى مراعاة عدم الدخول فى مناقشات غبية أو مملة أو سلبية تخص مشكلات الحياة اليومية، مما يسبب النفور والجفاف والتنابذ بين الطرفين.. ومما يطفئ سعير الملل أيضاً أن يكون هنالك رجاء مشترك يسكن قلبيهما أو أمل يحتل نفسيهما.. فالحديث عن أمل نودُّ تحقيقه قريباً، يؤدى إلى مزيد من الدفء العاطفى، وجمال الحياة الأسرية، والسعى بها نحو هذا التحقيق للأمل المنشود.. والخلاصة أن يستنشق كل طرف منهما عبير حب واهتمام ورعاية الآخر بعد «زفير يوم شاق» من المسئوليات والأعمال فى الحياة!.

الوحدة الثالثة

فن تربية الأبناء

الوحدة الثالثة

فن تربية الأبناء

أولاً: مدخل إلى التربية:

في كتاب «ربِّ ولدك» لمؤلفه «د. ج دبسون»، مذكورة هذه القصة الغريبة لما لها من دلالة تربوية.. تذكر القصة أن مدرسة من المدارس أرادت أن تقوم بهدم أسوارها!.. وعندما سُئل القائمون عليها عن السبب، أجابوا: «نحن نريد أن نعطى للتلاميذ عندنا فرصة للانطلاق بلا حدود، ولا يتقيدوا بحدود المدرسة وحدها!».. لقد تصور المسئولون عن هذه المدرسة أن وجود حدود للمدرسةمن خلال سور المدرسة، هذه الحدود تقيد نفسية وحركة التلاميذ، فلابد من الانطلاق متخطين الحدود.. فماذا كانت النتيجة؟.. نتيجة غريبة أيضاً.. فوجئ المسئولون بأن تلاميذ المدرسة، بدلاً من أن ينطلقوا، تجمعوا بجوار مبنى المدرسة، فما المعنى لذلك؟.. المعنى أن التلميذ في قرارة نفسه يحتاج إلى «غذاء السُّلطة» المتمثلة في المدرسة.. ففي أعماق كل تلميذ أو طفل يوجد احتياج عميق إلى أن تكون هناك سلطة فوقه.. وهذا الاحتياج سببه احتياج نفسى آخر، وهو رغبة التلميذ أو الطفل في أن يشعر بالحماية والأمان.. والسلطة هي مكمن ومخبأ الأمان النفسى بالنسبة له!.

فماذا إذا عرّفنا «التربية» بأنها تلك الحدود التربوية التي تضعها السلطة للنشئ؟.. هل يمكن أن نقبل هذا التعريف؟.. نقبله، ولكنه تعريف ناقص وليس كاملاً.. لماذا؟.. لأن هناك شقاً آخر في التربية ألا وهو التشجيع أو الحب الفياض أو العطف. «فالتربية» إذا عرّفناها بشكل متكامل متوازن لقلنا أنها المزيج الحكيم من السلطة والتشجيع أو من الحزم والحب.. وليست مبالغة في التعبير، إذا لخصنا

التربية بعبارة تقول: «لا افراط ولا تفريط».. ونعنى بها ألا يُفرط الآباء والأمهات والمربون فى العطف والتدليل، والافراط هو الاكثار من الشيء.. فالأبناء كالزهور التى تحتاج إلى ريها بالماء لكى تتفتح وتنمو، دون أن يزداد الماء عن حده لئلا يُغرق الزهور فيما يسقيها!.. هذا عن الافراط، فماذا عن التفريط ؟.. إن التفريط هو التقليل من الشيء.. والآباء والأمهات والمربون الذين يُفرِّطون فى العطف والحب والتشجيع، ويقللون جداً من كل هذه المشجعات والمحفزات فى تربيتهم للأبناء، إنما يَشُحُّون بالماء فى ريِّهم لزهورهم الصغيرة فلا تتفتح!.

وقانون «لا افراط ولا تفريط» لا ينصرف إلى عناصر التشجيع والحب والعطف وحده، إنما ينصرف أيضاً إلى عناصر التأديب والحزم والسلطة.. إذ من الأمور التربوية المهمة ألا يحدث افراط أو اكثار أو زيادة فى استخدام الكبار لعنصر الحزم والتأديب لئلا تنقلب النتيجة إلى الضد.. فازدياد الشيء عن حده يؤدى به إلى أن ينقلب إلى ضده - كما يقولون - وأيضاً يتوجب ألا يحدث تفريط فى الحزم، فلا يفرِّط فيه أو يقلل منه الكبار فى تربيتهم وتقويمهم للنشئ.. والتأديب والحزم ليسا مرادفين للقسوة والقهر.

الحزم - يا أعزائى - هو تعبير آخر عن الحب والعطف.. فأنا أحب ابنى، فأعطف عليه وأشجعه.. وأنا أحب ابنى، فأحزم عليه وأؤدبه.. وفى حبى له، وفى حزمى معه، ما فيه فائدته وتهذيبه وتنمية شخصيته.. فإذا ازداد التدليل عن حده، انقلب إلى «تدليل مُفسد» ، و «غمر مياه مُغرِق» !.. وإذا ازداد الحزم عن مقداره المطلوب، تبدَّل إلى «قهر مُفسد» أيضاً.. والعجيب أن النتيجة واحدة فى حالتى التدليل والقسوة.

فالطفل المدلل الذّى نشأ وتربى على إجابة كل طلباته ورفاهياته، يكبر على هذه الصورة، وهذه النشأة، فلا تقدر نفسيته المدللة على تحمل أى مسئولية، فهو متقلب المزاج، لا يستقر على حال، ولا يستطيع أن يعتمد على نفسه، إذ هو

دائماً بحاجة إلى تكئة يعتمد عليها ويستند إليها، وكأنه كرمة عنب، لا تنمو إلا بالاتكاء على بناية خشبية، ولا تستقيم من تلقاء ذاتها.. والتدليل أيضاً يعلّم الطفل ألاّ يقدّر قيمة الأشياء ولا الأشخاص.. فالقيمة هى قيمته هو (أى: قيمة الطفل أو الشخص المدلل) وليست قيمة أى شىء أو شخص آخر، فهو المركز، وباقى الناس المحيط.. وتلك أنانية شديدة متمركزة فى شخصية هذا المدلل.. وكذا الطفل المقسو عليه، فهو ينشأ ويتربى على الحزم والحرمان والقهر لشخصيته، فيكبر، وفى داخله احساس كبير بالنقص والحزن الدفين وصغر النفس.. ويفقد ثقته بنفسه من كثرة كلمات وتصرفات التقريع والسخرية والتهكم والاذلال التى يمارسها الكبار تجاه الصغار.. فماذا يا تُرى تكون الشخصية التى تكونت بهذا المزيج العجيب؟.

بالطبع هى شخصية غير سوية، تخرج للمجتمع مُحمّلة بالعقد النفسية، وتحاول هذه الشخصية أن تعوض نقائصها النفسية، وتنفس عن عقدها عن طريق السيطرة على الآخرين، ومحاولة قهرهم، حتى ولو على غير وعى أو غير شعور من هذه الشخصية غير السوية.. وقسوة العقاب وشدته تبذر بذور الخوف والجبن فى الشخصية، وتنشر السلبية فيها منذ الطفولة.. فالطفل الذى نشأ على احصاء الهفوات والأخطاء عليه، والاسراع فى معاقبته على أى هفوة أو خطأ من قِبَل الكبار، مثل هذا الطفل يخاف أن يخطو خطوة واحدة بنفسه، معتمداً على نفسه خوفاً من أن يقع فى الخطأ، فينِزلون به العقاب.. وعندما يكبر، ينتظر دوماً من يقول له افعل هذا، ولا تفعل هذا، ولا يكون على لسانه إلا كلمات الإذعان والخضوع الأعمى لرؤسائه، وكأنه عبدٌ لهم، ولسان حاله: «أنا عبد مأمور!».. ومع ذلك ففى داخله شعور غريب بالحقد على الآخرين، فما إن يتولى سلطة ما حتى ينفس عن مكبوتاته فى الآخرين، تحت سطوته.. وها هنا تتجلى ذاته أمام عينيه تطلب مأكلاً من حب المديح من الآخرين إليه، وحب الكبرياء والعظمة والبحث

عن المناصب والمراكز لعل فيها ما يعوض ما قد شعره ومازال يشعر به من نقص نفسى فى أعماقه.

إذاً فالمسألة التربوية أساسها «الجزرة والعصا» أو «سيف المعز وذهبه» - كما يُقال - فمدرب الحيوان يمسك بيده جزرة، وباليد الأخرى عصا أو كرباج، فإذا امتثل الحيوان لأمر المدرب، وأطاع تعليماته، كانت الجزرة من نصيبه أما إذا تمرد وخالف وعصى، فإن العصا لمن عصى!.. والخليفة الفاطمى، فى الأيام القديمة، كان يملك سيفاً وذهباً، بمعنى أنه كان يملك مكافأة ومجازاة.. والمكافأة لمن أطاع، والمجازاة لمن خالف.

وليس مغالاةً فى القول، أن نؤكد على أن أسلوب «العصا والجزرة» أو «سيف المعز وذهبه» هو طبيعة الحياة ذاتها.. فالحياة مجموعة قوانين، من التزم بها جانبته العقوبة، وفاتته العصا، ووضعت الحياة الجزرة أو المجازاة الحسنة فى فمه!.. أما من عصى وخالف وتجبّر وتمرد، فالعصا موجودة لالهاب ظهره، وايلام حياته.. فأنا إن اقتنيت جهازاً معيباً، ولم التزم بقانون استخدامه، والاستفادة منه، بل خالفت تعليمات تشغيله، فمن البديهى أن أخسر الجهاز أو اتلفه أو لا استفيد منه كما ينبغى، أقصى استفادة ممكنة.. فهناك نظام وقانون وأصول مرعية وإلا كان الخراب.. واستفادتى من جهازى الذى اقتنيه هو بمثابة مكافأة لى وجزرة فى فمى لأنى التزمت تعليمات التعامل معه أما إذا حدث العكس فالمجازاة سيئة، وهى كالعصا تهوى على الجهاز فتحطمه!.

وفى دراسة لطيفة فى كتاب «كيف نربى أبناءنا؟» لـ «د. سعيد إسماعيل على» ينبه المربين إلى أن الثواب (أو الجزرة) قد يصل إلى حد الافراط أو الاكثار خصوصاً إذا كان الثواب مترجم فى صورة مكافأة مادية، وهذا الافراط من شأنه أن يؤدى إلى الشر والطمع فى المادة والمكافأة، خصوصاً إذا كانت سخية، وذلك فضلاً عن شيوع أخلاقيات التدليل وعدم الجدية.. وعلى الجانب الآخر هناك

الافراط فى العقاب (أو العصا) لدرجة يصل معها هذا الافراط إلى حد الشح والبخل فى العطاء المادى والمعنوى أيضاً بما يدفع إلى الاحباط لدى الطفل، ويرسخ مفاهيم وقيم سلبية خاطئة فى نفسه كمثل القيمة السلبية المؤلمة التى تقول بأن من يعمل، مثله مثل من لا يعمل، إذ لا تقدير لمن يعمل ولا مجازاة طيبة له!. فالتوازن مطلوب جداً وبدقة ما بين الثواب والعقاب أو الجزرة والعصا أو اللاافراط واللاتفريط.

وتربية «الجزرة والعصا» هذه تربى الضمير الإنسانى عموماً، وعند الطفل خصوصاً. فالضمير يُربىّ ولا يُوهَب أساساً.. فالضمير هو «جهاز ضبط داخلى» يوجه الإنسان إلى فعل ما يجب، والابتعاد عن فعل ما لا يجب.. وإحدى وسائل تربية هذا الضمير الداخلى هو أسلوب «الجزرة والعصا» بشكلٍ عادل.. فالإثابة والتشجيع والمكافأة العادلة، أو العقاب العادل فى حالة الخطأ، هما السبيل إلى ترقية وتربية ضمير الطفل بشكل أساسى.. ولا يمكن بحال أن يكون هناك تجاهل للصواب فلا يثاب عليه الصائب، أو تجاهل للخطأ فلا يُجازى عليه الخاطئ.. ومع تطور الطفل ونموه، تتسع وتتشعب أمامه مجالات عديدة للعمل، وللقيام بأفعال كثيرة وأنشطة متعددة.. ومن الأعمال والمجالات والأنشطة ما يتطلب مكافأة، ومنها ما يتطلب مجازاة.. والنمو بالنسبة للطفل ليس نمواً لسنّه أو لعقله فقط بل لعلاقاته مع الآخرين، ومستويات سلوكه ونموه واتساع مفاهيمه وآفاق أفعاله.. وكل هذا النمو يصب فى النهاية فى خانة الضمير الذى للطفل.

والعدل مهم جداً سواء أكان فى العقوبة أم فى الإثابة أو المجازاة بالمكافأة.. فلا يصح بأى حال من الأحوال أن نقف بالمرصاد لأى خطأ يرتكبه الطفل أو الصغير، ونحصى عليه أنفاسه - كما يقولون - وما إن نعثر على هذا الخطأ البسيط أو هذه الهفوة اليتيمة حتى نمعن فى انزال العقاب الشديد عليه بأسلوب خاطئ، بينما نتغاضى عما يفعله أبناء لنا اخرون، فلا نعاقبهم على ذات الخطأ أو

نعاقبهم عقاباً أقل أو عقاباً شكلياً، وينتهى الأمر عند هذا الحد.. هنا فالحقد يطل برأسه من قبل من قد ظُلِمَ بين الأبناء!.

فالغُلُو فى انزال العقاب يورِّث آثاراً سلبية عديدة على الأبناء، خصوصاً إذا كان العقاب عبارة عن ضرب أو شتيمة أو إهانة.. هذا ليس جائزاً تربوياً، فالعقاب بشكل حازم له صورة أخرى، سيأتى الحديث فيها فيما بعد، ولكن المهم الآن أن يحرص الوالدون والمربون على سماع وجهة نظر الطفل المطلوب عقابه أولاً، بحيث يعطونه فرصة أن يشرح رأيه أو تبريره حول ما فعل من خطأ، إذ قد يكون ليس خطأ قد حدث هناك، ولكن الكبار فهموا الأمر خطأ أو قد يكون فى مبررات الطفل ما يخفف من عقوبة الخطأ المزمع أن يعاقب الطفل عليه.. والمشكلة الأكبر والأدهى أن تجاهل مثل هذه الأمور التربوية وغيرها قد تدفع بالطفل إلى الكذب والممالأة والخداع والنفاق والرياء و.. و.. أمور عديدة سلبية، ما كان أغنانا عن اكسابها للطفل إن كان لنا «طول بال» تجاه أبنائنا، وعدم ارهابهم، وعدم التسرع فى ايقاع العقوبة بهم.. إذ لابد أن نسمع أولاً وأن نفهم وأن نتريث.. وما أكثر الأضرار المترتبة على الكذب الذى يكاد يكون هو أصل الأخطاء الاجتماعية والأمراض المجتمعية، لدرجة أن بلاد الغرب يعتبرون الكذب ألعن الأخطاء كلها!.

كما أن شدة العقاب تزرع الحقد والضغينة والكراهية للآخرين، والرغبة فى الانتقام منهم أو التشفى فيهم، وتحين الفرص لتوقيع الأذى بهم، وإذا سألت: لماذا كل هذا؟.. لكان الجواب: لأجل التنفيس عن مكبوتاته، نتيجة ما وقع له فى الصغر عندما كان لا حول له ولا قوة بإزاء سلطة والديه أو معلميه أو مربيه.. ولكنه عندما يُصبح مُعلماً أو موظفاً أو فى أى موقع تكون له فيه سلطة على الآخرين، فها هنا تصبح فرصته ذهبية لكى ينفس عما مضى!.

فالتربية المتوازنة تعمل على عدم تكوين «ترسيبات نفسية» أو «مكبوتات لا شعورية» بداخل نفس الطفل، وإن ترسب شيء أو كُبت أمر، فنفس هذه التربية

الفعالة القائمة على «عدالة الحب والحزم بلا افراط ولا تفريط» قادرة على اذابة الترسيبات أو المترسبات أو المكبوتات أولاً بأول.. والتربية بهذا المعنى تعد «تربية وقائية»، تقى الشخصية التى للطفل من التدمر والاضمحلال بجو الحب والحزم!.

ما سبق كان مجرد «مدخل إلى التربية»، كيف نربى أبناءنا؟، وكيف نحسن هذه التربية.. هو مجرد «مدخل عام»، لم أدخل خلاله فى تفاصيل التربية، ومقوماتها وعناصرها العديدة، ومشكلاتها التربوية.. وهكذا فالنقاط التالية من هذه الدراسة التربوية سوف تقربنا شيئاً فشيئاً من «جسم التربية ذاته»، محاولين الامساك بأهداف التربية القويمة.

ثانياً: العنف:

١- مفهوم العنف:

طبعاً الكلام هُنا عن العنف عند الأطفال أو الأبناء بصفة عامة.. ويمكننا أن نطلق على العنف اسماً آخر، وهو «العدوان».. فما هو مفهوم العنف أو العدوان؟.. هو - ببساطة - رغبة فى ايذاء الآخرين بسبب أو بدون سبب واضح.. فالطفل فى عنفه أو فى عدوانه أشبه بالقطة التى تلجأ إلى العدوان على من يثيرها أو يهدد أبنائها!.. والطفل العدوانى أو الشخص العدوانى، عموماً، أياً كان سنه، هو شخص متمركز حول ذاته، ولديه تضخم زائد فى كرامته، ولا ننكر وجود «مكبوتات نفسية لا شعورية» فيه، وتعتمل فى نفسيته، ولا ننكر أيضاً أن وراء هذه المكبوتات، تربية خاطئة، وقيم مؤذية، وقدوة غير طيبة و.. و.. كثير من العوامل المولدة للرغبة فى العنف أو العدوان لدى الطفل.

وكثيراً ما يتعلم الطفل السلوك العدوانى من الكبار الذين هم فى منزلة القدوة أمامه.. فسلوك الآباء والإخوة والرفاق وغيرهم من الكبار أو البالغين، يكون معتبراً وكأنه نبراس أو مصباح أمام الطفل يكشف أمامه سبيلاً ما، أياً كان هذا السبيل!.

إلى خير أم إلى شر؟. ومن أسباب العنف أيضاً، عدم تحقيق الهدف أو الاخفاق عن الوصول إلى الإنجاز.. فالطفل الذى ينجح فى أمر ما، ويتثبت نجاحه أكثر من مرة، تراه أقل عدوانية بل لربما تنعدم مثل هذه العدوانية لديه، طالما أن ذاته متحققة فى أمرٍ ما.. فكثيراً ما يلجأ الأطفال إلى العنف، كتعويض لهم عن الفشل.. وكأنهم يُقنعون أنفسهم أو يحاولون ذلك، بل ويحاولون اقناع الآخرين بأنهم ناجحون، حتى وإن كان هذا النجاح ليس أكثر من لفت نظر الآخرين إليهم، ولو عن طريق العنف.. فهم ناجحون فى العنف والعدوان، وهذا يكفى طالما أن هذا هو السبيل الوحيد للنجاح بالنسبة لهؤلاء الأطفال، خصوصاً إذا كانت قيم المجتمع تحض على العنف والثأر والغاية تبرر الوسيلة، كما أن وسائل الإعلام، بما تقدمه كثيراً من مشاهد العنف، تساعد على تنمية أو تغذية العنف لدى الأطفال.. وإن كانت هناك دراسة نفسية ارتأت أن العنف الإعلامى لا يزيد إلا من عنف الجانحين من الأطفال (أى: الذين لديهم استعداد للعنف أصلاً أو الذّين نشأوا فى بيئة عنيفة)، أما الأسوياء الذين نشأوا فى بيئة تسودها المحبة، فإنهم لا يزدادون عنفاً من خلال هذه المشاهد التى تتسم بالعنف، إذ ترى هذه الدراسة أن العنف المعروض على الشاشة، لا يُزيد من العنف الواقعى، ولكنه بمثابة «منفذ تنفيس» عن العنف الواقعى، فى صورة هذا العنف الخيالى المعروض على الشاشة، وكأن عنف الخيال نفّس أو خفّف من عنف الواقع أو قلّل منه.

ولا ننسى أيضاً أن غياب الأب عن الأسرة لمدة تطول، قد يكون له أثره السلبى على الأسرة، من ناحية تمرد الأبناء على سلطة الأم، وممارستهم للعنف، وازدياد العدوان لديهم، مستغلين فرصة غياب الأب الذى يمثل السلطة القوية فى البيت.. وبالطبع لابد أن تتصف الأم، مع حنانها بالشدة المطلوبة، بخاصة، مع عدم وجود الأب.. والحق أقول أن الأم قادرة على ذلك، إن أرادت ذلك، واستنفرت عناصر القوة، وهى موجودة بالفعل، فى شخصيتها!.. وفى الميدان

الأسرى، تعمل عادة النزاعات الزوجية على استثارة العنف لدى الأطفال، فالدراسات التربوية تشير إلى أن الأطفال الذين يعيشون فى بيوت تظللها المودة، وعدم الخلاف الزيجى الشديد، وتسودها السعادة والارتياح النفسى، ينشأ فى هذه الظلال الأسرية الرائعة أبناء لطفاء نحو أنفسهم، ونحو الآخرين.

ونحن بهذه المعانى نرنو نحو اعتبار العنف أو العدوان لدى الأطفال أو النشئ أو الأبناء عموماً هو نتيجة للمجتمع والأسرة والبيئة عموماً، وأن العنف بهذا المعنى لا ينبع من الغرائز وحدها بداخل الإنسان بل هو سلوك اجتماعى يتم تنميته وتركيبه في النفس.. وهناك علماء تربية كثيرون، بل ربما معظمهم، قالوا بهذا الرأى. ولكن هناك آراء أخرى لعلماء آخرين قالوا بنظرات أخرى فيما يختص بالعنف لدى الإنسان عموماً، ولدى النشئ خصوصاً.. فهناك من العلماء من قال بأن العدوان أو العنف هو فى حقيقته «غريزة إنسانية فطرية»، هى «غريزة المقاتلة أو الدفاع عن النفس».. فالعالم النفسى «فرويد» رأى أن السلوك الإنسانى نتيجة تفاعل غريزتين، وهما: «غريزة الحياة»، وهى التى تدفع الإنسان نحو النمو والتكاثر والحفاظ على حياته وتعزيزها والابتعاد عما من شأنه أن يُودى بهذه الحياة أو يقضى عليها.. والغريزة الأخرى هى «غريزة الموت»، وهى التى تقود خطوات الإنسان نحو التدمير والعنف والقتل أو الانتحار أو التخلص من مظاهر الحياة وافسادها.. ولكل غريزة طاقتها إما نحو البناء والنمو، وإما نحو الهدم والتدمير.. والعنف هو أحد مكونات «غريزة الموت»، فالعنف يدفع نحو الموت، فى صورة ايذاء الآخرين أو ايذاء النفس.. والايذاء موت بدنى أو معنوىّ للآخر أو للنفس.. فما هو الموت سوى صورة أو صور لما هو ضد الحياة والوجود والنمو.. ومعنى الايذاء يتناقض مع معنى المحافظة على الآخرين وعلى النفس.. وهذا هو التناقض الإنسانى العجيب ما بين غريزتى «الحياة»، و «الموت» عند «فرويد»!.

ويوجد عالم نفسى آخر هو «لورنز» رأى أن الإنسان لديه غريزة أسماها

«غريزة المقاتلة»، مثله فيها مثل باقى الكائنات الحية غير العاقلة.. وطاقة هذه الغريزة يتم انتاجها بشكل تقليدى أو تلقائى لدى الإنسان بمعدل ثابت.. والعنف هو ابن شرعى وحميم للمقاتلة.. و «غريزة المقاتلة» بهذه الصورة هى غريزة دفاع عن النفس فى المقام الأول، وإلا لما كانت حروب الناس ضد أعدائهم حفاظاً عن أنفسهم أو بلادهم أو أرضهم.. «فغريزة المقاتلة» مهمة فى الحرب، وفى الدفاع، وفى حماية الحياة ذاتها.. ولكن هذه الغريزة، مثلها مثل أى غريزة أخرى، إن لم يتم «ترشيدها»، غدت مدمرة للحياة لا حافظة لها.. فالغريزة، أى غريزة، هى «سلاح ذو حدين»: حدٌ للحياة، وحدٌ للموت.

وفى التربية الرشيدة، مطلوب «ترشيد الغرائز» لدى الأطفال.. لا أقول مطلوب «الغاء الغرائز»، ففضلاً عن استحالة هذا الطلب، فيوجد ضرر لهذا الطلب.. فتصوّر معى – يا عزيزى – أن ليس هناك «غريزة الموت» أو «غريزة المقاتلة» مطلقاً، وأنت تعرضت لأذى من أحدهم.. أنت أو أحد من ذويك أو أهلك أو بلادك ذاتها.. فماذا أنت فاعل بازاء المُعتدى أو المؤذى؟.. النتيجة ضياع، ونصرة للباطل على الحق، وسواد وسيادة للمظالم والمتاعب والقهر وأساليب الطغيان والتدمير والاحتلال.

وليست نظريات العنف مقصورة فقط على «الغريزة» أم «المجتمع»، كما قرأنا لـ «فرويد» فى اعتباره العنف «غريزة» تعرف بـ «غريزة الموت» أو كما قرأنا لـ «لورنز» أنه يعد العنف «غريزة» أسماها بـ «غريزة المقاتلة».. بل هناك علماء قالوا بأن العنف يعتمد على «الأسباب الفسيولوچية» أو الجسدية أو العضوية فى جسم الإنسان أو أعضائه، باعتبار أن كثرة صدمات واصابات الرأس تؤدى إلى «خلل عضوى» فى خلايا المخ، من شأنها أن تتسبب فى العنف والعصبية الزائدة لدى الإنسان أو لدى الطفل، وأيضاً يؤدى به هذا الخلل إلى قذفه لحمم من السخط والغضب والتجريح والإهانة والكلام والتصرفات القبيحة و.. و.. إلى آخره.

وخلاصة ما سبق أن العنف له بعد غريزى، وله بعد اجتماعى، وله بعد فسيولوجى أحياناً.. ولكن الباع الأطول لظهور العنف بشكل عام، وبشكل شائع هو البعد الاجتماعى - كما سبق وشرحنا -.

وازدياد العنف أو العدوان أو القسوة يعتمد على كمية الطاقة النفسية، خصوصاً اللاشعورية المخزونة بداخل نفس الطفل أو الناشئ، وهو ما يعرف تربوياً بـ «قوة الميل».. وأيضاً يعتمد ازدياد العنف وقوته وشدته على المؤثر الخارجى الذى يؤدى إلى استثارة هذه الطاقة من العنف، وهو ما يعرف تربوياً أيضاً بـ «قوة أو جاذبية المثير».

ولا ننكر أن الميل إلى العنف يزداد ضراوة وشدة فى المجتمعات المتدنية فى تعليمها وتثقيفها، وكذا فى البيئات الفقيرة حيث تسود قيم العنف بشكل بارز أكثر بكثير من البيئات الغنية، والعالية فى مستواها الاجتماعى أو الثقافى أو العلمى.. فالعنف رفيق عادة للجهل، وللفقر، ولضحالة الثقافة أو انعدامها.. والظروف الاجتماعية السائدة عادة فى البيئات الفقيرة مادياً أو اجتماعياً أو ثقافياً أو علمياً، وكذا الظروف الأسرية تكاد تدفع النشء دفعاً إلى الكبت، والكبت يولد العنف والعدوان.. وقد يتفاقم العنف بصورة تؤدى إلى الجريمة.. وهناك رأى شهير يقول: «حيث يوجد الجهل والفقر توجد وتزداد الجريمة!».. ولكن ليس هذا معناه استحالة معالجة العنف لدى النشء الخارج إلى الحياة.. إنما للعلاج أساليبه واتجاهاته التربوية!.

٢- علاج العنف:

من أساليب علاج العنف: «تصريف العنف» لدى الأطفال، بحيث يتم تصريف التوتر والطاقة المخزونة من العنف لديهم، عن طريق النشاط الجسمى بالرياضة مثلاً، وممارسة التمارين الرياضية، والجرى والحركة الدائبة.. وكذلك

نشاطات اللعب، إذ أن علم النفس يقول لنا أن اللعب للأطفال فرصة عظيمة وبارعة لاشباع الرغبات التى قد لا تجد اشباعاً لها فى الواقع لدى الطفل.. كما أن اللعب يقدم ميداناً رحيباً للتخلص من النزعات العدوانية التى تكون قد تشكلت فى نفسية الطفل.. فالطفل الذى يغتاظ من أخيه، قد لا يستطيع أن يضربه، ربما لأنه أكبر منه سناً أو أقوى منه جسماً، ولكنه يستطيع أن يضرب دمية من قطن مثلاً، ليفرغ فيها شحنة الغضب بداخله تجاه أخيه!.

وأيضاً الرياضة التنافسية بينه وبين أقرانه، الذين هم فى مثل سنه.. فمثل هذا التنافس صحى ومفيد لأجل تصريف أو تنفيس الطاقة العدوانية أو الطاقة الزائدة لدى الناشئ أو الطفل.

كما أنه من الملاحظ أن صغار الأطفال يغدون أكثر هدوءً عندما يكون أحد الراشدين موجوداً معهم، وكأن هذا الراشد أو هذا الشخص الأكبر منهم سناً ممثلاً للضمير بالنسبة لهم، فيخشونه، وكأنهم يخشون الضمير الذى يمثله.. فلقد تحدثت من قبل عن وجود فتنمية الضمير أو «جهاز الضبط الداخلى» لدى الطفل.. ووجود شخص كبير بين صغار الأطفال وهم يلعبون مثلاً، يمثل تذكيرهم بهذا الضبط وأيضاً ينميه.. وأحياناً تكون التصرفات العدوانية من قبل بعض الأطفال، ليست من الخطورة بمكان لدرجة أن يستتبعها عقاب من الآخرين (أقصد: من الكبار) للصغار.. بل يمكن تجاهل مثل هذه التصرفات.. وهذا التجاهل بعينه، يفهم الطفل، حتى بلا كلمات، أن تصرفه العنيف هذا لم يجذب انتباه أحد، وأن محاولته لاثبات ذاته عن طريق العنف باءت بالفشل.. وبالتالى يتوقف عن استخدامه لهذه التصرفات العنيفة.

وينبغى تعليم الطفل النتائج المترتبة على سلوكه العنيف من ناحية خسرانه لزملائه، وتضايق والديه منه، وكذلك معلميه، والمشاكسات التى تقابله من كثيرين بسبب مشاكسته هو أولاً لهم، وأسلوبه العنيف وطريقته العدوانية معهم.

ومن الدراسات التربوية التى عالجت موضوع العنف تلك الدراسات التى أوضحت أن العدوانية الزائدة عند الأطفال تكون عبارة عن رد فعل لتساهل الوالدين، بدون التعامل بحزم مع مثل هذه العدوانية أو هذا العنف الزائد.. ومعنى الحزم أن يبيِّن الوالدان أن بعض التصرفات العدوانية مرفوضة، وغير مقبولة، ولن يتم التسامح بشأنها، ولكن دون أن يغفل الوالدان تبيان سبب رفضهما لهذه التصرفات الخاطئة.. فالحزم ليس فى اتخاذ الموقف الرافض أو الاتجاه الحازم فقط تجاه الخطأ بل أيضاً فى ايضاح هذا الخطأ للخاطئ، واقناعه به حتى لا يعود إلى فعله أو اقترافه مرة أخرى.. فأن يقتنع الطفل بخطئه لربما أهم من ايقاع العقاب عليه، مع اعترافنا بضرورة الحزم أو العقاب فى المواقف الخاطئة التى يتخذها الطفل، طالما أن الخطأ فيها بيِّن وواضح!. والاتجاه المتسامح نحو الأخطاء من قبل الوالدين، من شأنه ألا يؤدى إلا إلى مزيد من هذه الأخطاء وغيرها.

ومن أساليب علاج العنف لدى الطفل، أن نبحث عن «الحاجات غير المشبعة» لديه.. وهذا الأسلوب فعال جداً فى علاج العنف، لأنه يعالجه بصورة ايجابية أكثر مما هى سلبية.. فالصورة الايجابية تعنى أن نُشبع حاجات الطفل التى يحتاجها بالفعل، وبالتالى يتوقف عن مزاولته لعدوانه تجاه الآخرين بل وتجاه الوالدين بصورة تلقائية.. والاسئلة عديدة.. فهناك سؤال يقول: هل تسدد كأب احتياجات طفلك من كلمات المديح والتشجيع، وعاطفة العطف الأبوى والحب الفياض أم لا؟.. وسؤال آخر: هل تتعامل الأم مع أبنائها فى الرعاية والحنان بشكل متوازن متعادل أم أنها تفضل ابناً على آخر، أو ابنة على أخرى؟.. وسؤال ثالث: هل تحترم ابنك، وتحترم شخصيته أمام الآخرين أم تهينه وتسخر منه وتتهكم عليه أمامهم إذا ما أخطأ؟.

هذه الأسئلة وغيرها تكشف عن مدى اشباعك للحاجات «المعنوية» لابنك أو ابنتك.. فالطفل يهتم جداً بمثل هذه المشاعر والمعاملات المملوءة احتراماً وعطفاً

وحباً.. فالحضن الأبوى أو الأموى قادر بدفء مشاعره أن يذيب ثلوج العدوان الموجودة فى نفسية الصغير!.. فلماذا يكون عنيفاً، وهو يحيا فى جو من الحنان وعدم «التعقيد النفسى»، وعدم القهر، بل اتاحة مساحة طيبة لائقة من الحرية؟!.

يقول الدارس والكاتب «منير عامر» فى كتابه «طفلك أذكى مما تتصور» إن الطفل ليس قطعة من الطين فى يد نحات، ولكنه كائن حى، يحيا آلاف التجارب ويمر بكثير من الظروف المختلفة.. ولذا فإن عملية «اكراه الطفل» على انتهاج طريق معين، فهذا الاكراه قد يؤدى إلى افشال الطفل.. لماذا؟.. لأنه أُكره عليه، ولم يختاره بارادته وحريته واختياره الخاص وفقاً لرغباته وامكانياته الطبيعية.

إن كل ما نقدر أن نحيط به أبناءنا هو أن نوفر لهم الأمن والطمأنينة والإطمئنان، مع ترك الحرية لهم للاختيار.. مع تحديد «إطارات معينة» ومعقولة لسلوكهم وتصرفاتهم، وهم يسعَوْن نحو أهدافهم التى اختاروها بأنفسهم لأنفسهم.. ولن ينجح أب فى أن يجعل ابنه مثلما يريد هو!.. فالوالدون الذين يتمتعون بطاقة من الحب والتفانى يعملون على اتاحة مساحات من الحرية لأبنائهم للاختيار، وعدم الضغط الزائد عليهم بلا اكراه.. بل عن طريق الاقتناع والتفاهم.

أقول هذا لأن الطفل عندما يكُبت، ويجبر، ويُكره على أن يعمل أموراً معينة أو يمارس ممارسات معينة أو هوايات معينة، ليست متفقة معه ولا مع ميوله ولا مع مزاجه الشخصى، فإنه سرعان ما يعنف ويمارس العدوان نحو من أكرهوه عليها.. فالطفولة توافقها الحرية.. ولا أعنى «الحرية السائبة» بالطبع إنما «الحرية المنضبطة» التى «لها ضفاف» كما ضفتى مياه النيل، يحميانه من الضياع!.

فكثير من الآباء يحاولون أن يجعلوا أبنائهم يتفوقون فى نفس مجالاتهم كالزراعة، أو ميدان الموسيقى، أو الألعاب الرياضية، فلا يقابل الابن أباه إلا بالرفض التام لهذا المجال.. والسبب طبعاً هو المحاولة الحمقاء لفرض هذا المجال

«بالقوّة» على الابن!.. وهذا الفرض «بالقوة» يثبّت فى نفس الطفل أو الصغير مشاعر العدوان تجاه أبيه، وتجاه المجال الذى يريده أن يندرج فيه أو يحبه رغماً عنه مثل أبيه.. فنحن - يا عزيزى - لسنا صوراً «كربونية» من بعضنا البعض.. فكيف تريد أن تجعل ابنك «نسخة كربونية» منك؟.. إن لكل شخصية بصمتها وكيانها المتميز المستقل.. فالشخصية - كما هو معلوم - هى «بصمة لا تتكرر».. و«أصل لا نسخ له».. و «حالة فريدة، ليس قبلها ولا بعدها فى الزمن»!.

وتربية الحب والحنان تطبع على الطفل طابع الحب والحنان على الآخرين أيضاً.. وبالتالى تقل جداً وتكاد تنعدم رغبته فى العنف والعدوان على الآخرين.. والحقيقة أن هذا هو دور الأسرة الأُساسى فى حياة الطفل، فالأسرة التى يسودها الحب، ويظللها الأمان، ويرتع فيها الحنان، تكون مأوى وملجأ ومربى صالح للطفل.. وهذا الجو الأسرى المُشبّع بالعطف والدفء ينطبع على نفسية الطفل، ويجعل منها نفسية حنون على الآخرين.. ففاقد الشىء لا يعطيه.. وفاقد الحب لا يعطى حباً لأحد.

وتُظهر الدراسات الحديثة أن الأطفال ابتداءً من عمر سنة واحدة، يظهرون تعاطفاً حبياً وطبيعياً مع مشاعر الآخرين، فهم يحاولون، على قدر طاقتهم الطفلية وعلى قدر تفكيرهم الساذج أن يُريحوا الأشخاص المتألمين أو الأشخاص الذين يكون أو يحزنون.. وللوالدين دورهم فى تنمية روح الاهتمام بالآخرين لدى أطفالهم.. فكلمات التشجيع والمديح أو التفريظ لها فعل السحر فى نفوس الأطفال، إذا ما وُجهت هذه الكلمات والمشاعر الطيبة التى يبثها الكبار فى نفوس الصغار، فى اتجاه قيام الطفل بخدمة الآخرين، والاهتمام بهم، والتعاطف معهم.. فما أبدع أن يمدح الأب مثلاً ابنه على كل مرة يُظهِر فيها اهتماماً بالآخرين أو اشفاقاً على من يعانون معاناة شديدة.. فالآباء والأمهات بهذه الصورة يعملون على تنمية التعاطف مع الآخرين فى نفوس وشخصيات أبنائهم.

والطفل الذى يشعر وجدانياً بالمتألم والمريض والحزين، هو بالتأكيد طفل رقيق المشاعر، وينمو هكذا على رقة المشاعر ورهافة الأحاسيس «وفنية» الشخصية الإنسانية.. وهكذا «يتبخر منه» العنف بعد أن كان «يتبختر فيه» وعلى يديه!.. فكيف يكون عنيفاً مع آخرين، هو يكن لهم تعاطفاً وحباً؟.. وماذا يكون المردود لطفل يحب ويعتنى ويشعر ويتعاطف سوى مزيد من الحب والاعتناء والشعور والتعاطف مع هذا الطفل الرائع المبتسم دوماً!!.

إن الله خلق الإنسان، وفى داخله طاقة خير كبيرة.. والطفل مولود ومزود بهذه الطاقة، فماذا إذا نجحنا ككبار فى استخراجها منه، واستثمارها فيه؟.. فالعنف والشر والعدوان دخلاء على الطبيعة البشرية، وكذا دخلاء على الطفل.. فعندما يبزغ النور تختفى الظلمة.. وكذا حينما يلمع نور الخير واللطف يتبخر ظلام العنف!.

وفى كتاب تربوى مهم اسمه «ابنى عنيد... من مشكلات التربية» عَرْضٌ لدراسة حالة لطفل عمره (٦) سنوات، اسمه «عادل».. كان هذا الطفل هو أكثر الأطفال مشاكسة وشقاوة فى الحارة التى يسكن فى أحد بيوتها هو وأمه وأبوه.. وبلغ من شدة طغيانه وعنفه وشراسته أنه كان يفرض على أقرانه الذين يلعب معهم، نوع الألعاب التى ينبغى أن يلعبوها وكيف يلعبوها، وهو معهم بالطبع.. وكان يُعاقب من يخالفه بطرحه أرضاً أو تسديد عدداً من اللكمات إليه، لدرجة أن الأطفال الصغار صاروا يخافونه بشدة، عندما يهمُّ بالخروج للعب!.

وفى أحد الأيام اقترحت احدى الجارات، وهى أم لطفل فى الخامسة من عمره، أن يرافق «عادل» أسرتها فى رحلة إلى الشاطئ.. ووافقت «أم عادل» على الرحلة، ولكنها حذَّرت من ابنها لئلا يفسد عليهم الرحلة بمشاكساته المريرة هذه.

وفى أثناء الرحلة، اكتشف «عادل» وجود موهبة لديه، لم يكن يعرفها من

ذى قبل، وهى موهبة العوم.. ومعرفته لهذه الموهبة شجعته على أن يكون لطيفاً مع الجميع طوال الرحلة.. وبعد العودة من الرحلة، أشارت الجارة إلى جارتها «أم عادل» أن «عادل» شخص فيه جوانب لطيفة جيدة، ومواهب جذابة.. ولما تنبّهت «أم عادل» لذلك، أخذت فى اضفاء مزيد من الحب تجاه ابنها «عادل» أكثر من ذى قبل.

وهنا حدثت المعجزة، إذ بسبب حب أمه له تحسنت مشاعر «عادل» نحو نفسه، وشعر بالأمان، وازداد ثقةً فى نفسه، وشعر بأنه ليس فى حاجة إلى اثبات ذاته عن طريق سيطرته على الأطفال وايقاع الأذى بهم والتعامل العنيف معهم. وهكذا أدى العطف والاهتمام الصادق من قبل الجارة أو الأسرة المجاورة أولاً ثم عن طريق الأم ثانياً إلى التحسن الكبير الذى طرأ على سلوك وأخلاق «عادل»، واكتشف الجميع أن «عادل» كان طفلاً مُهْمَلاً من أمه، بل ومن أسرته عموماً، أكثر منه طفلاً مشاكساً!.

وهنا يتجلى الحب والرعاية كمقومين من أبلغ المقومات للتغلب على العنف، ولازاحة العدوان من نفس، ومن أفعال الطفل أو الصغير أو الناشئ.. والتربية المنزلية (أقصد: تربية الأب والأم تحديداً) هى «واسطة العِقد» فى علاج العنف!.

ثالثاً: التشجيع:

توجد مقولة شهيرة تربوية تقول: «بعد كل كلمة نقد، تتلقاها النفس، تحتاج النفس إلى (٩) كلمات تشجيع، لتطرد هذه الكلمات المشجعة الأثر السلبى لهذه الكلمة من العقل الباطن».. وليست كلمة النقد المقصودة هنا هى كلمة النقد اللطيفة التى تنقد التصرف الخاطئ ولا تنقد شخص الخاطئ نفسه، ولا المقصودة هنا هى كلمة النقد التى تراعى مشاعر الشخص وتطلب فائدته ومصلحته بأسلوب

رقيق راقٍ هادئ مهذب، ودون ضغط ولا الحاح، وإنما تقصد المقولة التربوية الشهيرة إلى التحذير من كلمة النقد الجارحة المسيئة الهادمة التى تجرح الشخص، وتهينه، وتطيح به فى صوت مرتفع، وعصبية واضحة، وغضب شديد.. فكلمات الإهانة، والتهكم والسخرية والنقد اللاذع والتحقير.. كلها كلمات نقد مرفوضة تماماً على المستوى النفسى والتربوى.. وكلمات النقد المذمومة تسحق النفسى، وتقهرها وتورثها أشد أنواع الألم النفسى، وفى أحيان عديدة أشد أنواع المرض الجسدى أو العصبى، وإذا سألتنى: كيف يؤثر التعب النفسى على المرض الجسدى؟.. أقول لك: إن الارتباط لوثيق بين نفس الإنسان وجسده.. فالنفس السعيدة تجعل الإنسان فى صحة جيدة ونشاط دائم ودائب.. ولربما مرض بسيط فى الجسد يسدل ستار الضيق والتوتر على النفس.. وكثير من أمراض الجسد سببها التوتر أو الحزن أو الصدمات النفسية.. فقرحة المعدة مثلاً، من أكثر الأمراض الجسدية التى لها سبب نفسى!.

والمشكلة بل والمعضلة أن كلمات اللَّوم والذَّم الخاطئة فى أسلوبها، والحادة فى نبراتها، تتسجل على شريط التسجيل الحساس بداخل العقل.. فالعقل به «جهاز تسجيل» خرافى، وهذا الجهاز يكون فى منتهى الحيوية والدقة عند الأطفال، فيلتقط كل شىء، وينحفر فيه كل شىء.. كل شىء.. فما يراه الطفل وما يسمعه وما يعمله وما يلمسه ينطبع أو يتصور كما «بكاميرا فوتوغرافية» فى ذهنه ونفسيته.. ولعل هذا هو السبب الذى جعل قائل المقولة التربوية يقول أن أمر تسجيل كلمة نقد واحدة، يحتاج إلى (٩) كلمات تشجيع لأجل طرد أو محو السلبيات المترتبة على هذه الكلمة، وإزالة آثار عدوان كلمة النقد المُهينة الجارحة هذه!.

أقول أن ما يراه وما يسمعه وما يعمله يتسجل فى «جهاز التسجيل» فى العقل.. ثم بعد حين، يخرج ما قد تسجل، ويدور «شريط التسجيل» فى الذهن،

ويخرج ما فيه.. ولا يدور مرة واحدة بل مرات ومرات بلا عدد، طوال حياة الإنسان، طالما لم يتم محو هذا الشريط أو لم يتم تسجيل أشياء وأمور أخرى عليه بدلاً من الأمور والأشياء التى تسجلت عليه سابقاً.. فالماضى بسلبياته مسجل هناك على الشريط.. والآلام والأحزان التى مرت بالإنسان مسجلة هناك أيضاً.. والخبرة السيئة مسجلة أيضاً.. إنه «شريط» متخم بما فيه من سلبيات ومتاعب وخبرات محزنة أو مؤلمة أو سيئة، وأيضاً موجود فيه إيجابيات.. ولكن التربية السيئة والمؤثرات الخاطئة تزرع وتسجل فيه سلبيات أكثر من إيجابيات.

والأمر التربوى يحتاج إلى محو السلبيات أو حتى بعضها، واحلال الإيجابيات محلها!.. والمسألة خطيرة لأنها تتعلق بالعقل الباطن للإنسان، «فجهاز التسجيل» هذا مغروس فى هذا العقل الباطن.. صحيح هو بدأ فى العقل الواعى من خلال ما رآه وسمعه وعمله الطفل، خصوصاً فى سن صغيرة، ولكن مع الاستمرار انغرس وتثبت فى العقل الباطن أو فى «أرشيف العقل الباطن»، وبدأ التسجيل يدور!.

و «الكلمات»، من أكثر ما ينغرس فى جهاز التسجيل» فى العقل الباطن.. فما رأيك فى عبارات كهذه يقولها أب لابنه: «ألا تستطيع أن تحل مسألة رياضيات بسيطة كهذه؟» أو «متى سوف يدخل أى شىء فى عقلك (التخين) هذا؟» أو «أنت غبى وستظل غبياً» أو الكلمات المشهورة: «يا فاشل.. يا مهزوم.. يا كسول.. يا.. يا» ..؟.. ولا يظن المربون أنهم بمجرد أن قالوا هذه العبارات، وهذه الكلمات السلبية أن الأمر انتهى عند هذا الحد، لا - يا عزيزى المربى الفاضل - فما قلته لابنك أو لتلميذك سيتثبت فى عقله الواعى والباطن، وبعد فترة تقصر أو تطول يبدأ «التسجيل» فى الدوران، وتخرج العبارات والكلمات السلبية وتتردد فى جنبات نفسه وأصداء ذهنه فيقتنع بالفعل أنه فاشل ومهزوم وكسول وعقله (تخين) وأنه لا حول له ولا قوة، بل ويشعر بأنه يستحق الفشل، وتنسحق ذاته، ويسوده الاحساس بالدونية والشعور بالنقص، وينكسر مفهوم الذات

عنده، ويضيع منه الدافع لإنجاز أى شيء، وتضعف ثقته فى قدرته وإمكانياته، حتى وإن كانت قدراته وإمكانياته جيدة فى ذاتها، والخلاصة أنّه يرى ذاته أنها «لا تستطيع، وكفى!».. والأمر المدهش أن الطفل أو الناشئ الذى يتعرض للكلمات السلبية يصدقها، ويتصرف أو يعمل بناءً على هذه الكلمات أو الصور الذهنية السلبية فى عقله.. فالكلمات فى علم النفس هى التى تصيغ التصرفات.. فأنت ما تفكر به.. وأنت ما تتكلم به.. وأنت ما تسمعه!..

تحكى الكاتبة الروائية «موريل أندرسون» أنها كانت محظوظة للغاية لأنها ابنة لأب عظيم، وسر عظمته يكمن فى تلك العبارة التى كان يقولها دائماً لابنته «موريل» منذ صغرها.. كان يقول لها: «تأكدى أنك قادرة!».. فلما وصلت الابنة إلى المرحلة الثانوية، انتقلت مع عائلتها من المدينة التى كانت تقيم فيها إلى بلدة صغيرة جميلة.. فأحبت «موريل» المكان جداً، وكان لديها موهبة جميلة فى الكتابة والتعبير اللغوى، وأرادت أن تكتب مقالاً تصف فيه جمال هذه البلدة، وبالفعل كتبت المقال، ورغبت فى أن تنشره فى جريدة البلدة الأسبوعية الشهيرة، ولكنها ترددت فى ذلك، لأن كتاب هذه الجريدة، ومن ينشرون فيها أعمالهم، هم من ذوى الشهرة أو النفوذ والحظوة، فحزنت وذهبت إلى أبيها تبثه قلقها، فصاح فيها صيحته الشهيرة: «تأكدى أنك قادرة».. فتشجعت، وبالفعل نشرت المقال.. وكانت هذه الخطوة هى بداية نجاحها فى دنيا الكتابة والتأليف، ومع الأيام سطع نجمها ككاتبة روائية شهيرة!.

وفى حكاية أخرى، يحكى مدير مدرسة من المدارس أنه أراد أن يثبُّ الحماس فى فريق من المدرسين لديه لكى يرتفع مستوى أدائهم الوظيفى، فقال لهم إنهم أفضل مدرسين لديه، ولذا فهو سيضعهم فى أفضل الفصول التى بها أفضل التلاميذ!.. ونظراً لأن المدرسين توقعوا وصول هؤلاء التلاميذ إلى التفوق، لأن التلاميذ أنفسهم قال عنهم المدير أنهم الأفضل بين تلاميذ المدرسة، فبالفعل

وصلوا إلى التفوق، وكان ترتيب هذا الفصل الدراسى هو الأول على كل المنطقة التعليمية.

وبعد ظهور النتيجة، أراد المدير أن يشكرهم، فاجتمع بالمدرسين الذين حققوا التفوق للفصل الدراسى هذا، وقال لهم بل فاجأهم بقوله: «أنا قلت لكم أن هؤلاء التلاميذ هم الأفضل، ولكن حقيقة الأمر أنهم كانوا تلاميذ عاديين تماماً، ولم يفرقوا عن التلاميذ الآخرين فى المدرسة فى شىء، بل ولم يتم اختيارهم لكى تدرسوا لهم إلا بالقرعة!».. فتعجب المدرسون وقالوا له: «إذاً فسبب تفوقهم يرجع إلى ما بذلناه من مجهود كبير معهم باعتبارنا كما تقول لنا يا سيادة المدير أننا أفضل مدرسين لديك»، فرد عليهم المدير بقوله: «أنتم لستم الأفضل، ولم أتعمّد اختياركم بالتحديد، إنما جاء اختياركم بالقرعة أيضاً».. فقالوا له: «فماذا إذاً هو السر وراء تفوق التلاميذ، إن كانوا ليسوا هم الأفضل، ولا نحن هم الأفضل؟».. فابتسم المدير، ونظر فى وجوه مدرسيه وطفق يخبرهم عن السر العجيب.. قال: «كل ما هنالك أننى توقعت أنهم الأفضل، وأنكم الأفضل، وهو توقع حسن كما ترون.. فأنا أردت أن أقول لكم كلمات إيجابية مشجعة محفزة لكم.. وهذه الكلمات ارتسمت أو رسمت صوراً ذهنية موثوق بها فى مخيلتكم، وهى صور النجاح والتفوق واحراز النصرة والوثوق فى النفس.. ولأن الصور الذهنية من طبيعتها أن تترجم إلى أفعال وتصرفات، فهذا ما حدث لكم، فالصور الايجابية فى أذهانكم ترجمت إلى أفعال إنجاز ونجاح!».

فالمطلوب من الآباء والأمهات والمربين هو أن يغيروا رؤيتهم للأبناء.. فلا ترى فى ابنك أو ابنتك عبءً أو هماً ثقيلاً أو عائقاً رهيباً، ولا تنظر إليه نظرة دونية، وكأنه لا يفهم ولا يعى ولا يقدر على شىء.. بل تعمق فى ذات ابنك، وسوف تتكشف لك مواهبه وامكانياته المهولة والتى تحتاج إلى أن تشجعه لكى يخرجها من مكامنها إلى حيز الوجود الفعلى.. فالمواهب والامكانيات لدى ابنك

موجودة وقائمة ورائعة، ولكن ينقصها شيء واحد.. أن تخرج، وأن تُنَمَّى بعد ما تخرج.. ولن تخرج بدون يدك المشجعة الحانية كأب أو كأم أو كمربى فاضل.. فالكلمة الحلوة، واللفتة المشجعة، والابتسامة المطمئنة.. كل هذه وغيرها قادرة على أن تغوص فى أعماق بحار مواهبه وامكانياته وقدراته، وتستخرج من هناك لآلئ وكنوز لا تُقدَّر!.

و«فكر الكبار» لابد أن يُصاغ على احترام وتقدير «ذوات» الصغار.. حتى يُفسح الكبار الميدان لنمو، وقبل ذلك، لظهور «ذوات» الصغار، وتقديرها حق قدرها.. «فالذوات الصغيرة» فى حاجة إلى إثبات.. ولا إثبات لذات دون استنفار واستخراج ما فى هذه الذات من مواهب وقدرات.. ولا وصول إلى مواهب وقدرات ابنك إلا بتغيير نظرتك واتجاهك الذهنى نحوه من سلبى إلى إيجابى.. والاتجاه السلبى يرى فى شخص الطفل أو الابن عيوباً ونقائص وقصور فى الذات.. أما الإيجابى فهو يرى مزاياه وتميزه الحالى، وأيضاً لا يكتفى بالحالى أو بالحاضر، بل يتجه نحو المستقبل، بحيث يستشرف هذا المستقبل لهذا الابن.. ويرى الأب ابنه فى صورته المستقبلية الآتية.. وينظر إليه كما لو حقق وأنجز ما يتوقع له أن يحققه وينجزه مستقبلاً.. وكأن لسان حال الأب تجاه ابنه: «يا بنى، أنا أرى الآن ما أنت عليه غداً!».. ولا يكتفِ الأب أو المربى بذلك، بل يأخذ فى نقل هذه النظرة المستقبلية أو هذا الاتجاه المستقبلى إلى الابن، ويثبته لديه، من خلال كلماته المعبرة عن ثقته فى ابنه، واعترافه بامكانياته، وتوقعه لنجاحه الدائم، مثلما كان يقول أبو «موربيل» الكاتبة المشهورة، إليها: «تأكدى أنك قادرة»!.

فلماذا كثيرون لا يعملون بهذه الطريقة التربوية الناجحة؟.. هل لأنهم لا يبغون اسعاد أبنائهم؟.. كيف ذلك، والأب سعادته من سعادة ابنه؟.. أم أن هذه الحقيقة التى تقول أن الأب أو الأم أو المربى الصالح هدفه من تربيته لابنه أو تلميذه، أن يكون سعيداً من خلال اثبات وتحقيق ذات الابن أو التلميذ، دون

كسر هذه الذات.. هذه الحقيقة المنطوية على «اسعاد الأبناء» كثيراً ما ينساها أو يتناساها الآباء والأمهات والمربين، بالرغم من حبهم للأبناء، ولكن لربما يخطئون كثيراً فى الوصول إلى هذا الاسعاد.. فالهدف عندهم جميل ورائع، أن يسعدوا أبنائهم، ولكن الطريقة أو الوسيلة كثيراً ما تخطئ الهدف نحو المرمى - كما يُقال -!.. فالكيفية التى يحققون بها هدفهم ليست دائماً صحيحة.

والمحلل النفسى «مولد ورف» يعلّق على هذه الحقيقة ألا وهى «اسعاد الأبناء» بقوله: «أن يسعد الإنسان لأجل إسعاد إنسان آخر، فهذا يبدو أنه أمر طبيعى جداً، إلا أن هذا الأمر الطبيعى جداً يحتاج فيما يبدو إلى تعلم طويل وشاق لبلوغه، وللوصول إلى هذه الحقيقة شديدة البساطة.. أمّا أن يكون الإنسان أباً، فإن عليه أكثر من أى شخص آخر أن يلتزم بحقيقة «الاسعاد» هذه، حتى آخر المطاف».

فاسعد ابنك.. واسعَد لسعادة ابنك.. لأنَّ من يسعد لسعادة الآخر، هو بالأولى يعمل على اسعاد الآخر.. فماذا إن كان هذا الآخر هو فلذة كبدك التى تمشى على الأرض.. وقطعة منك.. ودم من دمك..؟.

رابعاً: الجمال:

العلاقة بين التربية والجمال علاقة وثيقة وجميلة معاً.. ومن الجميل أن يكون للطفل علاقة «مباشرة» مع الطبيعة بجبالها وشمسها ومياهها وسمائها، وأيضاً بالكائنات الحية من نباتات وحيوانات.. فهذا الجمال الطبيعى العجيب له تأثيره العجيب أيضاً على الطفل.. فهو يجعله يأتلف بالطبيعة، ويشعر بأنه جزء منها، أو أنه امتداد لهذه الطبيعة الساحرة.. فتصفو نفسه، تتجدّد قواه، ويتبخر عنفه، ويهدأ عقله، وتقترب نفسه أيضاً، حتى دون أن يعى أو يشعر، من الله، لأن الطبيعة

الجميلة، من أسبغ عليها هذا الجمال هو الله خالق كل جمال.. وهذا الجمال الطبيعى أدعى لتسبيح الله خالقه.. والجمال من آيات الله، وجب التأمل فيها واطالة النظر فى هذا الابداع.

وانطلاقة الطفل عبر معالم الطبيعة، فى حديقة أو على شاطئ بحر أو.. أو هى انطلاقة لنفسه لا لجسده فحسب.. فها هنا نفسه وذهنه يعبان عباً من صور الجمال الطبيعى، حتى بدون انتباه واعٍ منه.. فالعقل الباطن يُخزِّن، و «جهاز التسجيل» الحساس يعمل ويلتقط ويسجل كل ما يراه.. وأكبر مهدئ لأى إنسان هو المنظر الطبيعى!.. وعندما نربى الطفل على الجمال الطبيعى، فنحن نربيه على الهدوء والطمأنينة فى قلبه، ونربى فيه «الذوق أو التذوق الجمالى».. وحينما يتذوق إنسان ما الجمال المادى الطبيعى، تهفو نفسه أو تلتقط نفسه الجمال المعنوى المتمثل فى كل ما هو جميل من قيم وسلوكيات وأخلاقيات ومعانى عظيمة.. فالجمال هو الجمال.. ومنبت الجمال واحد.. والجهاز النفسى للإنسان مجبول على تذوق الجمال.. والجمال يتسامى بالنفس ويورثها نبذ العنف والعدوان والرذائل لأن كل هذه الأمور قبيحة.. ومن ترنوا نفسه نحو الجمال، تنكر نفسه القُبح!.

وليس الفن غريباً عن الإنسان، بل موجود معه منذ وُجِد الإنسان.. والفن جمال.. والجمال فن.. والطبيعة بجمالها فن ساحر أبدعته يد الفنان الخالق الأعظم. والفن أو الجمال وثيق الصلة بالحضارة على وجه العموم - على حد قول د. سعيد إسماعيل على - بدليل أن شتى خبرات المجتمع العملية والاجتماعية والتربوية قد اصطبغت فى كل زمان ومكان بصبغة جمالية واضحة، كما فى آثار مصر القديمة، وحضارة الإغريق وحضارة الرومان، فالجمال لم يكن شيئاً منعزلاً عن المصالح العملية لهذه الحضارات وغيرها، بل كان النشاط الجمالى جزءً لا يتجزأ منها، ومنبثاً فى صميم اهتمامات الحياة الاجتماعية

العادية.. والجمال والفن وثيقا الصلة بالطقوس الدينية (عن طريق الموسيقى والتراتيل وغيرها)، وكذلك الاحتفالات الشعبية، والألعاب الرياضية، والساحات الشعبية، بل وشتى أشكال الحياة الجماعية والاجتماعية العامة.. ونلاحظ تماماً أن تاريخ الحضارات البشرية شاهد على أنه لم يوجد مجتمع ما أياً كان خلى من الفنى فى أى مظهر من مظاهره.. لذلك فعملية التربية للطفل لا تكتمل إلا «بالتربية الجمالية».. وتربية التذوق والحس الجمالى.

والموسيقى جمال، فهو – أقصد: الطفل – يستمع إلى الموسيقى فى غناء أمه، وتبهجه هدهدتها الايقاعية له، وهى تحاول أن تجعله ينام، والطفل يلعب بصوته، منذ نعومة أظفاره، فهو يناغى ويغنى، وقد يرقص على نغمات موسيقية مبهجة.. فتكاد الموسيقى تكون ملازمة لحياة الطفل، لأن احساسه بها مغروساً فى أعماقه منذ ولادته.. والموسيقى فن.. وما أجمل أن يتربى الطفل على الموسيقى وأنغامها، بل وينام عليها، ويصحو.. حتى تصبح حياته كما مقطوعة موسيقية متصلة مستمرة!.. والموسيقى تهذيب للأرواح، وصقل للأنفس، ولا أخلاق بلا موسيقى – كما كان يقول فلاسفة اليونان أو هذا هو معنى ما يقولون – فالموسيقى تعلم معانى التناسق والتناغم والترتيب والتكيف مع مكونات البيئة لأن الموسيقى في ذاتها تنسيق نغمات وترتيب أنغام وتكيف مع النوتة الموسيقية!.

وممارسة الرسم، من الأمور المهمة لدى الطفل، وهو أمر أساسى فى التكوين الجمالى والخلقى له لدرجة أنه مادة أساسية فى المدارس نظراً لأهمية، وتجاوب الطفل معه، و«فطرية» الطفل عليه، ففى سن الثالثة من عمر الطفل، تأخذ يد الطفل الصغيرة فى التقاط ألوان وأوراق، ويبدأ فى رسم أو «شخبطة» أى شيء على الأوراق.. ويعبّر عن ذاته أياً كان هذا التعبير الطفولى.. وممارسة الرسم تجديد لنشاط الطفل، وتطوير لملكاته واكتشاف لمواهبه الفنية أيضاً.. وليس الفن أو الرسم مضيعة للوقت لدى الطفل بل استثماراً وترويحاً وتطويراً لشخصيته وحياته أيضاً.

وإن كان المربون يسعون إلى تعليم الأبناء «فن الجمال والنظام والتذوق» إلا أن هناك مشكلة لدى الأطفال عموماً هى مشكلة «الفوضوية» ويقصد بها أن الأطفال الصغار يميلون إلى الفوضى وعدم الترتيب وعدم النظام، وهم يكونون غير مهتمين بنظافة ملابسهم، وألعابهم، وكأنهم يستمتعون بعادات القذارة.. والعلم أوضح أن الأطفال الذين يشعرون بالغضب من والديهم أو الأطفال الذين لا تشبع لديهم احتياجاتهم الأساسية، أو الأطفال الذين يتعرضون لتربية صارمة قاسية، هؤلاء وأولئك يعبرون عادة عن جام غضبهم ونقمتهم من الكبار، بل وعقابهم للكبار عن طريق الاهمال وعدم الاعتناء بنظافتهم ونظامهم، بل وغالباً ما يظهرون بمظهر التفاخر بقذارة مظهرهم.. والأطفال الذين لا يشعرون بالرضا والاشباع الكافى فى حياتهم فى نواحٍ عديدة، يرفضون أن يتخلُّوا عن الاشباع المتحقق لهم عن طريق «الفوضوية» التى يعيشون فيها، وعادات القذارة التى يرتعون فى رحابها!.

ثم أن هناك سبباً آخر لسواد القذارة والفوضى لديهم ألا وهو نشأة البعض منهم فى بيوت تفتقر إلى النظام والترتيب واللمسات الجمالية، فلا يتعلم الطفل الذى ينشأ فى بيت من هذه البيوت، قيم النظافة والنظام والترتيب أو أنه نشأ فى بيئة لا تسود فيها هذه القيم الجمالية لأن النظافة والنظام جمال فى المقام الأول.

وهؤلاء الأطفال غير المنظمين، ربما كانوا قد تلقوا حماية زائدة، ولم يتعلموا أبداً مهارات النظام «باستقلالية»، وتمثلت هذه الحماية الزائدة فى أن يقوم الكبار بكل شيء عنهم أو بدلاً منهم بلا تحميلهم لأية مسئولية تخص ترتيب أو تنظيم أو تنظيف حاجياتهم أو ذواتهم.. وبالتالى يكون هؤلاء الأطفال أو ينشأون على عدم تحمل مسئولية أنفسهم فى «اللافوضوية»، فلا يقدرون على الاعتماد على ذواتهم فى النظافة والنظام.. ولعل اسوأ المواقف التى يتعرض لها الطفل «اللا استقلالى» هذا، عندما يقول له أبوه أنه يتوقع منه النظافة والاعتناء والنظام، وفى

الوقت ذاته، ينقل إليه أبوه شعوراً بأنه ما يزال غير قادر على فعل ذلك.. فالكلام يحمل معنى التوقع، والشعور يحمل العكس.. وهذا الشعور ينتقل تلقائياً إلى نفسية الطفل، فيزيدها «طفولية» (أى: لا مسئولية) مثبتاً لنفسه أنه بالفعل ليس قادراً، ومحققاً فى حياته بالفعل عدم القدرة على فعل شىء!.

وهكذا يمكن تدريب وتعويد الطفل بدءً مما قبل المدرسة، المحافظة على غرفته مرتبة إلى حدٍ ما، مع تشجيعه على ذلك بمكافآت مادية أو معنوية، مع محاولة ترتيب سريره.. وعندما يكبر، وبالتحديد منذ سن السادسة، يمكن أن يساعد فى بعض أعمال التنظيف حيث بامكان الطفل القيام بنفض الغبار، وترتيب المائدة وغسل وتجفيف الأطباق مثلاً.

ومن أسباب «الفوضوية» أيضاً لدى الطفل، رغبته فى الاستقلالية، فمثلاً يمكن تحميل الطفل بالمسئولية عن طريق تكليفه بمهمات مناسبة.. ومن القواعد التربوية الأصيلة فى تحميل الطفل للمسئولية أن تزيد المسئوليات على عاتق الطفل تدريجياً، مع ملاحظة مدى قدرته على تحمل هذه المسئوليات.. «فالتربية بالمسئولية» هنا هى «تربية تدريجية» لا تعتمد على الطفرات ولا القفزات.

وعندما يتعود على المسئولية، ويجد أنها تحقق ذاته من خلال تحقيقه لإنجازات معينة، فهو بالتالى يكون مهيأ لتقبل المزيد من المسئوليات والتفاعل معها والتحبب إليها.. ولا ننسى أهمية وجود الحافز فى إطار قيام الطفل بالمسئوليات الموكولة إليه.. وطالما عرفت المسئولية وحب المسئولية طريقها إلى قلب ونفس وعقل الطفل، فسرعان ما تهرب أمامها «الفوضوية» فى حياته، ويبدأ احساسه بالجمال يتسلل رويداً رويداً إلى قلبه، ويشيع فى نفسه.. ومع «غزو الجمال» له، يبدأ احساسه بالأخلاقيات الجميلة والقيم الجميلة والمعانى الجميلة.. «فسلسلة الجمال» مترابطة تماماً ووثيقة الصلات، كل حلقة جمال بالأخرى.

وفى جميع الحالات، حالات اهمال الطفل و «فوضويته»، وحالات اعتنائه ونظامه ونظافته، يجب أن يشعر الطفل بما يُسمى «بالقبول» له من قِبل والديّه.. و«القبول» يختلف عن «التشجيع».. فأنا أقبلك يا ابنى فى كافة حالاتك لأنّى أحبك.. حتى وأنت مخطئ أنا أحبك، وحتى وإن استخدمت معه أسلوب حازم، فأنا أحبك، ولذلك أحزم عليك لأجل منفعتك.. و «القبول النفسى» يُشعر الطفل إذاً بأنه محبوب وغير مرفوض، بل ما يرفضه الوالدان فيه ليس شخصه بل فعله الخاطئ.. أما «التشجيع» فهو تحفيز له على أن يسلك حسناً، و «المكافأة» تنتظره عندما يحقق إنجازاً!.

خامساً: التسلط:

يقول «د. على زيعور» فى كتابه بعنوان «التحليل النفسى للذات العربية»: «التربية المتسلطة هى التربية التى لا تقيم وزناً لآراء الولد وميوله وحاجاته ولا تترك مجال التعبير عن رغباته وإبداء أفكاره ولا تحترم مبادرته الشخصية، بل تفرض عليه فرضاً القالب الذى يلائم إرادة الأهل، وهذا الموقف كثيراً ما يصدر عن الأب بشكل خاص»..

فالابن أو الابنة أمام التربية المتسلطة ليس شخصاً بل «شيئاً مِطْواعاً».. يطوّعه الأب أو الأم بحسب رغباتهما ومشيئاتهما، وكأن لا رأى ولا قيمة لشخصيته وكيانه الخاص.. والنفس البشرية مجبولة على أن تنطلق فى التعبير عن ذاتها، وهذا التعبير من شأنه أن يعزز الثقة بالنفس، وينمّى الملكات الشخصية، ويُنضج الشخصية الإنسانية..

والطفل الذى يُقهر ويُكبت بهذه التربية التسلطية، تتكون فى داخله «مكبوتات» عديدة عدوانية.. وبعد قليل يأخذ فى «نقل العدوان» على آخرين.. فكما تسلط عليه الأب، يريد أن يتسلط هو بذاته على أُناس آخرين.. فالأب مثلاً

بتربيته المتسلطة، غرس فى ابنه معنى وقيمة خاطئة اسمها «التسلط» .. ونظراً لأن الابن لا يستطيع أن ينفجر فى أبيه رداً على عدوان أبيه عليه، ولا يستطيع أن يقابل عدوان أبيه بعدوان منه، لذا فهو يكبت العدوان فى نفسه، ومع نمو الطفل، ينمو العدوان أو التسلط كقيمة، وهى قيمة سلبية خاطئة فى حد ذاتها، ويتحين الفرص لسكب العدوان على كل من حوله.. وعندما يكبر يغدو شخصية مكروهة لأنها متسلطة، تفرض رأيها وشخصيتها فرضاً قهرياً على الآخرين من حولها، وتحاول أن تسفّه من آرائهم وتصرفاتهم.

والواقع أن صورة الأب تتشوه لمّا يربى ابنه تربية متسلطة.. لأن الأب فى ذاته هو المثال والقدوة والنموذج المباشر أمام الابن، والمفروض أن الابن يأخذ من صفات وخصال وقدوة أبيه ويتمثل بأمور عديدة فى أبيه، وفى شخصية أبيه، ويستفيد منه.. فإذا تسلط الأب على ابنه بهذه الصورة، نفر الابن منه وتراجع عن الإقتداء به، وصار هذا التسلط حاجزاً نفسياً بين الابن وأبيه، يحول دون نفاذ الابن إلى شخصية الأب، والاستفادة منها والالتقاء بها، بل وأكثر من ذلك، فالتسلط التربوى يؤدى إلى امكانية كراهية الابن لأبيه المتسلط أو لأمه المتسلطة عليه.

وتربية التسلط تؤدى أيضاً إلى زرع الخوف فى نفس الصغير، ونزع الشجاعة والجرأة والاقدام منه.. فيشبُّ الطفل خائفاً مذعوراً فاقداً لثقته فى نفسه خجولاً منطوياً.. وبالاختصار، يغدو الطفل منزوياً على ذاته، حتى وإن كان يحمل فى داخله قدراً من العدوانية والتسلط المنقول إليه من تربية أبيه المتسلطة، وهكذا تذبل شخصيته وذاته.

ولنتوقف مليّاً عند تعبير «ذبول الشخصية»، وفى الموسوعات النفسية تُذكر سمات أو ملامح هذا الذبول النفسى، أو النتائج التى تترتب على ذبول النفس.. ولا يُخفى عليك - يا عزيزى - أنّ النفس الذابلة هى نفس قد تم حرمانها من

الحب والعطف، لأنها عُوملت بقسوة متسلطة.. ويمكننا عرض هذه الملامح للذبول فيما يلى :

١- الحزن بلا سبب :

فالنفس التى تعرضت لتسلط وقهر، تترسب فى أعماقها مشاعر حزينة، وتفقد سعادتها.. إذ من أين لنفسٍ مجروحة مخنوقة أن تفرح وتتهلّل؟.. والنفس المجروحة تحُلُّ فيها مشاعر الحزن محل مشاعر الفرح والسعادة.. وعندما يكبر الطفل، تستمر معه مشاعر الحزن التى لا يفهم سببها، فأحزانه ليست نتيجة لأمور محددة، هو يعرفها، ولكن فجأة تهجم عليه مشاعر الحزن بلا سبب، وإذا سأله أحد: لماذا هو حزين هكذا؟، لأخفق عن الجواب، فلا شيء بعينه حدث له الآن سبّب له حزناً.. فهو حزين فقط.. أما السبب الدفين الذى لربما خفى عليه هو شخصياً، هو أنه تربى تربية تسلطية.

٢- النقد الشديد :

فالطفل الذى يتربى على النقد والتجريح، وتشبع أذنه كلاماً مؤلماً سلبياً يحوى من الإهانة والسخرية الكثير والكثير، تتولد تلقائياً لديه عادة صعبة اسمها «عادة التجريح» وهو بذلك يعمل على إثبات وتحقيق ذاته بشكلٍ غير مباشر، وكأنه عندما يرفض الناس، يثبت ذاته وإعجاب بها.. ولا تتعجب من ذلك – يا عزيزى – ففاقد الشيء لا يعطيه.. فإذا كان ابنك فاقداً للكلمات المشجعة الجميلة التى تقولها على مسمعه، فتتخلل جنبات نفسه، وتنعشها كما ينعش الماء النبات، فهل تتوقع منه أن يقول ما هو جميل على مسامع الآخرين؟.. وإن كانت أذنه لم يصادفها سوى الكلام الجارح، فمن الطبيعى أن يحوِّل هذه الجراح إلى جرح الآخرين، وهو ما يُسمّى بـ «نقل التجريح»!.

٣- التعويض بشكل مَرَضي:

والطفل الذى يشعر بالنقص نتيجة الاحباط والاحساس بالفشل والهزيمة المستمر بسبب ما تعرّض له من «تقزيم» لشخصيته، مثل هذا الطفل يعمل بكل طاقته، سواء وعى ذلك أم لم يعى، على محاولة إخفاء شعوره بالنقص هذا، عن طريق جذبه لانتباه من حوله.. وغالباً ما يكون هذا التعويض بشكل مَرَضى لا صحى.. فقد لا يكون هذا التعويض من خلال استثماره لمواهبه، وتصميمه على النجاح والتفوق بالرغم من اهمال والديه له، وتربيتهما المتسلطة تجاهه، ولكنه عادة ما يكون التعويض من خلال اتخاذ تصرفات تجذب انتباه الآخرين إليه حتى وإن كانت تصرفات سلبية وممجوجة ومقززة.

٤- السيطرة:

وهى أمر طبيعى يترتب على القهر.. فالسيطرة تولّد سيطرة.. والقهر ينتج قهراً.. والعنف يؤدى إلى عنف.. فالطفل الذى فرض الوالدان عليه السطوة والسيادة، يحاول محاولات مستمرة لفرض السيادة والقيادة على من هم أقل منه، وذلك كنوع من التعويض عن الشعور بالضعف والعجز والدونية.. فعدم رضاه عن نفسه تؤدى به إلى أن يقوّض هذا الشعور بعدم الرضا باتخاذه السيطرة وسيلة تعويضية.. فالشخص الذى يسيطر على غيره، هو فى حقيقة ذاته ونفسيته شخص ضعيف نفسياً، حتى وإن تظاهر بخلاف أو بعكس ذلك.

٥- الانعزالية:

والقهر فى التربية، يورّث نوعاً من الانعزالية عن الناس، والانطوائية غير المحببة، والبعد عن الناس، والخوف من الاندماج معهم، وعدم الرغبة فى التعرف عليهم، والدخول معهم فى الأنشطة والأعمال المشتركة.. وهذه الانعزالية أو هذا الانزواء الخارجى عن الناس، أصله انزواء داخلى صنعته التربية غير السوية فى الطفل..

فالخلل النفسى الذى بثته التربية فيه، جعل نفسيته مهزوزة وغير متعادلة، وأصبح الناس بالنسبة له كائنات خرافية مخيفة وكأنها وحوش تريد أن تلتهمه التهاماً ولا تبقى منه شيئاً!.

وهو يخاف من الاندماج مع الناس لخوفه الشديد من آرائهم نحوه، فهو لا يحتمل نقداً يوجَّه إليه لأن نفسه هشَّة وضعيفة من الداخل ولا تقوى على تحمل أى شىء!.

٦- الحسد :

فالنفس التى تُحرم، تحسد الآخرين على نجاحهم، لأنها ليست ناجحة على المستوى النفسى.. والحسد يسبب الغيرة من الآخرين، والحقد عليهم.. فالنفس الذابلة فى الحب، والخاوية من الحنان، ممتلئة من الحسد والغيرة بل ورغبة الانتقام من الآخرين.

٧- تضخم الذات :

ولعل هذه النقطة بالذات تحمل قدراً من التناقض للنفس الذابلة.. فمن المعروف عن النفس الذابلة أنها تعانى من صغر النفس، وتضاؤل الذات، فهى ترى ذاتها ضئيلة وضعيفة وغير مُستحَقة لشىء.. والعجيب أنها على الجانب الآخر تشعر بتضخم الذات.. ولاحظ - يا عزيزى - عبارة «تضخم» هذه.. ففى عالم الأمراض، عندما نقول أن هناك تضخم فى القلب، فهذا دليل وجود مرض فى القلب.. وكذا لمَّا نقول أنَّ هناك صِغَر فى القلب فهذا دليل مرض أيضاً.. فالصغر والتضخم، كلاهما مرض عُضال.

وتضخم الذات هنا محاولة وهمية لمعالجة صِغَر الذات.. فصغر الذات تحمل معنى النقص النفسى والشعور بالضآلة النفسية.. وهى محاولة داخلية لمعالجة ضعف وصغر الذات كأسلوب تعويضى أيضاً عن الضعف والعجز الداخليين

للنفس.. فهو لكى يعوض صغر ذاته، يوهم نفسه بالشعور بتضخم ذاته، وبأنها ذات ممتازة وعظيمة وتستحق الاحترام من الناس.. ولكن عندما تُزال الغشاوة عن النفس، وتواجه النفس ذاتها بصراحة، تكتشف حقيقة نفسها أنها صغيرة فى أعماقها، وأن العلاج لضعف وصغر ذاتها ليس الإتجاه إلى العكس حيث الاحساس بتضخم الذات، بل بمواجهة الذات بعيوبها، ومحاولة اصلاح هذه العيوب بشكل منطقى حقيقى، ويمكن الاستعانة بمرشد أو طبيب نفسى للمعاونة فى هذا الاصلاح.

أعتقد – يا عزيزى – أنها قضية خاسرة، مسألة التربية التسلطية المتحكمة فى الأبناء.. وكأن الوالدين الذين ينتهجون هذا النهج التربوى الخاطئ، يخنقون أبنائهم وبناتهم، فما أشبه الأبناء والبنات بالورود التى من المفروض أن تكون يانعة ومتفتحة للحياة.. ولكن المشكلة تكمن فى كيفية الايناع والتفتح.. وبأى وسيلة يتحققان.. فبدون مناخ وجو التشجيع واشاعة الحب و «التربية المتزنة» ما بين حب وحزم بلا تدليل ولا تسلط، لا حل للمشكلة!.

سادساً: التدليل:

إذا كان التسلط كارثة تربوية، فالتدليل كارثة أخرى.. فما هو التدليل؟.. التدليل أو – كما يُطلقون عليه بالعامية المصرية – «الدلَع»، هو الوجه المقابل للتسلط، وهو يقف على طرف النقيض من التسلط والقساوة.. والتدليل هو المبالغة أو المغالاة فى الاهتمام وابداء العطف والحنان تجاه الطفل، واحاطته بسياج من الرعاية المبالغ فيها، واشاعة روح الخوف عليه من أى شىء ومن كل شىء.. ويتجلى هذا الموقف التدليلى بصفة خاصة لدى الأم أكثر منه لدى الأب.. وتربية التدليل تخشى على الطفل من أى ألم أو تألُم.. وتغالى هذه التربية فى اظهار الخشية والخوف على الطفل فى حالة ظهور أى ظلال للألم أو الخسارة أو

المرض.. وهذه التربية أيضاً تحوِّط الطفل «بكمية هائلة من القطن» حتى لا يخدش ولو خدش بسيط.. فالطفل الذى يتربى فى «القطن» هو طفل ليس لديه مناعة نفسية ولا مقاومة شخصية، بل هو - ببساطة - شخص «قابل للكسر»، لذلك يحيطونه «بالقطن».. وليس تشبيه التدليل بالقطن من عندياتى، بل هو تشبيه لدى الفرنسيين الذين يقولون عن التربية التدليلية أنها «تربية فى القطن».. و«القطن» اشارة إلى الترف والخوف الزائد والعناية المبالغة والرعاية الفائقة والخشية المتفاقمة و.. و.. وكلٌ ما هو مبالغ فيه وزائد للغاية.. والمثل البسيط يقول: «الشيء إذا زاد عن حدّه، انقلب إلى ضدّه».. فزيادة الرعاية غالباً ما تؤدى إلى نتائج وخيمة تتقارب أو تتشابه إلى حد بعيد مع نتائج قلة الرعاية وضآلة الحب والاهتمام.. وزيادة الرعاية هى تدليل.. وقلة الرعاية هى تسلط.. وهذان هما طرفا النقيض المرفوضان تربوياً.. فلا تدليل ولا تسلط.. ولا افراط ولا تفريط.. والوسط فى التربية هو «رُمَّانة الميزان» العادلة!.

وفى دراسة لطيفة لـ «د. مجدى إسحاق» بعنوان «التشجيع فى تربية الأطفال» يبين الآثار السيئة المترتبة على أسلوب التدليل فى التربية، التى تتلخص فى كلمتين قاتلتين هما: «الخوف أو التخويف»، و «الاعتمادية على الغير».

وقُلْ عن الخوف، ولا حَرَج!.. فأكبر أثر سلبى «للتربية فى القطن» هو الخوف.. هذا الأمر الذى عبَّر عنه الكاتب الكبير «نجيب محفوظ» فى روايته الخالدة «السَّراب»، فتدور هذه الرواية حول مأساة عاشتها زوجة مع زوج سكير، وأخيراً طلقها هذا الزوج، ولم يترك لها سوى الابن الأصغر، فتشبثت به، وأحاطته برعاية فائقة وخانقة معاً، وقد أدت هذه الرعاية «فى القطن» إلى ضياع نفسيته، وفشل زواجه.. ويقول هنا بطل القصة، وهو هذا الابن الأصغر بعد ما صار شاباً: «.. لم تجد فى حزنها من عزاء سواى، فأودعتنى حضنها، لا تحبُّ أن أبرحه، وتودُّ لو تجعل منه مرتعى ومراحى ودنياى جميعاً.. فلم أدرك إلاَّ بعد فوات الأوان

أنه كان حناناً شاذاً قد جاوز حده، ومن الحنان ما يُهلك.. وأقبلت تخوّفنى بأشياء لا حصر لها لتردّنى عما أتطلع إليه من حرية وانطلاق، ولتحتفظ بى فى حضنها على الدوام فملأت أُذنى بقصص العفاريت والأشباح.. وهو الذى جعل من الخوف جوهراً أصيلاً فى نفسى، تدور حوله حياتى جميعاً، فنغّص علىّ صفوى ورمانى بتعاسة لا تريم!».

فما الذى يصنعه الخَوْف فى النفس البشرية؟.. الخوف «جرثومة» مدمرة، عندما تحتل النفس تعمل على ذبولها وخرابها ومرضها النفسى وضعفها المُقيم.. فها هنا الطفل الذى تربى على الخوف، يخاف من كل وأى شىء، ويقتل الخوف فيه روح المبادأة والمبادرة والاقدام والشجاعة والجرأة، ويقتل فيه القدرة على التكيف مع الناس، والتوافق مع المجتمع والحياة عموماً، ويعمل الخوف، بصورة شعورية ولاشعورية، على الحدّ من النمو النفسى للطفل، وفقدان رغبته وامكانياته فى اكتساب الخبرات، عن طريق الانطلاقة فى الحياة والاحتكاك بالواقع.

فالطفل الذى يخاف أن يمشى على قدميه، يظلُّ زاحفاً!.. والشخص الذى يخاف أن يسعى إلى أى شىء، يظل ساكناً ساكتاً جامداً أبداً إذ تتولّد فيه قلة أو انعدام الثقة فى نفسه نتيجة كثرة القلق والتخويف، مما يجعل الطفل، وحتى عندما يكبر، يركن إلى أمّه أو أبيه أو إلى شخص راشد يألفه، ويجد نفسه عاجزاً عن اللعب وحده أو استذكار دروسه وحده، معتمداً على نفسه، بل تتأجج فى داخله الرغبة فى أن يعاونه أحد فى كل شىء فى حياته فلابد له من سند أو عون مستمر، وإلا لضاع وانهار وتأزم نفسياً، حتى إذا كان هذا الطفل نابغ ذهنياً، وله مواهب وقدرات عالية.. فما الفائدة من زهرة أو نبات مزروع، ومن نوع ممتاز، ولكن موضوع فوقه مكيال أو إناء يمنع عنه الهواء والنور والضياء.. وحتى وإن كان هناك ماء يأخذه النبات من التربة عبر جذره، فهيهات له أن ينمو، والمكيال فوقه يحدُّ بل يمنع هذا النماء!.

وقد ترتاح الأمّ إلى شعورها بعدم قدرة ابنها عن الاستغناء عنها، وذلك رغم شكوتها الظاهرية من أنه هو الذى يلتصق بها دائماً، وهى ترفض ذلك!.. وقد تثور الأم إذا سمعت نصيحة تطلب منها أن تحرر ابنها من تبعيته لها والتصاقه الدائم بها، وفي ثورتها تقول: «هذا الطفل مسكين، لا يستطيع الحياة بدونى!» .. ولكن هل هو حقيقةً طفل مسكين أم أنها هى التى «تمسكن» طفلها من حيث لا تدرى أو تدرى ولكنها ترفض أن تعترف أو تتراجع عن موقفها الخاطئ بأنها هى التى تُلصق ابنها بها، وأنها تقزمه وتؤدى إلى عجزه النفسى، وتبذر فى نفسه بذور الخجل والانطواء والانزواء، خاصة إذا حاول التعرُّف على العالم المحيط به من خلال التجربة، فتقول له: «لا تمس كذا لئلا تؤذى.. لا تفعل كذا لئلا تخطئ.. لا تخرج لئلا تُصاب..» .

هنا يتعلم الطفل من أهله المُدلّلين له أنه مُذنب ومخرب، ويعلمونه من ناحية أخرى أن العالم مخيف ومهدِّد له، وبدلاً من أن يساهموا فى ازدياد طاقاته النفسية والشخصية، يؤذون تكوين شخصيته المتميزة، ويقتلون فيه الابداع والابتكار والاضافة، والاحجام عن المبادرة البنّاءة لحياته.

فالتدليل إذاً يؤدّى إلى تعاظم الخوف فى قلوب الأطفال، ويشبُّون على هذا الخوف، وأيضاً يشبون على الاعتماد على الآخرين، وعدم الاعتماد على ذواتهم، بل وتفريغ ذواتهم من مضامينها!.. ولكن النفس تنمو بالحرية والحب، وتتغذى على الاحتواء والتشجيع والتسامح.. فاقبل أخطاء ابنك وناقشها معه بروح الفهم والشرح والتوجيه والتعضيد، واجعله يعلم أن عيوبه لا تعوّق نُمُوّه، وعلّمه أنّ النجاح يبدأ من «الضعف» وأن تكرار المحاولة بأمانة لا يقلُّ أهمية عن الوصول لقمة النجاح.. وهذا القبول للابن، وهذا القبول لأخطائه، ليس معناه مُباركة هذه الأخطاء بل مناقشتها، بروح التفاهم بلا قهر كما فى تربية التسلط، ولا مجاوزة هذه الأخطاء، وعدم الاهتمام بها كما فى تربية التدليل.. فالتدليل والتسلُّط

يؤديان إلى نتيجة واحدة، وهى تقزيم الشخصية، وغرْز بذور النقص النفسى فيها، ونمو هذا النقص عبر أطوار وحياة الشخصية.. فالتشجيع مطلوب لكن بلا تدليل.. والحَزم مطلوب بلا قساوة ولا تسلُّط.. فخير الأمور أوسطها فى تربية الأطفال!.

سابعاً: القدوة والإيحاء:

خير وسيلة فعلاً لتربية الطفل ألاَّ نفعل أمامه شيئاً لا نحب أن ينشأ هو عليه، بل نقف منه موقف القدوة التى يحاكيها ويتقدى بها، والعجيب فى القدوة أنها تُحدث لدى نفسية الطفل انجذاباً لها حتى من حيث لا يدرى هو.. فالطفل عندما يقتدى بأبيه مثلاً، ويتأثر به، فهو يفعل ذلك غالباً ليس عن وعى منه بل بدون وعى، وبصورة لا شعورية.. فللإنسان عقلان - كما هو معروف - عقل واعى، وعقل لا واعى أو باطن.. أو عقل فى الشعور، وعقل فى اللاشعور.. والتأثر بالقدوة يقتحم الشعور، ويتعداه للاشعور، ويختزن هذا التأثير هناك فى اللاشعور أو فى العقل الباطن أو اللاواعى، ويبدأ فى العمل والتأثير على سلوك وتصرفات وأفكار ووجدان وأفعال الطفل، ولمَّا يكبر، يكبر معه التأثير اللاشعورى.

فإذا قام الطفل بمحاكاة أو تقليد أو التمثلُّ بوالديه، فلعله يتمثل بالأمور السليمة الصحيحة التى يجدها فيهما ولا يحاكى أو يقتدى بالأمور السيئة.. فإذا حاكى الطفل أحد الوالدين فى أمور ليست سليمة، فلن يتبدَّل بسهولة خُلُقه بالنصائح أو الأوامر أو النواهى.. فإذا نجحت الأوامر فى فرض رأى الوالدين عليه، وامتنع الطفل بالفعل عما يفعله من أخطاء، فالوالدان فى حقيقة الأمر عملا على كبت أو كظم عاطفة الطفل تجاه ما امتنع عنه، لذا فالطفل يتحيَّن الفرصة، بعيداً عن والديه، لكى يفعل ما يريد، خلواً من العيون التى تراقبه، والأيادى التى تشير إلى أخطائه، ويفعل ما يبغى فى الخفاء، ليُفرِّغ عاطفته المكبوتة أو المكظومة، وينفسَّ عن رغبته المدسوسة فى عقله الباطن.

والسؤال التربوى شديد الأهمية: كيف نكوّن أخلاق الطفل واتجاهاته السليمة؟.. إن العلم يقرر حقيقة، جواباً على هذا السؤال، وهذا الجواب هو أن الأخلاق تتكون لدى الأطفال، منذ صغرهم عن طريق وسيلتين أو طريقتين يعملان معاً، وهما: «القدوة»، و «الإيحاء».. ولاحظ – يا عزيزى – أنّ القدوة هى تربية غير موجهة بشكل مباشر.. فالطفل لما يقوم بفعل خاطئ معين، ويجدك كأب تقوم أمامه بفعل طيب صحيح حسن، فهو تلقائياً يقتدى بفعل الأب الصحيح، عن غير وعى، وكأنه «يمتص» أفعال أبيه الجيدة، ويقتدى بها ويتمثل بها.. فصورة الأب أو المربى الفاضل أمام عينى الطفل وعقله ووجدانه، هى صورة تنغرس فى لا شعور الطفل.. وخطورة القدوة أنها تربّى دون أن تربّى!.. فالقدوة تعمل على تربية الطفل دون كلام ولا توجيهات كلامية أو لفظية.. والقدوة أبرع بما لا يُقاس من تربية النصيحة والتوجيه والقاء الأمر.. فتربية الكلام من خلال النصائح والأوامر هى تربية فروض وكبت أما تربية القدوة فهى اقتناع و«امتصاص نفسى» للطفل من الأب أو المربى، بشكل طبيعى مريح يتناسب مع نفسية الطفل.

هذا عن القدوة، فماذا عن الإيحاء؟.

الإيحاء هو استحداث رغبة فى نفس الطفل تندسُّ فى عقله الكامن أو الباطن من حيث لا يدرى، فتُحدث له هذه الرغبة عاطفة شديدة تجاهها، وهذه العاطفة تدفعه إلى اتخاذ سلوك معين لتحقيق الرغبة.. وقد يحدث هذا الإيحاء أو قد نغرس هذه الرغبة أو تلك لدى الطفل عن طريق قانون معين يسمى فى علم التربية «بقانون التعزيز»، وفيه نؤكد للطفل رضانا عن سلوك معين، عن طريق الترغيب فى هذا السلوك وبيان الاستحسان لهذا السلوك من قِبل الكبار، مع امكانية اعطاء مكافأة أو هدايا لأجل تعزيز السلوك المرغوب.

ويستخدم «قانون التعزيز أو الترغيب» بالطبع لتعزيز وتشجيع الأعمال

الحسنة التى يرغب المربون فى قيام الطفل بها.. أما فى حالة الأفعال السيئة التى نريد أن يرفضها الطفل ويبتعد عنها وينفر منها، فنستخدم معها قانون تربوى آخر هو «قانون الإلغاء»، ويقوم هذا القانون على تقويم سلوك الطفل من خلال تحفيزه على التخلص من السلوك المعَيب، وهذا القانون يهدف إلى بناء عادات سلوكية سليمة، وبث قيم حسنة، مع الغاء قيم مرفوضة، ونزع تصرفات خاطئة.

وقانونا التربية: «قانون التعزيز»، و«قانون الإلغاء» يعملان معاً على التربية السليمة للطفل، فى إطار عمل «الإيحاء».. فالطفل إذا قام بتصرف خاطئ، فمن الأفضل ألاّ ننصحه بأن يكف عن هذا التصرف، إذ النصائح قد لا تُجدى.. وإن هدّدناه بالعقاب، فقد يخاف ويكف عن التصرف ظاهرياً وبدون اقتناع، وتظل الرغبة فى التصرف الخاطئ موجودة فيه وعاملة فى نفسه، تتحين لها فرصة لتظهر فى شكل فعل الخطأ، ولكن بعيداً عن الكبار - كما ذكرنا من قبل - .. فلابد إذاً أن نقنعه بخطأ التصرف، ونُكرّهه فى الخطأ، وهذا هو دور «القدوة» - كما ذكرنا - وأيضاً هذا هو دور «الإيحاء».. فإذا وجدنا طفلاً يلعب فى قاذورات، فسبيل إصلاحه ألا نُكفُّه عن الأداء بالأوامر والنصائح (أى: بالكلام)، بل أن نُظهر اشمئزازاً مما يؤدّى.. واظهار الاشمئزاز من الفعل الخاطئ أو المرفوض الذى يقوم به الطفل، هو تطبيق «لقانون الإلغاء» عن طريق «الإيحاء»، فالاشمئزاز هو إيحاء.. فنحن نوحى، باظهار الاشمئزاز من الفعل الخاطئ (أى: أننا نوحى للطفل بالغاء ورفض ما يقوم به من خطأ باظهار اشمئزازنا من هذا الخطأ!).. فالإيحاء بالاشمئزاز يدسُّ رغبة فى نفس الطفل، تستتبعها أو تتبعها عاطفة بالرفض تجاه الخطأ، ومع تكرار اشمئزازنا من كل خطأ يقترفه الطفل، يتكون لدى نفسيته رفضاً للأخطاء.. وهو رفض لا يحمل تناقضاً ولا صراعاً فى النفسية.. وبذلك يكون عقله الكامن على استواء ومصالحة مع عقله الواعى، فلا يكون هناك صراع بينهما بشأن عاطفة أو رغبة مكبوتة أو أمر ممنوع لا يتحقق!.

فعندما يقترف الطفل خطأ، ونقهره ونأمره وننهيه عن الخطأ، فهو قد يكفُّ عن الخطأ ولكنه مايزال يحب الخطأ ويرغب فيه.. فالكف عن الخطأ كان عن خوف لا عن اقتناع بالخطأ.. وهو كف عن الخطأ بواسطة عقله الواعى.. ولكن رغبة الخطأ مازالت مدسوسة وقائمة فيه، فى عقله اللاواعى أو الباطن بالتحديد.. ولكن الخوف يمنع الرغبة من الظهور على هيئة تصرُّف فِعلىّ.. وهنا يحدث الصراع ما بين العقل الواعى، والعقل الباطن بشأن الرغبة المكبوتة.. طالما لم يحدث اقتناع الطفل بخطأ هذه الرغبة.

وإذا حدث واقتنع الطفل عن طريق الايحاء بالصواب (قانون التعزيز)، أو الايحاء بالخطأ (قانون الإلغاء)، انتهى الصراع بين عقله الواعى، وعقله اللاواعى وتمت المصالحة بينهما.. فعدم الاقتناع هو صراع.. والاقتناع هو مصالحة!.

وقد أثبتت التجربة أن معظم البَلادة لدى الصبيان منشأُها لا يرجع إلى نقص فى الذكاء بل إلى عدم الاهتمام بما يدرسونه أو يتعلمونه.. ولماذا عدم الاهتمام؟.. لأنه لم تقم فى أنفسهم عاطفة بشأن ما يدرسون أو يتعلمون.. والمعادلة بسيطة فى مبناها، عميقة فى معناها، وهى معادلة التفوق فى الحياة، منذ الطفولة.

تقول المعادلة النفسية للنجاح والتفوق: إيحاء يؤدى إلى رغبة.. ورغبة تؤدى إلى شدة الرغبة (أى: عاطفة تجاه الرغبة).. وعاطفة تؤدى إلى عمل.. وتكرار العمل يؤدى إلى تفوق.. وقد يؤدى التفوق إلى إبداع ونبوغ.. و«قانون التعزيز» هو أساس وجوهر الإيحاء بالنجاح والتفوق.. وعلى الجانب الآخر، فالإيحاء بالرفض يؤدى إلى إزالة والغاء الرغبة الضارة، تحت ظلال «قانون الإلغاء».

ويكاد يكون قانونا التربية: «الرغبة والإلغاء»، أهم قانونين للتربية القويمة الذهبية للأطفال، لأنهما يخاطبان اللاشعور لديهم، ويزيلان الصراع!.

ثامناً: الالتزام الوالدي:

الالتزام الوالدى هو التزام الوالدين بقيادة أبنائهما بشكل مسئول ملتزم.. ولكى يقوم الوالدان بدورهما فى المتابعة والاشراف، ينبغى أن يتحلُّوا بالتوجيه والقيادة الحكيمة، وحتى يكون التوجيه مثمراً ينبغى أن يتحقق هذا التوجيه بالمناقشة والحوار والهدوء والاقتناع الوديع، أمّا الضغط فلا يحقق شيئاً حقيقياً أو تغييراً تربوياً جوهرياً حتى وإن حقق تنفيذاً سطحياً فى بادئ الأمر، وسرعان ما يؤدى إلى نتائج عكسية وإلى التمرد والعصيان فى مراحل تالية.

ومن الأخطاء الشائعة لدى الوالدين: تحكمهم فى اختيار ملابس أو لعب أو متعلقات أو أصدقاء أبنائهم، وكأن الأبناء إن هم إلا ملكية خاصة لآبائهم، بينما هو نافع ومهم جداً للأبناء أن يتمرسوا فى «مدرسة الاختبار والتجربة والخطأ»!.. لماذا؟.. لكى يتعلموا ويُصقلوا شخصياتهم، وتنضج هذه الشخصيات. وحينئذٍ يتحول السلوك من تنفيذ أوامر ونواهٍ إلى تصرفات واعية تصدر عن إيمان واقتناع داخلى (وليس اقناعاً إجبارياً)، وعن طريق مواجهة تجارب الحياة، يُكتنز فى النفس رصيدٌ هائلٌ من الحكمة والحنكة.. ومن الاهمية بمكان، تعريف الابن «بمبررات» والديهم بشأن اتخاذ الوالدين لقرارات معينة تتعلق بالابن، لأن تكرار القرارات دون فهم من قِبل الأبناء، يورِّث أحاسيس ظلم لدى الأبناء، وأيضاً يورِّث أحاسيس دونية وصغر نفس بما يؤثر فى المستقبل على حياتهم وعملهم وأسرهم فيما بعد، بل فى كافة مجالات حياتهم.

ولكى تعلِّم ابنك أن يختار وأن يتفتح وأن ينضج نفسياً، لابد أن تحاوره، ويكون الحوار بينكما مُقنعاً مثمراً.. والحوار فيه تفريغ للشحنات، وتجنُّب للتراكمات النفسية.. وإذا تطلبَّ الأمر شيئاً من الانتهار، فليكن ذلك دون انفعال حتى لا يصدر منك من الكلمات والأفعال ما يشككّه فى حبك!.. مع منتهى

الحرص، ألا يحدث أى تصرف يجرح الأبناء أمام غرباء خارج دائرة الأسرة، حتى وإن كانوا من الأقرباء!.

ومن الأخطاء التربوية السخيفة، توقع الآباء من أبنائهم أن يكونوا أُناساً آليين يسمعون ولا يناقشون، ويستجيبون ولا يرفضون.. فللأبناء والبنات مشاعر وأفكار ورغبات وأحاسيس يجب أن يحترمها الآباء والأمهات.. ولهم أيضاً طاقات وقدرات وامكانات و «تفرُّدات» فى شخصياتهم، يجب استثمارها وتعريف الأبناء والبنات بها، وتشجيعهم على اظهارها وتنميتها.

لكل إنسان وزناته فى الحياة، لذا فمن الحكمة ألاَّ يتوقع الآباء من أبنائهم أكثر مما يستطيعون، ولا أقل مما يقدرون، فلا يضغطون عليهم أكثر مما يحتملون، ولا يستصغرون شأنهم مما يدفعهم إلى اليأس.. فلكل إنسان قدراته ووزناته بحسب قدراته.. ودور الوالدين معرفة ما لدى أبنائهم من قدرات ومواهب وطاقات و«تقييم» القدرات والمواهب والطاقات دون مغالاة، ودون تقليل من شأنها، أو التهوين منها.. و «الالتزام الوالدىّ» الحقيقى للأب والأم فى تعاملهما وتربيتهما للأبناء هو قيادة لهم.. وليست القيادة تسلُّط ولا قهر ولا خنق لشخصية الابن بل تفاهم وعطف وحب واقتناع.

وجميل حقاً أن يتعامل الآباء مع أبنائهم من منطق نفسى، «شعورى، ولا شعورى».. بمعنى أن تكون تربيتهم لأبنائهم أساسها الأصول التربوية السليمة.. فنحن عندما نربى، نحن نربى «نفسيات» قبل أن نربى «أجساد».. فالوالد أو الوالدة دورهما تهيئة وتهذيب وتنمية نفسيات الأبناء، وتشكيلها وليس فقط الاهتمام بصحة أجسادهم، وتربيتها، والعناية بتعليمهم وبملبسهم.. فما فائدة ملبس فاخر على جسد صحيح، تسكنه روح سقيمة جائعة إلى الرعاية النفسية السليمة، والتربية القويمة الناجعة الناجحة؟!.

ومن الكلمات البديعة تربوياً فى هذا الشأن، ما قاله «م. شوقى توفيق» فى

كتابة «المسئولية الوالدية» : «إن تصرفات الآباء المتناهية البساطة، مثل قطرات الماء التى تتساقط على الصخر الصلب، فتنحت فيه، مع الزمن أعمق مجرى»!.. فتصرفات الآباء أمام أبنائهم تمثل قدوة والتزام والدى أمامهم، يتأثرون بها ويقتدون ويتفاعلون معها.. ومهما كان التصرف بسيطاً، فله تأثير، على المدى الطويل.

ومن ناحية أخرى، فتصرفات الآباء، بالتربية، تجاه الأبناء، مهما كانت تصرفات قليلة أو صغيرة، ومهما كانت توجيهاتهم وتأديباتهم ضئيلة، فهى فى النهاية تتراكم وتؤثر فى الصغار، وتنحت فى أعماق نفسياتهم مجارى عميقة تربوية، تُصيغ هذه النفسيات وتشكلها للمستقبل.

ومن سمات «الالتزام الوالدى» أيضاً - كما يذكر «م. شوقى توفيق» : «عدم تذبذب المشاعر الوالدية».. وقد يبدو هذا التذبذب من أحد الوالدين أو كليهما فى مواجهة تصرفات وأفعال الأبناء.. ويحدث التذبذب فى المشاعر الوالدية وبالتالى فى المعاملة الوالدية للأبناء، فى مواقف سلوكية عديدة.

فمثلاً يتقدم ابن يطلب الاشتراك فى رحلةٍ ما، فيجد مرةً قبولاً، ومرة رفضاً، وتظل أسباب القبول، وأسباب الرفض ليست معلومة ولا واضحة أمام الابن!.. وهذا الأسلوب من شأنه أن يذبذب مشاعر وأفكار الأبناء تجاه والديهم، فيشكون فى كل شىء حتى فى حب والديهم لهم!!.. وقد يتجلى التذبذب التربوى الأبوى أيضاً فى افراط الوالدين أو أحدهما فى اظهار المشاعر المتناقضة.. فمرة تظهر مشاعر من التساهل، ومرة مشاعر من القساوة.. وبالطبع تترجم هذه المشاعر إلى تصرفات وأفعال.. والتساهل هو التدليل، والقساوة هى القسوة.. وكلاهما طرفا نقيض فى التربية، لأن الوسطية فى التربية هى الضرورة المفيدة للأبناء.. لا تدليل ولا قساوة بل حب وحزم فى توازن معهود - كما ذكرنا فيما قبل -.

وإذا سادت «التذبذب الوالدى» مراحل حياة الأبناء، لكانت الصورة هكذا:

فى مرحلة الطفولة المبكرة يكون هناك تدليل وتساهل مع الأبناء، ثم يدخلون المدارس، وتتغير المعاملة إلى شدة وضغط ومطالبة بما لا يقدرون عليه فيبغضون المدرسة.. وفى مرحلة الشباب تتحول المعاملة إلى صراع، إذ لا يزال الآباء يعتبرون أبنائهم أطفالاً ينبغى أن يُطيعوا، ويخضعوا بلا مناقشة ولا مجادلة.. ويتهور بعض الآباء فى هذه المرحلة إلى حد إهانة وتأنيب أبنائهم، لتصورهم أنهم لا يحققون آمالهم فيهم.. وهذا التذبذب مرير ومرهق لنفسية الابن، إذ من الصعب أن يدلل الطفل فترة من حياته، ويُطلب منه الجدّ والمثابرة فى فترة تالية، أو أن يُعفى من كافة المسئوليات حيناً، ثم يُطالَب بالمساهمة فى حملها حيناً آخر.. وهكذا!!.

فالمسئولية ينبغى أن تتخلل كل المراحل، ولا يخلو منها مرحلة من مراحل وأطوار حياة الأبناء.. ولكل مرحلة مسئوليتها المتناسبة معها.. ولابد أن تكون المسئولية متدرجة، وليس فيها طفرات ولا قفزات مفاجئة.. ولا هزات نفسية مؤلمة ومضرة للكيان الإنسانى.. ومن المهم أن يعطى الابن المسئولية ويتدرب عليها ويتدرج فيها، على أن تحاط هذه المسئولية بجو أو إطار من الحب والتشجيع والحنو.. فليست المسئولية أن أُرهق ابنى بما يفوق على طاقته واحتماله.. بل أنا أصنع ضفافاً لنهر حياته، حتى لا تنسكب مياهه وتتبدد.. فما هذه الضفاف سوى ضفاف المسئولية التى تضبط جريان مياه الطاقات الموجودة فى الابن، لكى يستفيد الابن من هذه الطاقات، وكذا يستفيد منها المجتمع.. والمسئولية تربية وتأديب وتعليم.. والمسئولية بذر بذور القيم والقوة فى نفس الابن.

وما أشبه اعطاء المسئولية للطفل، وتدريبه عليها بما يقوم به مروض الوحوش.. ففى السيرك مثلاً يقوم المدرب بتقييد قدم الفيل الصغير بسلسلة إلى حجر ما من الأسمنت، والحجر ثقيل وثابت على الأرض.. وبالطبع يحاول الفيل الصغير مراراً وتكراراً أن يشد قدمه لتفلت من السلسلة، ولكن عبثاً هى محاولاته، فتضيع ادراج الرياح.. وهكذا محاولاته الفاشلة تخلق فيه الغاء تمرده ورغبته فى ترك السيرك..

فإذا كبر الفيل الصغير، لم يعد بحاجة، وهو قد صار فيل كبير قوى ضخم، إلاَّ إلى حبل قصير مربوط إلى وتد خشبى ضعيف!!.

وهذا المثل يؤكد على قيمة «تقويم سلوك الطفل» منذ الصغر، حتى يصبح السلوك والقيم التى يبثها هذا التقويم فى نفس الطفل، سلوكاً وقيماً ثابتة، تبقى مع الطفل طوال حياته، عبر مراحل وأطوار عمره المختلفة.. والتقويم تأديب.. ولكن ليس كل تأديب سليم من الناحية التربوية والنفسية، وأساليب التأديب عديدة منها ما هو مقبول نفسياً، ومنها ما هو من شـــأنه أن يضر بنفسية الطفل.. وسوف نعرض فى نقطة مستقلة الأساليب النفسية السليمة للتأديب، كما سيجئ الكلام فيما بعد.

والطفل بنفسيته يحتاج إلى السلطة كما إلى العطف والتشجيع.. ولا تأديب بلا سلطة تأديب.. ولا تأديب بلا مسئولية معطاة للطفل.. والمسئولية والتأديب هما كلمتان تصيغان شخصية الطفل بقوة.. فإذا سألك سائل: ما الفرق بين قوة الشخصية، وبين ضعفها؟.. فلعلك تجيب: الفرق هو أن الشخصية القوية حازت على قدر طيب من المسئولية والتأديب التربوى أما الشخصية الأخرى الضعيفة، فافتقدت المسئولية والتأديب.

فالمسئولية والتأديب يؤكدان ويثبتان ويعضدان شخصية الإنسان.. لأن المسئولية هى – كما يقولون دائماً – «فيتامين الشخصية».. و «الفيتامين» دوره أنه يقوّى الجسم.. وكذا «الفيتامين النفسى» (الذى هو المسئولية وما يتبعها من تأديب تربوى للطفل) يقوى النفس، ويجعلها تتخطى ضعفاتها، فإذا كبر الطفل، اكتمل نضجه.. إذ تربية المسئولية والتقوية النفسية تسير بشخصية الطفل من تقوية إلى تقوية ومن انضاج إلى انضاج ومن تهيئة إلى تهيئة.. حتى تتم التقوية، ويكتمل النضج، وتتحقق التهيئة النفسية لشخصيته.. ومع نضج شخصية الإنسان، تنضج

ممارسته لحياته بسهولة وسلاسة بلا مخاوف ولا عُقد نفسية ولا توترات شعورية أو لا شعورية، وبلا معاناة نفسية طالما توجد «سوية نفسية»!.

تاسعاً: التأديب التربوي:

في كتابه القيم «التشجيع في تربية الأولاد» يعرض «د. مجدي إسحاق» عدداً من خطوات التأديب التربوي السليم للطفل، وهي خطوات مدروسة ومتفقة عليها في علم التربية الحديثة.. ونحن نخطئ جداً إذا تصورنا أن التأديب يتعارض مع التشجيع والحب، فالتأديب يضع «حدوداً رادعة» لنفسية الطفل، وبدون هذه الحدود، ينشأ الطفل مُدللاً يحيا على هواه، وبالتالي غير قادر على تحمل المسئولية، ويصبح شخصاً ضعيفاً مُهملاً بلا قوة في شخصيته ولا طاقة شجاعة في نفسيته.. والتأديب هو المرحلة الأولية التأسيسية التي تعود وتعلم الطفل فيما بعد كيفية كبح جماح نفسه، وكيفية وضع الحدود لنفسه بنفسه، وكيفية ضبط حياته بصورة طيبة ناضجة ومريحة أيضاً بدون تسيب، وبدون تهور انفعالي، وبشكل فيه من التوازن النفسي الكثير، ومن السوية النفسية الكثير والكثير.

وفيما يلي، أشهر أساليب التأديب في التربية النفسية :

١- لا تجرح ذات ابنك:

وأساليب الجرح عديدة، منها استخدام الإيذاء البدني للطفل، عن طريق الضرب باليد أو بالعصا ضرباً مبرحاً.. فالضرب المُبرح الشديد مرفوض جملة وتفصيلاً ولكن الضرب كمبدأ تربوي، قد اختلف حوله كثير من التربويين، فالبعض يرفض الضرب تماماً، والبعض الآخر يؤيده ولكن بشروط.. فيرى هذا البعض أن الضرب يُحتمل أن يكون «على اليد فقط»، بحيث لا يُضرب الطفل على وجهه ولا على مؤخرته ولا على رأسه.. لماذا؟.. حتى لا يتحول التأديب إلى إهانة لا تأديب.. وهذا البعض يرى أن الضرب يمكن أن يكون «على ظهر اليد»

أيضاً، حتى يشعر الطرفان بالألم، فيشعر الوالد مثلاً أن يده آلمته، ويشعر الولد أن يده توجعت.. ويرفض هذا البعض أيضاً أن يكون التأديب بالضرب مستمراً، إنما يكون إلى سن محددة فقط (سن ٨-١٠ سنوات على الأكثر).. بحيث يتوقف بعدها هذا الأسلوب تماماً.

ولكن الرأى الشائع يرفض استخدام الإيذاء البدنى أو الضرب فى التربية سواء أكان باليد أم بالعصا.. فالضرب وسيلة عاجزة.. فالتأديب الصحيح نفسياً لابد وأن يتحلى بالحكمة والصبر والحنان والتوجيه السديد والتقويم السليم.. ويجب أن يتعلم الطفل بمجرد النظرة، والايماءة، ويتجاوب معنا اقتناعاً وحباً واعجاباً وليس خوفاً وارتعاداً من عصا أو يد تؤذى.. فصحيح، التأديب مهم للغاية، ولكن بأى وسيلة نؤدِّب؟.

ومن الأضرار النفسية الفادحة للضرب، أنه يحطم شخصية الطفل، وخصوصاً إذا تم ضربه أو ايذائه بدنياً أمام الناس.. كما أن الضرب قد يصيب شخصيته بالتبلد والعناد الشديد كرد فعل للاعتداء البدنى الذى وُجه إليه وأهانه.. ومع الزمن، يميل الابن إلى العنف والعدوانية مع تعامله مع الآخرين، وليس عجيباً، لأن فاقد الشىء لا يعطيه.. وفاقد الحنان لا يعطى الحب.. ومُختزن العنف والضرب والمهانة لا يخرج من كنزه هذا سوى كل عنف وتجبُّر واعتداء على الناس!!.. والضرب أيضاً يشيع فى نفس الابن قدراً لا يُستهان به من الخوف من الناس ومن السلطة ومن نفسه أيضاً.. فالضرب مورِّث للمخاوف والقلق المرضى والتوجس خيفةً من كل شىء ومن كل أحد.. والمضروب دائماً (أقصد: الطفل الذى تربى على الضرب دائماً) يشبُّ خائفاً، وفى ذات الوقت غالباً ما يكون عنيفاً عدوانياً.. فهو يخاف الناس، فيعتدى عليهم.

هو من شدة هلعه من السلطة، أياً كانت، ومن تفاقم ارتعاده من الآخرين،

يبادر بالهجوم على الآخرين، ظاناً أن هناك وحش رابض فى كل إنسان، يتعامل معه.. والوحش متربّص متوثّب ليفترسه!!..

٢- ضع حدوداً للتأديب:

عندما تريد ايضاح أمراً خاطئاً معيناً لابنك، فاشرح له الخطأ فى الأمر أو ضع حدوداً معينة أو حصاراً محدداً للخطأ.. فاشرح له تفاصيل هذا الخطأ، ولماذا هو خطأ، وكذا اشرح له السلوك المرغوب فيه، والواجب اتباعه لمواجهة هذا الخطأ.. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى اشرح له السلوك الصحيح الذى ينبغى اتباعه، عكس السلوك الخاطئ الذى يكرّس هذا الأمر الخاطئ الذى تأباه على ابنك وتنكره عليه. فأنت تشرح إذاً الخطأ، وتشرح ثانيةً أسلوب أو سلوك مواجهة الخطأ، وثالثة تشرح الأسلوب المقابل أو المعاكس للخطأ، وهو الأسلوب الإيجابى السديد.. وعلم النفس يخبرنا أن الأمر أو المطلب المشروح جيداً، من السهل تلافيه إذا كان خطأ، أو من السهل القيام به والتواتر على فعله إذا كان صواباً ومُحبذاً!.

٣- لا تؤدب ابنك في المرة الأولى:

فإذا أخطأ ابنك فى أمر ما، لأول مرة، فلا تؤدبه على هذه المرة، بل مررها له ولا تعاقبه أو تؤدّبه عليها، ولكن بشرط واحد، وهو أن يُفهم ابنك خطأه، وتعلّمه، وتوجهه توجيهاً تربوياً يوضح له أن ما فعله كان خطأ، وأنه لكى يتلافى مثل هذا الخطأ فيما بعد، عليه أن يتخذ أسلوباً معيناً، والتربية النفسية تعمل على توجيه نظر الطفل إلى هذا الأسلوب المواجه أو الملافى للخطأ.. وما أروع أن يكون توجيهك لابنك توجيهاً تظلله روح الصداقة واللطف والاقتناع بين الأب وابنه.. ولا يغيب عن ذكائك التربوى – يا عزيزى أى أب أو أى مربى – أن الطفل هو طفل لا كبير.. له براءته وأيضاً له رعونته وعدم خبرته، فهو ليس كالشخص الكبير

الذى يفهم الأمور جيداً، ويعى العلاقات والأشياء حَسَناً.. فهناك أمور عديدة فى الحياة هو لا يعلمها ويجهلها، فلا يصحُ أن تؤدّبه على سنّه أو عدم معرفته أو جهله بالأمور.. هذا ظلم إذا فعلت هذا مع ابنك!.

إنما نحن نؤدِّبه إذا ما كسر القانون بوضوح.. (أى: إذا كان يعلم بالحدود الصائبة وتعداها بتعمد وبشكل واضح بيِّن).. وتجاوز الحدود بعنادٍ وباصرار، بخاصة إذا كنت كأب أو كمربى قد أعلمته من قبل ووضعت له الحدود المطلوبة، وأوضحت له حدود الخطأ بشكل لا لبس فيه، بل بشكل صريح وواضح، وأكدت على ذلك معه أيضاً، بل وأكدت على أن عقاب أو تأديب الخطأ كذا وكذا.. فها كُلُّ شيء واضح جداً نُصب عيني الطفل.. فماذا لو ضرب بكل هذا الايضاح عرض الحائط ؟!.. وماذا إذا أصرَّ وتشبث وعاند؟.. لا يتبقى سوى التأديب والعقاب للطفل.

ولعل أهم مرحلة فى التأديب هى «مرحلة المواجهة الأولى»، إذ يجب أن يعرف الطفل أنك تعنى ما تقول، وأنك ستنفِّذ ما أوضحته له إذا ما كسر القانون.. فأنت قلت لابنك أنه إذا اقترف خطأ ما، فعليه عقوبة وتأديب معين، وأوضحت له العقوبة المحتملة وحذرته منها، وبالرغم من ذلك أخطأ، فلابد أن تحقق معه كلامك تماماً، وتوقع العقوبة عليه.. فالجدية وسيلة مهمة لكى يحترم سلطتك، ولكى يفعل التأديب معه فعِله، ويُبقى أثره فى شخصيته وتقويمه.. وإذا خسرتَ هذه «المواجهة الأولى»، وتغاضيت عن العقوبة التى هددته بها، ومررت الأمر، واكتفيت بالتوجيه وحده، مع أنها ليست المرة الأولى التى فيها يخطئ ابنك هذا الخطأ بالذات – أقول إذا تغاضيت وخسرت ومرَّرت كل هذا، فإن صورتك ستهتز أمام ابنك، وسلطتك تبدأ فى التهدُّم، وفرصة تقويم وتقوية وتربية نفس ابنك، وشخصيته تتقلص أمامه.

والحقيقة أن خسارة الجولة الأولى تجعل ربح الجولات التالية، فى تنفيذ

التأديبات، أشقٌ وأصعب وأعسر.. فكن صورة أب قوى أمام عينى ابنك، لكى تقوّى شخصيته بالتأديب، تأديبك له، وأيضاً لكى تقوّى شخصيته بالقدوة، اقتدائه بقوتك!.

فلابد أن يشعر الطفل بالألم الحقيقى، من جراء التأديب أو العقوبة، فالألم بالتأديب مطهر من العيوب!.. أما التهديد الوهمى أو غير الفعال أو الذى لا يتحقق عملياً، فهو إنما يهدم العملية التربوية كلها.. فعدم تنفيذ العقاب الذى هددت ابنك به فى حالة الخطأ، من شأنه أن يعلم ابنك التدليل والالحاح، واصطناع المسكنة حتى ينال رضاك!. وفوق هذا كله تعلّمه التمادى فى الخطأ ساخراً منك، كما تساعده على تكرار الخطأ لعلمه بضعف موقفك فى التعامل مع الخطأ. فلتكن جاداً وحازماً، ولا تقل كلمة، لا تفعلها، بل لتكن كلمة التأديب التى تهدد بها موضع تنفيذ وتحقيق.. فلا تهوين فى العملية التربوية إذاً!.

٤- لا تؤدب ابنك بانفعال وصياح:

ليس التأديب مجرد افراغ لشحنة انفعالية غضبيّة.. إنما التأديب هو موقف يعمل على افادة شخصية الطفل الذى يقع عليه التأديب.. وليس المقصود بالتأديب التربوى أن ينفعل الأب أو يصيح أو يرفع صوته بزيادة أو يغضب بشراسة على الابن.. فالصياح والعصبية والغضب والثورة الجامحة والانتقام.. كل هذه الكلمات تحمل معنى واحداً وهو «القهر» و «التسلط» على الطفل لا إعلان المحبة والتقويم الصحيح له.. والتأديب بهذا المعنى الانفعالى، يجرد التأديب من معناه النفسى السوى المملوء حباً وتفاهماً، ويهدف لخير الطفل وانضاج شخصيته وفائدته.. فالتأديب ليس دفاعاً عن كرامة أب، أخطأ ابنه، فأراد الأب أن يعيد كرامته بتأديب ابنه، خصوصاً إذا كان الخطأ مُوجَّه للأب نفسه.. ولكن التأديب هو دفاعاً عن شخصية الابن، ونفسيته، بمعنى أن أى تأديب هو مهم جداً لنمو وتقوية وتقويم الشخصية والنفسية.

والنقطة الأساسية فى التأديب أيضاً أن كثرة الانفعال والصياح مع الأبناء، تعلمهم نفس الأسلوب فى التعامل مع آبائهم وأمهاتهم الذين يستخدمون هذا الأسلوب السيء فى التربية.. فها نحن أصبحنا قدوة سيئة أمامهم فى هذه النقطة بالذات.. ومعاملتهم معنا قد تكون بالمثل فيما بعد.. إن سهام الانفعال الزائد ترتد إلى صدور الآباء والأمهات.. وبنفس الكيل الذى كالوا به لأبنائهم، قد يجيء الوقت الذى فيه يكيلون لآبائهم وأمهاتهم بهذا الكيل نفسه!!.

فلا تنس - يا عزيزى الأب - أن الهدف من التربية هو: بناء ابنك، وليس بناء كرامتك وذاتك - كأب أو كمربى فاضل -!..

٥- أدب ابنك حالاً، بلا تأجيل :

إن التأديب المؤجل هو تأديب مُفرغ من مضمونه.. تماماً كالعدالة البطيئة، لا معنى لها.. فذاكرة الابن لا تستوعب حقاً وصدقاً إلا الدروس الفورية غير المؤجلة، وذلك حتى يؤثر التأديب تأثيراً مثمراً فى نفس الطفل.. فالطفل الذى يتأجل تأديبه، غالباً ما ينسى الخطأ الذى يؤدَّب عليه، أو بمعنى أدق، ينسى «سخونة» أو تأثير الخطأ!.

وبالتأكيد، من الضرورى مراعاة «التوقيت المناسب» للتأديب، فلا يصحُّ مُطلقاً من الناحية التربوية أن تعاقب أو تنتهر ابنك أمام الناس سواء أكانوا أقرباء أم غرباء، وألاَّ تجرح مشاعره أمام أصدقائه أو أقاربه بل من المهم انتظار الوقت المناسب، وتحيُّن الفرصة المناسبة، وفى المكان المناسب لتحقيق هذه العقوبة المنتظرة!.. فلا يتفق «التشهير بالعقوبة» مع العقوبة السليمة.. فالأب لا يجب أن يشهِّر بابنه فيما يعاقبه.. هذا خطأ تربوى كبير.

٦- أسلوب واحد للتأديب :

لابد، وبلا مناقشة، أن يكون أسلوب التأديب واحد أو مُوَحَّد بين الوالدين..

فلا يجوز تربوياً العبارة القائلة: «واحد يكسر.. وواحد يُجْبر الكسور!».. أعنى أن أحد الطرفين يعاقب ويؤدب، وفى ذات الوقت يقوم الطرف الآخر «بالطبطبة» على الطفل المُعاقب، ومحاولة إزالة آثار العقوبة، باحتضانه مثلاً أو بإزالة العقوبة عن طريق اعطائه حلوى أو نقود ليشترى ما يحب كتعويض له عما لحقه من عقوبة وتأديب.. فهل هذا أسلوب سليم؟ .. احكموا أنتم – أيها الآباء، وأيتها الأمهات –!.. أليس هذا يعنى أن واحد يبنى، والآخر يهدم؟.. والنتيجة؟.. لا نتيجة أو أن النتيجة لا تتعدى صفراً فى تقويم الخطأ الذى وقع فيه الطفل!.. فما التصرف الصحيح إذاً؟.. التصرف السليم هو فى اتحاد ووحدة الأسلوب التأديبى المُتفق عليه من الأب والأم معاً بلا انقسام فيما بينهما بين واحد يعاقب، وآخر يرفض العقاب، ويحاول أن يزيل آثاره.

وأمر الانقسام ما بين من يعاقب ومن «يحايل» الطفل، و «يطبطب» عليه، ويحنو حنوّاً خاطئاً، وليس فى وقته، على نفسيته المعاقبة، أمر هذا الانقسام يفتح أبواباً خلفية أمام الطفل ليهرب من العقاب أو يتملصّ منه أو يخفف من وقعه، ويتحايل للمروق منه.

٧- التشجيع والحب أساسا التأديب:

قد تتعجب مما أقوله هنا، ولكنها حقيقة نفسية تربوية غاية فى الخطورة، إذ يجب أن يعقب التأديب وقت كافٍ لاظهار وتأكيد الحب، وخير فرصة لذلك هى أن يكون تأكيد واظهار الحب، بعد التأديب أو القصاص مباشرة، بعد أن يسلم الولد بعناده، ويدرك خطأه ويعتذر عنه أو ينخرط فى بكاء.. فافتح له حضنك، وضمه بشدة لتؤكد له محبتك التى دفعتك لتأديبه.. وبهذه الأحضان الأبوية يتأكد لديه أن التشجيع والحب هو الأساس للتأديب، وليس الكره ولا القسوة.. وأن التيار العام للتربية هو التشجيع والحب لا التأديب والشدة والحزم، مع ضرورة

التأديب طبعاً.. فالتأديب هو على السلوك لا على الشخص.. فأنت تحبُّ ابنك وتحب مصلحته وبنائه وفائدته، لذا فأنت تؤدّبه من هذا المنطلق.. منطلق الحب والتشجيع والاحتضان، وليس من منطلق العداوة والقساوة.. فأنت ترفض الخطأ لا شخص المخطئ أو الخاطئ.

وهذا التفريق بين الخطأ «كموضوع»، وشخص الخاطئ «كذات»، هو تفريق حضارى أيضاً.. فالفصل بين الشيء الخطأ، وادانته، وبين الشخص الخاطئ أو المخطئ هو فصل بين كُره الخطأ، وحب الخاطئ.. فنحن لا نكره المخطئين، إنما نكره أخطائهم وحدها.. ومن الأخطاء الشائعة - للأسف - التوحيد بين «الموضوع» و «الذات» - بلغة الفلسفة - أو الامتزاج ما بين الأخطاء والمخطئين.. مع عدم اهدار إنسانية المخطئ.. وهذه نقطة غاية فى الاهمية.. فعندما يخطئ ابنك لا تسفهه، ولا تهينه ولا تقزمه، إنما ارفض خطأه، مفصولاً عنه، مع احتفاظك بحبك له وتقديرك الدائم لشخصه.

و «قضية الفصل والتفريق» هذه هى جوهر أهم قيمة حضارية فى المجتمعات الحديثة وهى «قيمة الاختلاف فى الرأى بلا غضب» أو قل هى قيمة «حرية النقد والرأى بلا تعصب».. فعندما اختلف معك فى الرأى أو حينما أنقد لك رأياً أو أنقد خطأ قمت أنت به، فهذا الاختلاف أو النقد، لا ينصرف إلى شخصك فأكرهك وأرفضك فيما أنا أكره وأرفض رأيك أو خطأك.. فإذا رفضت شخصك مع رأيك أو خطأك، فأنا هنا لستُ شخصاً حضارياً، لأنى وحدّت شخصك برأيك أو خطأك، ومزجت بينك وبين ما فعلت من خطأ.. فأنا أدين الخطأ - بحسب ما أرى - ولكنّى لا أدين الشخص الذى أخطأ بل لا أزال احترمه كإنسان وأقدّر مزاياه.

فكيف تُربّى هذه القيمة الحضارية فى نفس ابنك؟.. أليس عن طريق تعليمه

وتربيته على أساس الفصل والفريق بين شخصه وفعله الخاطئ؟.. ففيما أنت تربّيه تعلّمه القيم الحضارية.. وما المجتمع إلا الأفراد مجتمعة.. وما الأفراد إلا الأطفال لمّا كبروا.. وقيم المجتمعات تتأسس بدءً من قيم الأفراد.. وقيم الأفراد تتكون فى طفولتهم أولاً.

ومن القيم الحضارية: قيم التسامح والحب والتقدير والود واحترام الآخر، حتى مع الاختلاف معه، وعدم الاتفاق معه، وعدم حمل عداوة للآخر، أو كرهه.

٨- وسائل فعالة للتأديب:

للتأديب طرق مثالية ومدروسة، وهذه النقطة من موضوعنا، لتحتاج منا إلى مزيد من الالتفاف حولها والتركيز عليها، لأننا - كآباء ومربين - كثيراً ما نعجز عن اختيار بديل تربوى عن الأسلوب الشائع فى التربية وهو: الانفعال والضرب والقاء الكلمات المُهينة والصعبة فى وجه أبنائنا.. وهذه الوسائل التربوية التى نحن بصدد الحديث فيها، هى وسائل «فعالة» لأنها «مؤثرة»، و «مفيدة» فى التربية، ولا آثار «جانبية» خاطئة ناجمة عنها، بينما الأساليب الشائعة أو التقليدية فى التربية كالانفعال والضرب وغيرهما، تكاد تخلو من الفائدة والفعالية والتأثير النفسى والتربوى الصحيح على نفس الطفل، وشخصيته، فهى أساليب بالية مفعمة بالأخطاء التربوية والعيوب النفسية.. والوسائل التربوية الفعالة، عددها حوالى ست، وهى أشهر الوسائل، وإن كان هناك وسائل أخرى مؤثرة، دون شك، وفيما يلى نعيش سوياً فى عالم الوسائل الفعالة للتأديب، كما يلى :

• الالتزام بالقرار:

ما معنى «الالتزام بالقرار» ؟.. معناه - ببساطة - أنك إذا طلب ابنك منك شيئاً، أياً كان هذا الشيء، ولمّا أعطيته هذا الشيء، تراجع ابنك عن أخذه، فلابد أن تُلزم ابنك بأن يأخذ ما قد طلب أو لا يأخذ شيئاً، أقصد أنه لا يوجد بديلاً عما

طلب.. ولنأخذ مثلاً، أورده «د. يعقوب الشاروني» في كتابه الصغير المهمّ «تنمية عقل وذكاء الطفل في السنوات الأولى من عمره».. ويقول المثل أو تقول القصة ما يلي :

حول مائدة صغيرة في مطعم للسمك، جلس أب وزوجته، ومعهما ابنة في السادسة من عمرها، وابن في الرابعة من عمره.. وعندما جاء عامل المطعم، طلب الأب سمكاً، وكذا طلبت الأم سمكاً، أما الفتاة فقد طلبت دجاجاً، وترك الأب والأم للابن أن يختار، فنظر الابن ذى الأربعة أعوام ناحية أخته، وطلب دجاجاً مثلها.. وبعد دقائق عاد العامل، ووضع أمام الأم طبقاً من الأسماك، وطبقاً مثله أمام الأب، ثم وضع أمام الابنة طبقاً به دجاج، وأمام الابن طبقاً به دجاج أيضاً.. وهنا وركزٌ الصبى الصغير بصره في الطبقين أمام أبيه وأمه، ثم مد أصابع يديه، ودفع بها طبق الدجاج الذى أمامه، فأبعده عنه، وعندئذ سأله أبوه: «ماذا حدث ؟».. فردٌ عليه الابن: «أريد سمكاً مثلك أنت وماما!».

وفى هدوء سأله أبوه: «يا بنى، عندما تركناك تختار ما تريد أن تأكل، ماذا طلبت ؟» فأجاب الابن: «طلبت دجاجاً».. فسأله أبوه مرة أخرى: «وماذا أحضر لك العامل ؟».. فقال الصغير: «دجاجاً».. فقال الأب، بهدوء وبدون انفعال، ولا بدا عليه الغضب: «طالما طلبت دجاجاً، تأكل دجاجاً.. أنت طلبت شيئاً، لابد أن تأكل ما قد طلبته!».. وأخذ الأب والأم في الحديث سوياً، منشغلين عن ابنهما، وهما يتناولان في هدوء ما أمامهما من سمك.

هنا بدأ الطفل، كعادة الأطفال، في استخدام أسلحته، فارتفع صوت بكائه.. ولكن كلاً من الأب والأم لم يوجها إليه كلمة واحدة، بل وحتى لم ينظرا إليه ولو نظرة واحدة، ولم يلتفتا إليه ولو التفاتة واحدة، بل استمرا في تناول طعامهما، وكأنه لا يبكى أساساً أو كأن ابنهما ليس هو الذى يبكى، ويصرخ.. وبعد لحظات، شعر الطفل بخيبة أمله في طريقته هذه، في الضغط على والديه، فلم

تفلح طريقته، فما كان منه إلا أن توقف عن البكاء، وإن ظلت الدموع تترقرق في عينيه، وتبلل وجنتيه.. ومرت دقائق، وبدأ حوار آخر بين الأم، وابنتها، وكأن الصغير غير موجود؟.. وتلفّت الصّغير حوله في قاعة الطعام، فوجد كل من بها منهمكون في تناول الطعام، إلاّ هو، وهكذا تأكّد له أن أباه وأمه لن يخضعا لبكائه، ولن يتمكن أيضاً من إثارتهما.. وكان الجوع قد اشتد به، فمد يده في هدوء شديد، وأمسك بطبق الدجاج، وقرّبه ناحيته، وبدأ في تناول طعامه.. وانتهت المشكلة!!.

وانتهت قصة «د. يعقوب»، ولنأت الآن إلى الدروس المستفادة منها.. فالابن الطفل الصغير، ابن السنوات الأربع، تعلّم من هذا الموقف أن يفكرّ جيداً قبل أن يختار.. وطالما هو اختار، فلابد أن يتحمل نتائج اختياره.. وهذا الدرس في حياة الطفل يعلّمه كيف يفكرّ، وكيف يختار، وكيف يكون مسئولاً عن اختياره، في المستقبل أيضاً، عندما يكبر وينضج. ونلاحظ أيضاً الاتفاق التام بين الأب والأمّ، في أسلوب معالجة المواقف التربوية، فلم يكن مثلاً هناك نظرة إشفاق من الأمّ، أو كلمة احتجاج من الأخت، لمصلحة أخيها.. إنما الأسرة في هذا الموقف، أو في غيره تعوّدت على أن تتفق على أسلوب موحد، لمعالجة مختلف المواقف مع الأبناء.. وهذا بالحق درس مهم مُستفاد من القصة السابقة، وهو أن تتعلم الأسرة كيف تتفق على أسلوب تربوي واحد بلا انقسام بين أعضاء الأسرة، حتى في الرأي تجاه المواقف التربوية مع الأبناء.. فانقسام البيت في موضوع التربية يورّث الانشقاق والتفتت والخراب التربوي للأبناء.

كما نلاحظ درساً آخر رائعاً وهو أن الأب والأم تصرفا مع الصغير بدون أدنى غضب ولا انفعال، بل وحتى عندما استخدم الطفل وسائل ضغطه على والديه، بالبكاء والصراخ والحركات الانفعالية، لم يلتفت إليه أحد، لا الأب ولا الأم، وتعاملا بهدوء أيضاً، ولم يؤدّى انفعال الطفل، إلى انفعال والديه.

ولم يحدث أيضاً أن الأم، فى هذا الموقف، قالت للابن، فى «حنان قاتل»: «يا حبيبى، أنت تريد أن تأكل سمكاً؟.. حسناً.. خذ طبقى أنا يا بنى، وأنا آخذ طبقك الذى لا تريده!» أو قد يصيح الأب فى ابنه، مؤنّباً: «أنت طلبت دجاجاً، فلابد أن تأكل الدجاج».. فإذا بدأ الطفل فى البكاء، انهال على وجهه الأب بصفعات قوية، قائلاً: «ما دمتُ لا تريد أن تأكل ما طلبت، فلن تأكل.. اترك المائدة وابتعد عن هنا!».

وكلا الأسلوبين خاطئ.. فموقف الأم فى «حنانها القاتل»، يدمّر تنمية القدرة على الاختيار، وتحمُّل المسئوليّة لدى الطفل، كما يشجعه هذا الموقف من الأم، على الاستمرار فى أساليب الضغط على الأب والأم لأجل تنفيذ رغباته هوا.. وموقف الأب فى «قسوته البالغة» يحطم شخصية الطفل ويورّثه الجُبن والرّعدة، ويكون الصغير ناجحاً بأساليب ضغطه فى إثارة الأب، بل وجعل الطفل نفسه محور اهتمام الأسرة كلها، حتى ولو لم يتمُّ له تنفيذ رغبته أو طلبه.

والعجيب أن كثيراً من تصرفات الأطفال قد يكون الهدف منه إثارة اهتمام الوالدين، حتى ولو كان هذا الاهتمام فى صورة غضب أو انفعال من أحد الوالدين أو كليهما على الطفل، أو حتى عدوان منهما عليه فى صورة ضرب أو ألفاظ مهينة صعبة!.

وهناك قصة معروفة فى دنيا التربية، تحكى عن أخوين تركهما الوالدان وحدهما فى البيت، وأثناء اللعب معاً، جرح أحدهما أصبعه، فلاحظ أخوه أنه لم يبكِ، ولم يصرخ، بل لم تصدر - حتى - عنه آهة واحدة، فسأله أخوه فى عجب: «ألا يؤلمك الجُرح يا أخى؟»، فأجابه الآخر: «نعم يؤلمنى الجُرح».. فسأله الأخ فى دهشة: «ولماذا لم تبكِ إذاً؟».. وفى بساطة أجابه الأخ المُصاب: «وهل يوجد أحدٌ فى البيت يسمع لبكائى؟».. ولا تعليق!.

• تعويض الخطأ :

كأن يعتذر الطفل عما فعله من خطأ أو ما قام به من تقصير، أو تعويض عن هذا الخطأ أو ذلك.. فإذا حدث مثلاً أن كسر طفل لعبة أخيه السليمة، فليُلزم بتعويض أخيه بأن تُعْطى لعبته السليمة لأخيه أو يشترى لعبة أخرى، من مصروفه، لأخيه.. فتعويض الخطأ يعلّم الطفل كيف يدفع ثمن تهوره واندفاعه واستهتاره، وبالتالى يعلمه، فيما بعد، كيف يكون حريصاً وأميناً فى التعامل مع الأشياء عموماً، وفى التعامل مع الأشياء التى لا يملكها خصوصاً.. فتعليم الطفل أن يتحمل مسئولية أخطائه، مهم للغاية فى تقويم وفى تقوية شخصية الطفل، وتنقيتها من عيوب عدم تحمل المسئولية والاستهتار والتقصير.

ويتعلم الطفل أيضاً أن العدل له كلمته، كما أن للرحمة كلمتها ووقتها.. فها هُنا العدل يطلب حقه من الطفل فى شكل تعويض للخطأ.. فالتعويض نفسه تأكيد وتكريس لمعنى العدل والحق.. فالعدل يقول بأن من يخطئ يُعاقب، ومن يكسر شيئاً أو من يفقد شيئاً يؤدَّب بتعويض هذا الشىء.. والطفل بهذا الأسلوب التربوى المُتخذ تجاهه، يفهم ويترسخ فى داخله مفهوم حب الحق، واحترام العدل، والاحساس بالآخرين، واحترامهم، واحترام حاجياتهم، وعدم التعدى عليها، وعدم الجور ولا الظلم فيها.

• زيادة العبء :

ومن الأساليب التقويمية أيضاً، التكليف بأداء أعمال محددة، مثل تنظيم جزء من الشقة أو نقل بعض الصفحات من كتاب معين، أو تنفيذ مهمة محددة تُطلب من الطفل.. والعبء هنا يحمل سمة تدريب النفس على ما تكره أو ما لا تحب أو ما لا تقبل.. وهذا الأسلوب يؤهل الابن لأجل مواجهة أعباء الحياة، ومتطلباتها فيما بعد.. إذ الإنسان كثيراً ما يجابه فى الحياة بأمور، يفعلها ولكن

دون أن يحبها.. فزيادة الأعباء أو الواجبات على كاهل الطفل ليست فقط أسلوباً تقويمياً تأديبياً، ولكنها أيضاً أسلوباً تعليمياً، للمستقبل، فالطفل الذى تعوّد على أن يتأدّب، بهذه الوسيلة أو الأخرى، يتعوّد على احتمال الصعاب فى حياته المستقبلية، ووسيلة «زيادة العبء» على الطفل، تحمل فى طياتها تدريبه على تحمُّل أعباء حياته عندما يكبر، حيث لا يهرب منها بل يواجهها ويتحمّلها.. والخلاصة أنه عندما يجابه الحياة، لا يجبن أمامها.. وما قوة الشخصية فى جوهرها الأصيل أكثر من قوة أو قدرة على المجابهة أو المواجهة!.

• الحرمـــان:

وهى ربما أشهر وسيلة تأديبية فى دنيا التربية.. فقد تحرم طفلك من «المصروف» مثلاً أو من «رحلة» معينة، كان مزمعاً أن يقوم بها أو من مشاهدة «التليفزيون» أو من زيارة صديق ما أو من قراءة كتاب أو.. أو.. فالأساليب فى الحرمان عديدة ولا تنتهى.. والحرمان يُعلِّم الطفل ألاَّ يكرِّر الخطأ مرة أخرى، ويدرِّبه أيضاً على تقدير قيمة الأشياء المحروم منها، كوسيلة تأديبية له.. والحرمان أيضاً يُشعر الطفل بخطأه، وبنتيجة خطأه.

والحرمان لابد أن يكون «محسوباً» لا افراط فيه ولا تفريط.. فليس من الحكمة أن يكون الحرمان مُبالغاً فيه جداً، أو أن يكون قاصراً جداً.. تماماً وكأن طبيباً يعالج مريضاً، فهو يكتب له دواءً، لابد أن يتناوله المريض بمقدار معين، فإذا زاد المقدار أُضير المريض، وإذا قلَّ أُضير أيضاً، ولم يتحقق له الشفاء بالتالى!.. فالحرمان بهذا الشكل أشبه «بملح» الطعام، لابد أن ينضبط فى الطعام دون زيادة ولا نقصان.. فالآباء يتعاملون مع نفسية الطفل.. والطفل إنسان.. ونفسية الإنسان رقيقة وحساسة لا تحتمل القساوة الشديدة وإلا كانت النتيجة عكسية.. فإذا حرمت طفلك من شىء عقاباً له، فلا تزيد فترة الحرمان بشكلٍ كبير، ولا تزيد

الأشياء المحروم منها بصورة مُغالى فيها.. وأيضاً لا تقلل من الفترة أو تقلل من الأشياء جداً، بحيث لا يؤتى الحرمان آثاره وثماره فى تقويم وتجديد نفسية الطفل، وصياغة مفاهيمه وقيمه ومبادئه وشخصيته ككل.

مع التأكيد على ضرورة تنفيذ الحرمان كما قلته، وكما هددت به ابنك، دون أن تقلل منه ولا أن تُزيد عليه.. بل نفّذه مع ابنك كما هو، لكى يهاب ابنك العقوبة، ويهابك أنت شخصياً كأب بل ويهاب ويحترم السلطة الوالدية، بما يثبه هذا الاحترام فيه من قيم نبيلة!.

• العَـزْل:

العَزْل هو «عَزْل الطفل».. وهو أسلوب تربوى ناجح.. وأسلوب جديد بعض الشىء على آذان الآباء والأمهات.. فما هو العَزْل؟.. هو ابقاء الطفل فى غرفته الخاصة لمدة زمنية محددة، وحيداً دون أن يتحدث مع أحد، ودون أن يتحدث معه أحدّ.

والعزّل يحرم الطفل من سعادة الاختلاط بالآخرين لفترة محددة، حتى يُبدى ندمه وأسفه، ويقدم الاعتذار المناسب.. فالعَزْل وسيلة رادعة، تردع الطفل عن الخطأ بصورة فعالة.. وقد يكون العزّل حسب شدة الموقف.. وهذا الأسلوب يُشعر الطفل بمقدار المتعة التى فقدها بحرمانه من حبنا (أقصد: التعبير عن حبنا له، إذ الحب موجود فى كافة الأحوال)، وهو أفضل أسلوب، فى حالة تفوُّه الطفل بكلمات خارجة عن الأدب وحدود الاحترام.. وبالطبع العزّل محسوب أيضاً.. فلا يطول بحيث يحمل القساوة والاهمال، ولا يقصر فيحمل معنى التهاون.

والتربية عموماً – وهذا ما أقوله دائماً ويقوله التربويون بلا انقطاع – هى ميزان له كفتان: كفة الحب والتشجيع، وكفة الحزم والتأديب.. والكفتان لابد من توازنهما.. بلا افراط ولا تفريط.. بلا زيادة ولا نقصان.. بلا تهوين ولا

تهويل.. بجزرة وعصا.. بذهب المعزّ وسيفه.. والتوازن محسوب.. والتوازن تعادُل وعدل وتوقيت مناسب وطريقة مناسبة فى التربية.. بلا انحراف ذات اليمين بالتدليل ولا ذات اليسار بالقساوة.. والتأرجح فى «رُمّانة الميزان»، يفقد قيمة «عدالة الميزان التربوى»، وينفرط عقد التربية النفسية السديدة.

• **المقاطعة:**

وهى وسيلة فعالة أخرى، وناجحة من وسائل التقويم التربوى.. بأن تقاطع ابنك فترة زمنية محددة، فلا تكلمّه ولا تهشُّ له ولا تبتسم فى وجهه، ولا تتجاوب معه، يعنى أنّك توصّل لابنك رسالة مهمّة فحواها أو مضمونها أنّك «زعلان» منه بسبب ما فعله من خطأ، ولذا فأنت لا تكلّمه ولا تحادثه ولا تأخذه فى أحضانك كما كنت تفعل معه قبل أن يخطئ، خصوصاً أن خطأه كان فادحاً!.. والرّسالة خطيرة.. لماذا؟.. لأنَّ الطفل يفهم منها أن المقاطعة قد تجعله يخسر محبّة والديه له، واهتمامهما به، وتجاوبهما معه.

والوالدان يمثلان بالنسبة للطفل حضن الأمان، وقلع الحنان، فمعنى المقاطعة أن الأمان اهتز، والحنان تشقق!.. ومن هُنا فالتأثير النفسى والتربوى لأسلوب المقاطعة يكاد يكون أبلغ تأثير على الطفل، فى حالة خطأه.. وهذا مفيد حقاً له.. لكى يدرك ويتعلم خطورة وخطأ ما فعله، بخاصة إذا كان خطأه أو أخطائه نتيجة لعناده وتشبثه الخاطئ برأيه وتمرده على الكبار، أو تصرفه بطريقة خالية من الأدب والاحترام الواجبين عليه كابن مؤدب.

والمقاطعة - كما يقولون فى علم التربية - لابد وأن تكون «مدروسة» وليست «عشوائية».. وينطبق عليها أيضاً القاعدة النفسية الأشهر فى التربية «لا افراط ولا تفريط». فهذه الوسيلة، كما كُلُّ الوسائل التأديبية، تحتاج إلى حكمة كبيرة فى التعامل معها، لئلا يُصاب الابن بالاهمال الزائد أو الحسرة الشديدة

أو عدم الأمان الزائد، إذا ما زادت فترة المقاطعة عن الحد المعقول أو المطلوب نفسياً وتربوياً.. فكل شيء بمقدار.. وأي شيء يزيد عن حده، فمآله أن ينقلب إلى ضده، وهذه قاعدة نفسية شهيرة أخرى، وبالرغم من بساطتها، لها خطورتها التى لا تضاهى ولا تُبارَى!.

فماذا إذا اعتذر الابن وتأسف وحاول الاسترضاء؟.. الجواب أنه إذا كان قد أخطأ لأول مرة، وهو لم يأخذ قانوناً أو لم يهدَّد بعقوبة، فلا مانع عندئذٍ من أن تُفهِمَه وتعلِّمه خطأه كأب أو كمربى - ولا عقوبة آنذاك.. أما إذا أخطأ، وكان يعلم أن هذا خطأ وكان يدرى أية عقوبة ثمناً لهذا الخطأ، وكان يعى أنه إذا أخطأ فله عقوبة، فينبغى تنفيذ العقوبة المُهَدَّد بها تماماً - كما ذكرنا من قبل -.

أمّا بعد انتهاء العقوبة، وبعد اعتذاره، فلا مانع حينئذٍ بل من الواجب النفسى والأبوى تجاه الابن الذى أتم عقوبته، أن يغمره أبوه بالأحضان والقبلات والحب والعطف حتى يشعر بأهميته ويفرح برجوعه إلى دائرة حبك - كأب - أو حبك - كأم -.. ولكن الشرط شرط - يا عزيزى - لئلا تُفسد كل شيء، ويضيع التأثير أو الأثر النفسى التربوى لوسيلة «المقاطعة» كوسيلة تأديبية.. الشرط، لكى تغمره بحبك، هو أن يعتذر أولاً، بالرغم من أنه عوقب قبلاً، ويسترضيك (أى: يطلب رضاك عنه)، ويقدِّم أسفه وندمه على ما بدر منه، ولا مانع أيضاً من أن يتعهد أو يؤكد صدق نواياه بعدم إتيان هذا الخطأ فيما بعد، لأنه أدرك بما لا يدع مجالاً للتراجع أو الشك أن المقاطعة هى أصعب تأديب ممكن أن يختاره!.

عاشراً: التحكم الذاتي :

إذا سألتك ماذا يعنى مصطلح «التحكم الذاتى»، فماذا عساك أن تقول؟.. إن «التحكم الذاتى» معناه: التحكم فى الذات البشرية، بالتحكم والسيطرة على تصرفاتها وأفعالها وسلوكياتها وانفعالاتها.. ولكن كيف أتحكم فى ذاتى؟..

أتحكم فى ذاتى عن طريق أن أتحكم فى أفكارى.. فأنت ما تفكر.. وقديماً قال «ديكارت» الفيلسوف الشهير: «أنا أفكر إذاً أنا موجود»!.. فطريقة تفكيرك هى التى تُصيغ حياتك، وذاتك بكافة جوانبها.. وفى علم «البرمجة اللغوية العصبية» يوجد مبدأ يقول: «أنا مسئول عن عقلى، إذاً أنا مسئول عن نتائج أفعالى». ونحن جميعاً متساوون فى أننا نملك (١٨) مليون خلية عقلية، كل ما يلزمها هو التوجيه وحده.. التوجيه لماذا؟.. التوجيه لحُسن التعامل مع هذه الخلايا، ولحسن ترتيب طريقة التفكير من خلال هذه الخلايا العقلية، وشحذ العقل الواعى، وشحذ العقل الباطن أو اللاواعى معاً، بطريقة معينة، و «ببرمجة ذاتية ما» تُبرمج طريقة التفكير ذاتها.. وهذه البرمجة تُسمى بـ «الإتجاه الذِّهنّى».. فأى إتجاه ذهنّى فى عقلك؟.. فـ «الإتجاه الذهنى» هو «طريقة التفكير» أو «إتجاه الذهن فى التفكير».

فحياة الإنسان هى من صُنع أفكاره.. واتجاهك فى التفكير أو فى النظر هو الذى يحدد مصيرك وقبل ذلك هو الذى يحدد مسيرك ومسيرتك فى الحياة.. كقول أحد الكتاب: «أخبرنى بما يدور فى ذهن الرجل، وأنا أُخبرك وأنبئك أى رجل هو!».. فأفكارنا هى «نحن»!.. فإذا راودتنا أفكار سعيدة، غدت حياتنا سعيدة، والعكس صحيح.. ففى وسع العقل أن يخلق، وهو فى مكانة مُقيم، جحيماً فى الجنة أو نعيماً فى النار!.. فالعبرة ليست بما يحدث حولك بل بما يحدث فيك وفى ذهنك أنت.

وأعجب من ذلك، فكثيراً ما يمكن للإنسان أن يُتيح لنفسه فرصة الشفاء من شقاء المرض، إذا غيَّر إتجاهه الذهنى من المرض إلى الصحة!.. وأنت - يا عزيزى - فى امكانك أن تجتلب السعادة لنفسك، بمجرد اصطناع السعادة.. وهذا هو المعنى العميق «للإتجاه الذهنى».. فهذا الإتجاه يعنى أهم ما يعنى: السيطرة على الأفكار.. ومتى سيطرت - يا عزيزى - على أفكارك، فها أنت تسيطر على

مناحى وجوانب حياتك المختلفة.. وإن كان الله جعل الإنسان خليفته على الأرض، يسيطر عليها، فهل كثيراً عليه أن يسيطر على فكره!.

وطريقة تفكيرك تتحكم، ليس فقط فى سلوكك وتصرفاتك، بل وأيضاً فى عواطفك وأحاسيسك.. وهذا ما يقوله «وليم چيمس» (مؤسس علم النفس التطبيقى أو العملى) : «إن الذى يبدو لنا هو أن الفعل هو الذى يعقب أو يأتى بعد الاحساس، ولكن واقع الأمر عكس ذلك، فالفعل والاحساس يسيران معاً، وفى أحيان كثيرة، نجد أن الاحساس هو الذى يأتى بعد الفعل، فإذا سيطرنا على أفعالنا، سيطرنا بالتالى- على أحاسيسنا!» ..

وخذ مثلاً لتوضيح كلام «وليم چيمس».. إذا كنت - يا عزيزى - منقبض النفس، حزيناً، وطلبت منك أن تبتسم، فالأمر البديهى أنك تقول لى متعجباً: كيف أبتسم بوجهى وأنا حزين بقلبى؟.. وإذا قلتُ لك، بتشديد مُحبَّب: «افعل فِعل الابتسام، وسوف يعقبه احساس الابتسام (بمعنى: احساس السعادة بواسطة الابتسام)».. فتأكّد أنك إذا فعلت هذا، وفعلته كثيراً، وغيَّرت طريقة تفكيرك من عدم الاقتناع بفعل الابتسام، إلى الابتسام فعلاً، إذا فعلت هذا، فسوف تشعر بالسعادة.

فالطريقة التى تؤدى إلى «الاحساس» بالسعادة، هى أن تبدو كأنك سعيداً، عن طريق «فعل» السعادة بواسطة أن تفعل فعل الابتسام، وتكرر هذا الفعل، وتستمر فيه إلى أن يصبح طبيعة ثابتة فى ذاتك.. فأن تفعل السعادة، معناه أن تحسُّ بالسعادة، ولن تتمكن من أن تفعل الابتسام ما لم تقتنع أولاً بأهمية فعل الابتسام لتحقيق السعادة أو ما لم تدرك وتتيقن من تأثير الفعل على الاحساس، وليس الاحساس على الفعل.

ولعلك - يا عزيزى - تتساءل: ما أهمية الكلام عن «التحكم الذاتى».. و«الإتجاه الذهنى».. ونظرية «الفعل والإحساس» لـ «وليم چيمس»، على

موضوع تربية الأبناء وتقويمهم؟.. والجواب واضح: من أساليب التربية، استخدام هذا الأسلوب النفسى الرائع التربوى، ألا وهو «التحكم الذاتى» أو «التحكم فى النفس عن طريق طريقة التفكير». فأنت إذا نجحت فى أن تجعل ابنك ينجح فى طريقة تفكيره، واتجاهه الذهنى، تجاه موضوعات وأمور حياته، بحيث يتكون لديه اتجاهاً إيجابياً فى التفكير وإعمال الذهن بقوة، وهو ما يسمى أيضاً بـ «قوة التفكير الإيجابى»، أقول إذا نجحت، ونجح ابنك فى هذا الأمر، فأنت إذاً قد اشتريتُ ابنك من يد الفشل والضعف والخمول والضياع النفسى والمتاعب النفسية، طوال حياته، وفى مستقبل أيامه!.

وفيما يلى ندرس سوياً ملامح «التحكم الذاتى» أو كيفية أن يتحكم الإنسان فى ذاته عن طريق أفكاره واعتقاداته وعواطفه ونظرته للأشياء.. وهى ملامح تربوية فى المقام الأول، مطلوب من المربين أن يعلّموها لأبنائهم وبناتهم.. وفيما يلى أبرز هذه الملامح التربوية فى «التحكم فى الذات»، وقد اعتمدت فى ذلك على دراسة قيّمة كتبها «د. إبراهيم الفقى» فى كتابه «قوة التحكم فى الذات» :

١- النظرة إلى الأشياء:

يقول العلماء أن أعظم أداة لتغيير العالم هى قدرتنا على تغيير نظرتنا إلى العالم.. وهى نظرتنا الذهنية أو الفكرية.. والنظرة إلى الأشياء اختيار حر.. ولن ينجح الإنسان فى الاختيار الحر، ما لم يتحرر من سيطرة ذاته عليه أولاً، وقبل كل شىء.. والمقصود بـ «سيطرة الذات» أن تهيمن الذات على صاحبها، بسلبياتها ونقائصها وعيوبها، وتطغى على عناصر الإيجابية فى النفس البشرية، وتكتسح أمامها الحرية التى بها تتحكم النفس فى ذاتها، وتنقيها، وتخضعها للقيم والممارسات وطريقة النظر العقلية السليمة والإيجابية للأشياء.. يقول «أينشتين»: «تُقَدَّر القيمة الحقيقية للإنسان، بدرجة حريته من سيطرة ذاته عليه!».. فأنت تنظر

إلى الشيء نظرة خاصة، تتناسب مع طريقة تفكيرك أنت.. فالأمر فى الشيء ليس فى ذاته، بل فى موقفك أنت منه، وطريقة نظرتك إليه.

إننا نرى الأشياء عبر نفوسنا، بوابة تفكيرنا، وليس فى ذاتها.. وأبرز ما يميز بين شخص وآخر هو النظرة السليمة تجاه الأشياء، كما يقول «غاندى».. فماذا تكون الحال إذا أنت دربّت ابنك على أن ينظر نظرة عقلية سليمة إلى الأشياء فى حياته؟.. أليست هذه النظرة تجعل منه إنساناً ناضجاً مفكراً حراً فى اختياراته، وقادر على أن يختار اختيارات صحيحة؟!.

٢- الاعتقاد:

أن أتحكم فى ذاتى معناه: أن أتحكم، ليس فى نظرتى إلى الأشياء فحسب، بل أيضاً أن أتحكم فى اعتقاداتى.. فمثلاً، لكى ينجح ابنك، من الضرورى أولاً أن يعتقد أو يؤمن بأنه يستطيع أن ينجح، بجانب نظرته العقلية أو الذهنية إلى النجاح، وتفكيره فى النجاح.. فعندما يفكر ابنك فى النجاح، ويتأهل فكره للحصول على النجاح، فهذا التفكير فى النجاح لا يكفى، إذ لابد أن يعقبه أو يمتزج به الاعتقاد فى النجاح.. فما يدركه، ويؤمن به عقل الإنسان، يمكنه أن يحققه.. فللاعتقادات قوة كبيرة، فإذا استطعت أن تغيِّر اعتقادات أى شخص، فإنك من الممكن أن تجعله يفعل أى شىء.. يقول «أحد المفكرين»: «لكل اعتقاد، مجموعة قوانين مبرْمجة، على مستوى عميق فى العقل الباطن، وعلى أساس هذه القوانين يتصرف الإنسان!».. وهناك اعتقاد الإنسان عن ذاته، وهذا الاعتقاد بالتحديد هو من أقوى أنواع الاعتقادات.. والحقيقة أن كيفية اعتقادك عن ذاتك، تُزيد من قوتك لبلوغ هدفك.. وكمثال على ذلك: «محمد على كلاى»، بطل الملاكمة الأشهر، كان يقول عن نفسه: «أنا أعظم مُلاكم».. وسُئل مرة عن الشيء الذى يمكنه أن يصنع بطلاً عظيماً؟، فكان ردُّه: «لكى

تكون بطلاً، يجب أولاً أن تؤمن وتعتقد بأنك الأحسن، وإذا لم تكن الأحسن فعلاً، تظاهر وتصرّف كأنك الأحسن!».

ومن الاعتقادات المؤثرة في الإنسان: «الاعتقاد عن الماضي».. فما حدث لك في الماضي سواء أكان إيجابياً أم سلبياً يمدُّك بحصيلة من التجارب التي تؤثر في اعتقاداتك في المستقبل.. وهناك لون من الاعتقاد، وهو: «الاعتقاد في الأسباب».. وهذا الاعتقاد يتناول الدافع وراء أي موقف.. فمثلاً قد يقول شخص: «لو أصبحتُ غنياً، فمن الممكن أن أتسبَّب في فقدان عائلتي»، فهو يعتقد في أن الغنى يُسبب هذا الفقدان. وهناك «الاعتقاد عن المستقبل».. فقد يكون المستقبل عن البعض مُشرِقاً، لذا فهم يعتقدون فيه وفي أفضليته عن الحاضر والماضي.. والبعض الآخر يكونون دائمي الشكوى من المستقبل.. «وتربية الاعتقادات» مهمة من قبل الآباء لأبنائهم.. وعندما تربي ابنك على «اعتقادات جيدة وايجابية»، فهو ينشأ على هذه الاعتقادات، ولا تسوده لمّا يكبر «اعتقادات سلبية أو تشاؤمية».

قُلْ لابنك مؤكداً: «يمكنك يا بني أن تعمل ما تعتقد أنك تستطيع عمله.. ويمكنك أن تكون فقط من تعتقد أن تكونه.. ويمكنك أيضاً أن تحصل فقط على ما تعتقد أنك قادرٌ على الحصول عليه.. وهذا كُلّه يتوقف على ما تعتقده».

وبالطّبع، «تربية الاعتقادات» تظهر بوضوح في حالة تربية الصبي أكثر من تربية الطفل.. فالصبي في سن العاشرة، يكون مهيأ للتأثر ببث الاعتقادات فيه وتشكيلها لحياته.

٢- العاطفة:

عندما يكون كوبك مملوءً بالشاي، فلا يمكن أن يستوعب أكثر، فإذا استمررت في أن تصبَّ فيه أكثر، فإنّك ستُتلف الكثير من الأشياء التي حولك.. وهكذا بالنسبة للغضب، فإذا استمررتَ في غضبك وأصبح كوبك ممتلئاً إلى

آخره، فما تصبُّه فيه أكثر، يجعلك تخسر خسارة كبيرة، بالفعل.. وأيضاً إذا سمحت بالأحاسيس والعواطف أن تتقلب وتلعب بك، كالطقس، امتلأ كوبك وفاض!.. والعواطف كالمِصْعد، ترتفع وتنخفض. ولكى يتحكم الإنسان فى ذاته، لابد وأن يتحكم فى عواطفه.. فطريق «التحكم الذاتى» هو السيطرة الحسنة على العاطفة، والسيادة الصحيحة عليها.. والعاطفة ضرورية جداً فى هذا التحكم.. لماذا؟.. لأن النجاح فى الحياة، وفى كل وجه من وجوه الحياة، هو «عاطفة» قبل أن يكون «عقلاً»!.. بمعنى أن ابنك لكى ينجح فى دراسته مثلاً، لابد أن يحبَّ دراسته أو يكوِّن تجاهها عاطفة حبٍّ بل عشق.. فالنجاح هنا مؤسس على الشعور بالحب، وأيضاً النجاح مؤسس على الشعور بالسعادة.. كيف؟.. إن ابنك عندما تكون نفسيته مبتهجة وسعيدة، فعقله يتفتح ويزدهر ويقدح فى الفهم والتركيز فيما يدرسه، وأيضاً النفسية السعيدة تعمل على بث عاطفة الحب تجاه ما يدرس.. فالسعادة والحب والنجاح هى أمور متلازمة.

وبناءً على رأى «فرويد»، فأول سبب للعواطف هو: «الحب والرغبة نتيجة للحب».. فعندما يحب ابنك شيئاً ما، فهو بالتالى يرغب فى الحصول عليه أو الوصول إليه، والحب عاطفة.. والرغبة عاطفة.. وتتحقق السعادة عندما يحصل ابنك على ما أحب وما رغب.. وهنا فهذه المعانى متعاقبة، معنى وراء معنى، أو معنى يؤدى إلى معنى: الحب يؤدى إلى الرغبة، والرغبة تؤدى إلى السعادة فى حالة تحقق الشيء المرغوب والمحبوب.

أما السبب الثانى للعواطف عند «فرويد» أيضاً هو: «الخوف أو الفقدان» إذا خاف ابنك من شيء أو إذا خاف على شيء (أى: إذا خاف أن يفقد شيئاً)، فإن عواطف ابنك تتجه نحو النفور من هذا الشيء لأنه يخافه، وبالتالى يبتعد عنه بالفعل لأنه يؤلمه ولو كان إيلاماً نفسياً.. والشيء الذى يخاف منه، بالتأكيد هو شيء مكروه ومرفوض.. ولكن المشكلة تظهر فى حالة وجود خوف من شيء مهم

أو خوف وهمى من لا شيء، بحيث يتوهم ابنك أنه مضرّ أو أنه يخافه ولا يقدر على تنفيذه، وأنه فاقد الثقة فى تحقيقه.. ويندرج تحت الخوف، مشاعر القلق والتوتر وفقدان الثقة والاهتزاز النفسى والاحجام النفسى عن المحاولة وغيرها.. وهذه كلها «عواطف سلبية» لها أضرارها على شخصية الإنسان عموماً، وعلى الأبناء خصوصاً.

والنصيحة التى يقدمها علم النفس للآباء، أن يعلّموا ويدرّبوا أبنائهم على كيفية التعامل مع العواطف والمشاعر السلبية.. وتتلخص هذه الكيفية فى قانون يُسمى بـ «قانون الثلاثة»، وهو عبارة عن ثلاث عبارات متلازمة :

- لاحظ العاطفة السلبية.
- إلغِ العاطفة السلبية.
- استبدل بالعاطفة السلبية عاطفة إيجابية.

فعلّم ودرّب ابنك على أن يُلاحَظ نفسيّاً أى عاطفة سلبية لديه، وعندما يجدها، ويتأكدُ من وجودها، يعاملها وكأنها «ميكروب» أو مرض، لابد من سحقه والغائه، وهذه هى النقطة التالية وهى إلغاء العاطفة السلبية.. ولا يتوقف الأمر عند هذا الحدّ، إذ سرعان ما تجد العاطفة السلبية مكانها فى النفس شاغراً ولا تملؤه عاطفة إيجابية بديلة، فتهرع العاطفة السلبية بالعودة متنمّرة بالأكثر، ويُهدر الجهد الذى بُذل فى الغائها.. الأمر يحتاج بالتأكيد إلى عملية «استبدال».. استبدال الإيجابى بالسلبى.. فإن كانت هناك عاطفة خوف، فلتُستبدل بعاطفة شجاعة، واقدام.. وهذا هو دور التربية.. إذ يكاد يُجْمل الدور التربوى للآباء والأمهات فى هذه الكلمة المُذهلة الأخّاذة: «الاستبدال»!.

فأنت – يا عزيزى – لستَ تربّى جسد ابنك، ولا عقل ابنك بالتعليم

المدرسى فقط إنّما ابنك له نفس أيضاً، وله تفكير أيضاً.. فأين هى تربية النفس، وأين هى تربية التفكير؟!.

وإذا سألت – يا عزيزى – عن الأساليب التى من شأنها أن تولّد العواطف الإيجابية السعيدة، لقلنا لك الآتى (والأساليب هنا نفسية علمية مُجرَّبة وناجحة):

- الهدوء النفسى الداخلى، عندما يملأ الحبُّ القلب!.
- الصحة الجسمانية الجيدة، بما تولِّده من طاقة.
- العلاقات الاجتماعية الجيدة.
- تحقيق الذات، بوضع أهداف، والسعى نحوها.
- تحريك الجسد.. وهنا نتوقف لنفهم ماذا يعنى «تحريك الجسد».. فعندما يرفع شخص كتفيه، ورأسه لأعلى، ويتنفسّ بقوة، ويردّد: «أنا قوىّ»، فإن العاطفة والاحساس بالقوة يتولّد فيه.. وكذلك أيضاً، عندما تتغيّر تعبيرات الوجه، تتغيّر الاحساسات (تأثير الفعل على الاحساس – كما ذكرنا آنفاً –).. وعندما يبتسم الشخص فى موقف صعب، فهذا الابتسام يختلط بهذا الموقف السلبى، فيتغير الاحساس أصلاً بالموقف، وبالتالى ينخفض مستوى «الأدرنالين» فى الجسم، ويرتفع مستوى «الأندروفين»، وهذا «الأندروفين» كهرمون فى الجسم، يعمل على الاحساس بالسعادة والاسترخاء.

٤- النظرة إلى الآخرين:

من التربويات الجميلة أيضاً، ومن الوسائل الضرورية للتحكم فى الذات وتجديد وتغيير ذهن الأبناء، أن يعرفوا التعامل مع الآخرين، من خلال حُسْن النظر إليهم نظراً فكرياً وذهنياً سليماً.. وأؤكد عليك – يا عزيزى – أن موضوع «التحكم الذاتى» برمته يخاطب أكثر ما يخاطب الآباء والأمهات والتربوين فى تعاملهم وتربيتهم وتدريبهم للأبناء الأكثر وعياً، والأكبر سناً، بما يعلو على مرحلة

الطفولة، خصوصاً فى مرحلة المراهقة، وفى صدر هذه المرحلة، وإن كان بداية تأثير تربية «التحكم فى الذات» تبدأ غالباً من سن العاشرة لدى الصبى أو الصبية.

نعود إلى وسيلة النظرة إلى الآخرين، فيا ليت الآباء يهمسون بالآتى فى آذان وقلوب وأذهان أبنائهم :

- لا تصادق الأشخاص السلبيين.
- لا تقم بانهاء علاقة مع أحد «على خلاف» (أو «على غضب») .
- لا تفترض السوء فى العلاقة مع الآخرين.
- كُنْ مرناً فى العلاقة مع الآخرين.
- لا تتصرَّف ولا تتكلَّم مع الناس بطريقة سلبية فيها شكوى وفيها ضيق وفيها احباط.

* وضع فى ذهنك دائماً أن لكل مشكلة ثلاث وجهات نظر.. هى «وجهة نظرك» أنت.. و «وجهة نظر الآخر» ، و «وجهة النظر السليمة».. وقد تتوحَّد وجهات النظر الثلاث، وقد تختلف ويكون الاختلاف بينها بيِّن وواسع البُون.. وقد تكون وجهة نظرك خاطئة، فافتح ذهنك لوجهة نظر الآخر.. وقد يثبت خطأ الآخر، فانظر وابحث عن وجهة النظر السليمة.. وعندما تجابهك مشكلة، فليكن عندك صبرٌ وطول أناة لتبحث وتمحص فى وجهة النظر الصحيحة سواء أكانت وجهتك أنت للنظر أم وجهة نظر الشخص الآخر أم وجهة نظر أخرى.. فالعقل لابد أن يكون متفتحاً ومتقبلاً للنقاش، والتريث والتنقيب للوصول إلى الصواب والحقيقة.. وهذه صفة رائعة إذ اغُرست فى إنسان، ونمت، وترعرعت.. وروعة هذه الصفة أنها تعلِّم الأبناء عدم التشبُّث بالرأى، وعدم العناد، وتقبُّل الاختلاف فى الرأى، والتنازل عن الرأى الشخصى فى حالة خطأه!.

وعلى رأى «ابن رشد» : «رأيى صواب، يحتمل الخطأ، ورأيك خطأك يحتمل

الصواب!».. ومن القيم الحضارية فى المجتمع المتأجج تحضراً وتمدناً، قيمة الاختلاف فى الرأى، والاستعداد والتهيؤ النفسى للتنازل عن الرأى إذا ما ثبت بُطلانه.. والأمر يحتاج إلى تغليب عنصر «الموضوعية» على عنصر «الذّاتيّة».. فالنظر إلى الموضوع يختلف عن النظر إلى الذات ذاتها!.. فالموضوع هو حلٌ المشكلة أو الوصول إلى الحل الصحيح لها.. أياً كان هذا الحل طالما صحيحاً، ومن أى شخص خرج هذا الحل، طالما سليماً.. بلا قيد من «الذاتية».. «فذات الإنسان» قد تكون أشبه «بالفرامل» فى السيارة، تحد من الانطلاق من المشكلة، فـ «سجن الذات» رهيب لمن يضع نفسه بنفسه فيه!. والذات تُملى على الإنسان أو على النفس الإنسانية ألاَّ ترى سواها، ألاَّ تسمع سوى لصوتها وحدها وكأنها الحقُّ كُلُّه، والحقيقة كاملة، والمالكة الوحيدة للحقيقة المطلقة – كما يقولون فى دنيا الفلسفة – فلربما الحلُّ من آخر، لا منك أنت.. ولا من ذاتك أنت بالذات.. ليست عيباً.. فالبحث عن الصواب هو المُبتغى لا البحث عن الذات حتى وإن كانت مُفعمة بالأخطاء، وقِصر النظر، بل وأحياناً عَمَى النظر.

فضع قدمك على مكان «البنزين»، واضبط عدّاد السُّرعة على الرَّقم المطلوب، وانطلق.. وإن لم تتحرك سيارك، فتريث قليلاً وانظر حولك، فقد تكون «فرامل اليد» مرفوعة!.

حادي عشر: مفاهيم تربوية عامة:

هذه النقطة تعدُّ مفاهيم تربوية عامة، أشبه ما تكون «بالبانوراما»، أردت أن أجمعها معاً لتكون بمثابة «نقاط ضوئية خاطفة ومختصرة»، تتركزُ فى الأذهان ببساطة وسهولة ويسر.. فتعالّوا معاً نستعرض هذه المفاهيم والملامح التربوية:

١ – «الطفل يفهم، ولكن فى بطء وأناة».. فلابد أن يفهم الوالدون أن الطفل «جهاز عقلى وعاطفى» له حساسيته وذكائه، وهو يفهم ويتأثر ويمتص ما

يقال وما يحدث وما يسمع أمامه.. وهناك بعض الأمهات تعترض على هذا، بأن الطفل لن يفهم ما نقوله له، ولكن جليّة الأمر أن الطفل يحصل على خبرات كثيرة، عندما يعتاد سماع الحديث عن أسماء الأشياء التى فى محيطه، وعن وظائف تلك الأشياء، وقد ثبت علمياً أن الطفل الذى تحدّثه أمُّه، منذ اليوم الأول بعد ولادته، عن الخبرات التى يكتسبها بحواسه، يصبح فى العام الثانى والثالث من عمره أسرع كثيراً فى نمو قدراته فى التعبير عن الأشياء التى يدركها بحواسه، كما أنه يبدأ فى الكلام فى وقت مبكر، كما تتطور بسرعة قدراته على النطق السليم، وتكوين العبارات السليمة أسرع من الطفل الذى لم تتحدث إليه أمه فى فترة الرضاعة الأولى.

٢- «خبرات الطفل أشبه بالمكعبات».. وهذا حقّ، فإذا كان أمام الطفل لعبة «مكعبات»، فكلّما زادت وتنوعت خبرات الطفل التى يكتسبها من خلال حواسه، كلما استطاع أن يبنى علاقات جديدة بين الأشياء، بما يؤدّى به إلى تنمية الذكاء والقدرات العقلية، وبما يؤدّى به، مع الزمن إلى تنمية الإبداع والابتكار، والعكس صحيح فى حالة قلة خبرات أو «مكعبات» الطفل!.. والقدرة على «التخيل» جوهر تكوينها هو «القدرة على اعادة تركيب أشكال جديدة من خبرات سابقة»، والطفل الذى تزداد خبرات حواسه، تزداد معها قدرته على التخيل.

٣- «إذا نشأت الطفل على حبك واحترامك، فقد نشّأته على حب واحترام الإنسانية كلها».. فالأب بالنسبة للطفل هو الإنسانية كلها، فهو يقلده ويحاكيه فى كل شيء، فإذا قال له الأب شيئاً، فما قاله هو الصواب المطلق الذى لا يرقى إليه شك.. وإذا فعل معه شيئاً، فأفعال الأب مثالاً يحتذى بحذافيره، وكأن الأب بالنسبة للابن، فى صدر طفولته، هو كل الناس، فإذا نجح هذا الأب فى أن يحبه ابنه ويحترمه، فقد نجح فى أن يجلب لقلب ابنه

حباً واحتراماً للناس جميعاً، وللبشرية بأسرها، بلا تفريق بين أحد وأحد، وبلا تعصُّب. ولاشك أنَّ الطفل المنحرف هو وليد أبوين مُنحرفَيْن (أو أحدهما)، قد أخفقا في منحه الحب والاحترام والارشاد.

٤- «أكثر الأطفال الوحيدين ينشأون - عن قصد أو عن غير قصد - مُدلَّلون!».

٥- «القلق الشديد على صحة الطفل، ينتقل من الوالدين إلى الطفل».. وقد يفتعل الطفل مرضاً لكيما يحصل على مزيد من الحنان أو على «جرعة حنان».

٦- «سؤال: لماذا الطفل ميَّال للتخريب؟.. جواب: لأن لديه حب استطلاع، وفي نفس الوقت، ليس لدى الطفل معرفة حقيقية بقيمة الأشياء».

٧- «الطفل طاقة كبرى، تحتاج إلى وسائل لتصريفها، فلا تكبح جماح هذه الطاقة».

٨- «الحاجات الأساسية للطفل هي: الحاجة إلى الحب الأبوى.. والحاجة إلى الاحترام والتقدير والأمان.. والحاجة إلى أن يحسُّ بأنه «يُعتمد عليه» من قِبَل والديّه».

٩- «أنت ابني الأول، ولك ذات منزلة أخيك الصغير في نفسي.. وخذ أخاك الجديد، تعهده بالرعاية، وساعدنا أنا وأمك».. هذا قول تربوى سليم يقال للابن الأكبر، عندما يصبح له أخاً أصغر.

١٠- الطفل في سن الثالثة من عمره ينقلب من ملاك إلى شيطان: أناني.. عدواني.. مُحطِّم لكل شيء يقع في يده.. يتصرف بوحى من غرائزه البدائية.. والحلُّ هو: الحكمة لا العُنف.. الحزم لا القساوة.. التفاهم لا الأوامر.. التوازن الانفعالي لا اظهار انفعالات الغضب أو القلق أو الخوف الشديد عليه!.

١١- «لا تعارض بين التربية والتشجيع».. فليس معنى التشجيع أن نتوقف عن بيان الخطأ والصواب للطفل، بل على المُربى أن ينبه الطفل، فى كل مرة، إلى ما ارتكبه من خطأ، والمهم هنا هو الطريقة التى يبين بها المُربى خطأ الطفل، فالطفل عادة لا يقصد أن يرتكب الخطأ، ولكنه لا يزال فى مرحلة يتعرف فيها على الخطأ والصواب، خصوصاً فى مرحلة الطفولة المبكرة، وعلينا أن نعرِّفه الفرق بين الخطأ والصواب، بأسلوب يجعله فى المستقبل حريصاً على تجنُّب ارتكاب الخطأ، ومتشجعاً على فِعل الصواب، وذلك بأن نقدِّم له التوجيه السليم من خلال التشجيع، بغير انفعال ولا عصبية ولا توجيه اهانات ولا ضرب له!.



الوحدة الرابعة

سيكولوجية الأسرة

الوحدة الرابعة
سيكولوچية الأسرة

أولاً: معنى الأسرة:

وصلنا الآن إلى الوحدة الرابعة بعدما ارتحلنا سوياً فى رحلة نفسية تربوية عبر وحدات ثلاث من كتابنا، فالوحدة الأولى تحدثنا فيها عن سيكولوچية الرجل والمرأة، والوحدة الثانية عن علاقة الرجل والمرأة (فى الزواج)، والوحدة الثالثة عن فن تربية الأبناء، وهنا فى الوحدة الرابعة نبحر سوياً فى سيكولوچية الأسرة بمفاهيمها الأسرية والتربوية والحياتية.

ولتكن هذه الوحدة الرابعة «رابط» للوحدات الثلاث السابقة من الكتاب.. ولنبدأ بمعنى الأسرة.. ما هى الأسرة؟.

الأسرة هى كيان نفسى اجتماعى «يصنع» القيم، ويثب هذه القيم فى أفراد الأسرة.. وما المجتمع سوى مجموعة أسر.. وما الأفراد فى المجتمع إلا خارجين من أسر.. فالأسرة هى نواة المجتمع والحياة.. والأسرة هى مجتمع صغير، تتشكل فيه أفكار وشخصيات وعواطف أفرادها.. وهذا التشكُّل هو نواة تشكُّل المجتمعات. وليس هذا كلاماً نظرياً إنشائياً نسوِّد به الصفحات، ولكنها الحقيقة التى إن تغافل عنها المجتمع، ضاعت ملامحه، وانهارت قيمه.

فأنت - يا عزيزى - «مُلخَّص» لأسرتك، و«فيرس» لأسرتك.. أنت تمتص شعورياً ولا شعورياً من أبيك وأمك وإخوتك وأقاربك وأجدادك و.. و.. فأنت تمتص إذاً أسرتك، وتستوعب قيمها وتقاليدها، وعندما تخرج إلى المجتمع تبثُ هذه القيم فى هذا المجتمع.. والسؤال هو: ماذا إذا كانت القيم التى امتصها الإنسان فى أسرته قيماً سيئة أو مغلوطة أو قمئية؟!.. أليس فى هذا إفساد

للمجتمع ونشر الفساد فيه؟!.. فماذا إذا كانت هناك أسر عديدة هكذا؟.. أليست النتيجة سواد الشرور فى المجتمعات.. وهذا ما نراه كثيراً ونسمع عنه فى مجتمعات ومجتمعات فى بلادنا وفى بلاد غيرنا.. فالأسرة هى «حجر الزاوية» فى بناء المجتمع الناضج الصحيح.. وأفراد الأسرة هم «لَبِنَات» هذا البناء الشامخ.. والأسرة هى «مصنع» المجتمع و «مصنع» أفراد المجتمع.. وإن كان للمجتمع بتأثيراته المختلفة المتنوعة كيانه فى مقابل الأسرة بتأثيرها على المجتمع، فالحقُّ يُقال أن للأسرة تأثير يفوق تأثير المجتمع!.

وعندما نقول لفظة «الأسرة» فنحن نقول لفظة «التربية الأسرية» و «الجو الأسرى».. فما تغرسه هذه التربية فى نفوس أبنائها وبناتها هو الذى يشكل ويؤسِّس شخصيات ونفسيات أفراد الأسرة من بنين وبنات.. والمثل البسيط العميق معاً يقول لنا إنَّ التربية فى الصِّغر كالنقش على الحجر، وكذلك التعليم فى الصِّغر كالحفر على الحجر أيضاً.. «فالاسفنجة» تمتص ما توضع فيه.. و «اسفنجة الشخصية الإنسانية» تمتص «التربية الأسرية» بالقدوة.. بالإيجاء.. بالتوجيه.. بالتعليم.. بالتدريب.. بالحبِّ.. بالعواطف الأسرية.. بالحزم.

والأسرة منشأها الزواج بالطبْع.. وقد قال أحد المفكرين فى تعريف الزواج «الصانع» للأسرة: «الزواج هو مِلاحة صعبة تحتاج إلى كُلِّ فنون المهارة والمِلاحة فى بحر الحياة.. إنَّها ملاحة فى مركب أو سفينة!».

وللسفينة ربانها.. وللأسرة قادتها من أب وأم.. ولابد للقيادة أن تكون حكيمة وقويَّة وفعَّالة وإلاَّ غرقت السفينة وضاع رُكَّابها!.

ومن التشبيهات البديعة للأسرة أنها أشبه بالكرمة (أو تكعيبة العنب).. فما هى الكرمة؟.. الكرمة هى أغصان بها عناقيد العنب، وهذه الأغصان مُلقاة على بعضها البعض.. وأيضاً ملقاة على التكعيبة الخشبية الثابتة.. ويمكنك – يا عزيزى – أن تتصور الأبناء والبنات فى الأسرة وكأنهم أغصان حية مُلقاة على

التكعيبة الثابتة.. وما التكعيبة الثابتة سوى الأب والأم.. أمّا لماذا لابد أن تكون التكعيبة ثابتة؟.. لأنّ ثبات الأب والأم في القدوة وفي التربية - هذا الثبات هو أساس قيام ووجود وقوّة ونماء أغصانهم البشرية من أبناء وبنات.

والحكمة تقول أن العُشب لا ينبت على حجر مُتدحرج؟.. لابد أن يكون الحجر ثابت.. ولابد أن تكون الأرض غير مهتزّة بل مستقرة.. ولابد أن تكون التربة جيدة، والتهوية حسنة.. وعوامل النماء والانماء طيبة حتى تنغرس النباتات البشرية من بنين وبنات غرساً مثمراً ناضجاً نامياً. الزواج إذاً هو «أرضيّة ثابتة».. وأي اهتزاز في هذه الأرضية يورّث زلازل مدمّرة لحياة الأغصان أو النباتات البشرية!.

و«كرمة الزواج»، غذاؤها الحب، وهي تعمل على «صيانة الحب» بين أفراد الأسرة. و«كرامة الزواج» هو القلب المفتوح على كل عضو في الأسرة صغرت كانت أم كبُرت.. فالحب يفتح القلوب على القلوب، والعقول على العقول، ويصنع في داخل القلوب والعقول فراديس وجنات فيحاء لها أزهارها وثمارها وينابيعها الحُلوة العذبة!.

وللحب في الأسرة قونينه وملامحه الرائعة التي بدونها تهدم التكعيبة الأسرية ويسقط البناء.. وإليك - عزيز القارئ - بعض أو أهم هذه القوانين «الحبيّة» :

١- الحبُ ليس «شطيطة» :

وإذا سألتني عن معنى كلمة «شطيطة» لقلت لك أنّها كلمة عاميّة ولكنّها معبّرة جداً، «فالشطيطة» جاءت من «شط الكبريت» فأنت عندما «تشط» أو تشعل عود ثقاب أو «كبريت»، فإن العود يشتعل، ويظل هذا مُشتعلاً، لفترة زمنية قليلة، تأكل خلالها النار «نار الشطيطة» العود إلى أن ينتهي ويتآكل وينطفئ!. فهل الحب في الأسرة هكذا؟.. أو هل هذا هو المعنى المطلوب للحب الأسرى

السائد بين الأب والأم، وبينهما وأبنائهما؟.. أعتقد أنك توافقنى على رفض هذا المعنى «الشاطط» من الحب «الشطيطة».. فالحب الذى يبرد لا يبنى بيتاً ولا يصمد أمام واقع حياة.. بل هو عاطفة وليس حباً فى أساسه.. وهو عاطفة طفولية أنانية تشتعل ثم تنطفئ.. وكمثال لذلك أن يعلن أحدهم أنه يحب امرأة جداً جداً، وعندما يتزوجها، فإنه بعد فترة من زواجه بها يُمعن فى إهانتها وإيقاع الأذى النفسى وأحياناً البدنى بها.. فهل هذا حب حقيقى؟.. وهل هذا حب يُروى الأغصان أم يخنق الكل؟!.

الحب – يا عزيزى – هو حب مستقر لا يسقط أبداً.. الحب نبراس أو مصباح يضئ سبيل أعضاء الأسرة، بخاصة الأب والأم (الزوج والزوجة معاً).. الحب غذاء للجميع. فهو لا يتغير مهما تغيرت الظروف، ومهما جدّت الظروف.. هو راسخ رسوخ جنادل النيل!.. الحب ليس «شطيطة» تشتعل ثم يخبو حتى تنطفئ بل هو اشتعال دائم، كنار لا تعرف طريقها إلى الانطفاء!.

٢- الحبُ «خزّان»:

ما المعنى؟.. إنّ الحبُّ عبارة عن «خزّان مياه».. فما هى هذه المياه؟.. هى مياه الصّدق والأخلاق العُليا والأمانة وصدق النوايا والمبادئ القويمة والتسامح واحتمال الآخر.. فمن أين للحب أن ينمو بدون مياه؟.. وكيف للحب أن ينتعش بدون ينابيع؟.. وأيضاً هى مياه المشاركة والتعاون والمودّة المشتركة التى تسود أعضاء الأسرة.. ومعين الحب لا ينضب.. فمعنى أنّ الحبّ «خزّان» أنه يتجدد باستمرار فى مياهه.. وهى نفس فكرة «المحبة لا تسقط أبداً».. وحتى إن كانت هناك هموم ومشاكل وعقبات فى الزواج، وفى الأسرة، فمياه الحب قادرة على إغراقها تماماً.

حتى إن كان هناك مرض لدى الزوجة مثلاً..؟.. نعم.. فالمحبّة هنا أقوى من

المرض، وتعلو على الألم.. فالزوج الأمين لا يتخلى عن زوجته المريضة ولا يتزوج عليها.. وإلا كان ليس أميناً فى حبه لها.. فهل من الحب فى شىء أن أظل معى زوجتى طالما هى فى صحة جيدة وجميلة ومُريحة ومُشبعة لاحتياجاتى كزوج، ثم ما إن تمرض مرضاً شديداً أو يتبدَّل جمالها أو تضعف صحتها أو لم تعد مُشبعة لى كما فى الأوَّل، حتى أطلقها أو أهجرها أو أتركها؟.. إذا فعلتُ هذا كزوج، فأنا إنَّما أضرب المحبَّة فى مقتل، وأهزم الحبَّ شر هزيمة.. فالمحبَّة لا تنتهى.. لا تتغيَّر.. لا تتبدَّل.. لا تنطفئ، وإن كانت تطفئ نيران وسعير المعوِّقات أيّاً كانت فى طريق الأسرة والزواج!.

٣- الحب عطاء:

إذ لا ينبنى البيت السعيد الأصيل على فكر «الأخذ فقط» بل على فكر «العطاء الدائم».. فالحب بهذا المعنى ليس نظرياً وليس مجرد مشاعر طيبة ولا أحاسيس لطيفة ولا مشاركة وجدانية فحسب بل مشاركة حياتية فعلية.. فالحب ليس كلاماً بل عملاً.. والعطاء اسعاد وسعادة.. أن تُسعد كزوج زوجتك وأبنائك.. وأن تُسعدى كزوجة زوجك وأبنائك.. هذا هو «الاسعاد».. ولا اسعاد بلا حب.. ولا اسعاد بلا عطاء وبذل.. فإذا أردت أن تعرِّف معنى الحب، يمكنك أن تعرِّفه بالآتى: «الحبُّ هو فن إسعاد وسعادة».. وطالما أنا أسعدت الآخر، فأنا أُسعد نفسى مع الآخر وبسبب الآخر!.. هذه قاعدة نفسية خطيرة.. «فالإسعاد سعادة».. والعطاء هو عطاء للآخر، وفى ذات الوقت عطاء للنفس!.

لماذا؟.. لأنَّ فى العطاء خروج من سجن الأنا أو الذات، ودخول فى دنيا الآخر أو الأنت.. وهكذا الله خلق الإنسان.. هذه هى تركيبته النفسية والجوهرية التى جُبِلَ عليها الإنسان: أن يعطى قبل أن يأخذ بل وفى أحيان أخرى دون أن يأخذ.

وليس هذا كلاماً من قُبيل الرومانسية النظرية بل هى حقائق نفسية واقعية، من اختبرها أشاد بها ودافع عنها وعاش فى رحابها الظليل.. إذ عبثاً تمتد الأيدى لتأخذ وتأخذ دون أن تعطى وتعطى. وعبثاً أن تنقبض الأيدى على ما أخذت، وتلتهم ما أخذت، وهى فى مظان الأوهام أن «ما آكله» أو ما آخذه ينمينى ويقوِّينى، غير عارفة أو غير موقنة بالحقيقة اليقينية أن الأيدى عندما تنبسط تعلو وتعلو وعندما تنفتح على الآخر، تزكو وتزكو دون أن تنتقص.. وتزداد كرامتها دون أن تنحّط أو تنحدر!.

ثانياً: سمات الأسرة:

للأسرة الناجحة الناجعة سماتها وخصائصها المتميزة التى تصنع نجاحها، وسويتها.. وما يأتى ليس هو كل سمات وخصائص الأسرة الناجحة، ولكنه بعض سمات وملامح الأسرة.. وهاك هذه الملامح الرئيسية، ولتكن ملامح ثلاثة :

١- الترابط:

وهذا هو الترابط الأسرى المطلوب وجوده بين أفراد الأسرة.. وما هو معنى «الترابط» ؟.. الترابط ببساطة – هو التوافق والتلاحم ما بين أفراد الأسرة حول هدف واحد وإحساس واحد وفكر واحد.. وهذه الوحدويّة فى الهدف والإحساس والفكر هى التى تجعل هناك ترابط حقيقى بين القلوب والعقول والنفوس.. ولكى يتأكد الترابط لابد له من التعبير اللفظى والحياتى عما يسكن القلوب والعقول والنفوس.

فهل من اللائق أن تكون كلمات الحب المنهمرة من الخطيب إلى خطيبته، تكاد تتوقف فى الزواج، ويحل محلها «السكتة الزوجية» أو «الصمت الأسرى» ؟.. إنَّ التعبير باللفظ أو التعبير بالكلمة الطيبة أساسى فى الحياة الزوجية.. فهو يشعر الزوجة بالأمان وبالحنان، ويشعر الزوج برجولته ومسئوليته عن زوجته بشكل فيه من الحب والمودة الكثير والكثير.

ومن القصص العجيبة التى تُحكى فى هذا السياق، دعوى قضائية أقامتها زوجة ضد زوجها، تطلب فيها الطلاق، ولما سألها القاضى عن سبب طلبها للطلاق، قالت له: «لأنه لم يقلْ لى أحبك إلاَّ مَرة واحدة خلال ٤٠ سنة زواج!.. ولما سأل القاضى الزوج عن الأمر، تعجَّب الزوج، ورد على القاضى بقوله: «أنا قلت لها مرَّة واحدة، صحيح، فى بداية الزواج أنَّنى أحبها، ولكنى لم أغير رأيى حتى الآن، ويجب عليها أن تفهم ذلك؟».

عجباص «يجب عليها أن تفهم ذلك» .. كيف يا عزيزى الزوج؟.. أين هى فكرة «صيانة الحب الزيجى»، واستمراره وريِّه.. فالحب فى الزواج، والحب - بالتالى - الذى يظلل على الأسرة كلها يجب أن يكون نامياً مَرْوِيّاً، كما تروى النبات وتعتنى به وتنقىً علائقه وشوائبه وتنميه وتثمره.. فليس الزواج - على رأى أحدهم - «ماضى» بل «حاضر مستمر» أو قُلْ هو «ماضى مستمر ومتجدد دائماً».

والترابط الأسرى يحتاج إلى «روح الشركة» ما بين أفراد الأسرة.. وما المقصود «بروح الشركة» سوى «روح الشراكة»: أن يشترك الجميع فى محبة واحدة وقيم واحدة ومسئوليات واحدة.. فما أبدع أن يكون كُلُّ عضو فى الأسرة بمثابة «لبنة» فى البناء الأسرى.. ولكل «لبنة» أو عضو دوره فى إيناع ثمار الأسرة.. وهذا ما يُسمَّى «بتقسيم الأدوار» بين أفراد أو أعضاء الأسرة.. ولكلٍّ مسئولية داخل إطار روح الأسرة.. فما أبدع أن يُرَبِّىَ الأب والأم أبنائهما وبناتهما على تحمُّل المسئولية منذ الصِّغر، بشكل تدريجىّ متناسَب مع أعمارهم طبعاً.. فأولادنا وبناتنا ليسوا «تنابلة السُّلطان» - كما يُقال - فالآباء والأمهات يخدمونهم بلا أى مشاركة من الأولاد والبنات، فأين تعليم الأبناء والبنات روح المسئولية والانتماء الأسرى والمشاركة والشراكة فى الأسرة إذاً؟!.. وكيف يتحقق

الترابط الأسرى، وكُلٌ من بالأسرة «كجزيرة منعزلة» عن الآخر.. بل حتى تناول الطعام معاً لا يتحقق معاً!.

إن البيت السليم الصحى نفسياً واجتماعياً هو بيت «مشحون».. «مشحون» بماذا؟.. «مشحون» بالإبتسام والإتضاع والبشاشة والفرح.. والفرح قوّة – كما هو معروف – ولا يستطع أحد أن ينجح ويبدع فى أى شىء إلا بالقوة.. ولا قوة تبتعد عن الفرح.. والفرح سعادة وإبتسام وبشاشة.. ومن الأمور المؤلمة ما قاله أحد الشباب لصديقه: «إن بيتنا كئيب!».. فهل وسط الكآبة يمكن أن يتم ترابط أسرى أو تمازج عاطفى وذهنى بين أفراد أسرة؟.. لا أعتقد.

كتب «ديل كارينجى»: «إن تعبيرات الوجه تتكلم بصوت أعمق أثراً من اللسان.. وكأن الإبتسامة تقول لك عن صاحبها: إنى أحبك.. إنى سعيد برؤيتك. وهذا هو السبب فى أن الكلاب تنجح نجاحاً باهراً فى اكتساب الأصدقاء. فهى لا تنطق بشيء، ولكنها تعبر عن سرورها برؤية أصدقائها أو أصحابها خير تعبيراً.. ولستُ أقصد بالإبتسامة مجرد علامة ترتسم على الشفتين بلا روح ولا صدق. كلاَّ.. فهى بهذا الشكل لا تنطلى (ولا تخيل) على أحد.. وإنما أقصد الإبتسامة الحقيقية التى تأتى من أعماق نفسك!».

فعندما يبتسم الزوج لزوجته، إنّما هو يهديها هدية نفسية ومعنوية أفضل وأفعل أثراً من أفضل هدية مادية غالية!.. فالمرأة كتلة مشاعر وعواطف، لا تُخترق ولا يؤثر فيها أكثر من طاقات الحب المُفرح المبتسم البشوش المتواضع!.. وعندما يجد الأبناء والبنات روح الإبتسام مرفرف على الأب والأم، فإنهم يتأثرون وينساب إليهم روح الفرح والمرح تلقائياً ولا شعورياً.. فالجو عندما يسخن، يسخن جسد الإنسان.. وعندما يستحم الإنسان فى البحر، يبتل جسده بالمياه.. وهكذا أيضاً من يعيش فى جو الفرح، يمتلئ فرحاً، ومن يستحم فى مياه الإبتسامة، يمتلئ إبتساماً وبهجة قلب!.. بل وحتى فى إطار العمل والتجارة توجد حكمة صينية شهيرة

تقول: «إنَّ الرجل الذى لا يعرف كيف يبتسم، لا ينبغى له أن يفتح متجراً!» وإلا كان منفرداً للناس «للزبائن».. فالناس لكى تفتح قلوبها لك، لابد أن تعرف مفتاح هذه القلوب.. والمفتاح هو الإبتسامة.. والإبتسامة تمهيد لقبول الناس لك ولكلامك ولأفعالك.

والترابط المفرح بين الأب والأم يصنع الترابط الأخوى بين الأبناء معاً.. ومن الحكايات اللطيفة التى تُحكى فى هذا الإطار، حكاية قديمة عن شخص «فكهانى» فقير متجوِّل، كان له أخ غنياً ولكنه طمَّاعاً، وحدث أنَّ سيدة من «زبائنه» رقَّت لحاله، فأعطته، ذات يوم ثوباً جديداً ليلبسه بدلاً من «جلابيته» القديمة البالية التى يلبسها، وبعد حين، وجدته يجول بفاكهته، فى نفس «جلابيته» القديمة البالية، فتعجبت منه، ونادته وقالت له: «ألم أعطك ثوباً جديداً لتلبسه بدلاً من جلابيتك القديمة، فأين هو؟».. قال لها: «أعطيته لأخى».. فازداد تعجبها، وصرخت فى وجهه: «ولكن أخاك غنياً، وليس فى حاجة إلى ثوبك!».. فلم ينتظر الرجل «الفكهانى» البسيط أن تُزاد كلمة بل قال متوجعاً: «ايه.. يبقى أخوىْ، ابن أمى وأبوىْ، يعوز توبى (أو ثوبى) وأجوله لا؟!».

والقوة هنا فى عبارة «ابن أمى وأبوى».. فلولا الانتماء المزروع فى قلبى الأخيّن، ما استطاع الأخ «الفكهانى» أن يعطى لأخيه.. والانتماء ترابط أسرى.. والترابط حبٌ.. والحب شركة وشراكة.

ومن الأمهات من تفشل فى الترابط والتوافق مع زوج أنانىّ، فتقوم بتقوية علاقتها وترابطها مع أبنائها أكثر من علاقتهم بزوجها، أبيهم الأنانىّ.. وهى بذلك تسعى إلى تقطيع الخيوط بين الأبناء وأبيهم تباعاً.. فهل ما تفعله الأم صواب؟.. بالطبع لأ.. لماذا؟.. لأنها بذلك تحاول أن تجد كيانها فى أبنائها، وتعمل على أن يعوِّضها أبناؤُها عن زوجها الذى هو فى حُكم «المفقود نفسياً» بالنسبة لها..

والحل؟.. الحل هو أن تقدّم الزوجة مزيداً من الحب للزوج الأنانيّ، وتبحث عن الجوانب المضيئة فى شخصية ونفسية الأب والزوج هذا.. إذ أنّ الحقيقة النفسية تقول لنا أنّ كثير من الأنانيين، كانوا أشخاصاً غير محبوبين أو كانوا مدلّلين جداً، وهم صغار.. والنتيجة هى: الترابط المتوازن بين الأب والأم وأبنائهما!.

٢- التفاهم:

إذا سألتُك ما الفرق بين «التفاهم» و «التفهُّم»، فماذا أنت بقائل؟.. هناك فرق.. «فالتفاهم» يعنى أن أوصّل إليك علاقتى معك، وأن أتواصل معك، وأن أوصّل إليك أنّنى أفهمك وأتفاعل معك.. «فالتفاهم» هو التفاعل مع الآخر.. أمّا «التفهُّم» فهو مجرد أن أفهمك وأستوعب ماذا تعنى وماذا تقصد وماذا تشعر وماذا تفكر وماذا وماذا.. «فالتفهُّم» سلبى، و «التفاهم» إيجابىّ.. «فالتفهُّم» مجرد أن أفهمك، بشكل سلبىّ، ولا أفعل أكثر من ذلك، بلا علاقة ولا تواصل بيننا.. ولكن «التفاهم» أن نتحاور معاً، وأن أبذل جهداً فى الوصول والتواصل معه، وهذا شكل إيجابىّ فى العلاقة مع الآخر.

والزواج وعالم الأسرة هو عالم يظلّله «التفهُّم» و «التفاهم».. بين أعضاء الأسرة.. بين أفراد هذا الجسد الواحد المتلاحم معاً المُسمّى «بالكيان الأُسَرِىّ».. وكُلٌّ من «التفهُّم» و «التفاهم» يحتاج إلى التريُّث وطولة الأناة (أى: طول البال) وإلى التفاهم «بالعقل» لا «بالعضلات».. باللطف لا بالعنف.. بالخدمة المُحبة بين الجميع لا بالقهر والتجبُّر.. بالتفاهم لا بالضغط والإرهاب.. وبالألفاظ المتفاهمة لا بالألفاظ الجارحة الحادّة.. والتفاهم «تعاطف» بمعنى: الإحساس بالآخر، ووضع النفس موضع الآخر.. وحقيقة فكرة «وضع النفس موضع الآخر» هى فكرة مُدهشة وناجحة فى النجاح الأسرىّ.. وهذه مهارة اجتماعية نحتاجها جداً فى حياتنا الأسرية.

و «التعـاطف» يختلف عن «العطف»، فـالأول سليم وصـحيح وصـحى ومطلوب بين أعضاء الأسرة، أما الثانى «العطف» فهـو يحمل معنى «الفـوقية» والتعالى، دون التواضع والإحساس بالمساواة، وكأننا «بالعطف» نتفضل ونتعطف على الآخر ونُلقى إليه «بفتات مشاعرنا».. وكأنّ الآخر يشحذ منّا عواطفنا.. فهل هذه علاقة ناجحة فى الأسرة؟.. أن تتبنى الأسرة على علاقة «العطف» هذه؟.. بالطبع لا.

والتعاطف أيضاً معناه: محاولات مستمرة ودؤوب لأجل إزالة أى حاجز أو عائق يمكن أن يقام بين أى فرد أو عضو وبين أى فرد أو عضو آخر فى الأسرة.. فنحن – يا أعزائى – لسنا جزراً منفصلة فى أسرنا.. منفردين.. منعزلين.. متقولبين.. متعجرين، وكأننا مجموعة من الزّلط الملوّن متراص متجاور بلا تداخل ولا تفاعل ولا تمازج ولا اختلاط. ألسنا بشراً؟.. ألسنا أحياء لا جمادات؟.. ألسنا عاطفيون لا عقلانيون (جامدون) ؟.. والفرق بيّن ما بين «العقلانيّة»، و«التعقُّل»!.

فالعقلانية فيها إنكار للعاطفية وللرومانسية وللحب الباذل المعطاء فى الأسرة، وكأنّ لسان حال العقلانية، يقول: «أين مصلحتى؟».. فالعقلانية جمود وتجلّط ذهنى ونفسى وأنانية شديدة.. وكأن القلب يختبئ ويختفى فى العقل، ويتوحّد معه ويتلاشى فيه، ويصبح القلب عقلاً أو يزداد العقل عقلاً.. تلك هى العقلانية.. أما التعَقّل فإنما هو الحكمة العاقلة المتوازنة التى توازن ما بين العقل والعاطفة.. والحب والحزم.. والتعاطف والمودة والقوة المطلوبة لقيادة وتسيير بل وتيسير أمور الأُسرة.

و «التعهُّد الزّيجىّ» هو تعهُّد بالتفاهم بين الزوجين، بما ينعكس على الأولاد والبنات فى منظومة نفسية واجتماعية متزنة وناجحة.

والتفاهم أيضاً يكرّس أسلوب الحوار والمواجهة المتزنة والمناقشة الحكيمة بين أفراد الأسرة.. والحوار حوار قلب قبل أن يكون حوار اللفظ والكلمة.. فالإحساس الوجدانى هو أساس الحوار اللفظى – وبند أو سمة الحوار فى الأسرة سأفرد له نقطة مستقلة لأهميته البالغة فى حياة الأسرة –.

٣- الحوار:

الحوار فن، لا أكثر ولا أقل.. ولكنه فن، كأى فن، له أصوله وقواعده بل وقوانينه.. وخلاصة فن الحوار، عبارة حكيمة تقول: «هلُمّ نتحاجج»!.. والمعنى أن الحوار فيه حُجّة مقابل حُجّة واقتناع مقابل اقتناع، وأخذ وعطاء.. فأنا أعرض وجهة نظرى، وأنت تعرض وجهة نظرك.. ونتناقش ونتحاور.. وإذا سادت الكلمات الخاطئة على الحوار، تحوّل الحوار إلى ميدان صراع وعراك، وليس مناقشة وتقارب وتلاقى.. ومن الكلمات الحكيمة القول الآتى: «إنّ الكلمات الشريدة تحوّل الناس الأخيار إلى أشرار، بينما الكلمات الطيبة تحوّل الناس الأشرار إلى أخيار».. وكأنّ حياة الإنسان تكاد يتوقف نجاحها أو فشلها على لسانه هو..

والحقيقة أن اللسان ليس وحده هو المنوط به النجاح فى فن الحوار، إنما أوّلاً توجد الأذن.. فما أحلى، وما أجدى أن تمتلك – يا عزيزى – أذناً مُصغية، وأن تجيد فناً هو فن بليغ جدّاً، وهو فن الإستماع والانصات..

ولا يتساوى «السماع» مع «الاستماع».. هناك فرق إذاً.. فالسماع ليس أكثر من مجرد وقع الكلام على الأذن بلا اهتمام ولا تركيز ولا أذن مفتوحة ولا عقل مفتوحة ولا قلب مفتوح.. إنما هو سماع تلقائى فحسب.. أما الاستماع فهو عكس أو غير ذلك.

ففى الاستماع وحُسن الانصات، جهد وتركيز وتفاعل ومتابعة جيدة مع المتكلّم.. والحقيقة أن المستمع الجيد شخص رائع بالنسبة للمتكلّم لدرجة أن

المتكلّم عندما يتكلّم مع مستمع جيد، يقول عنه: «إنّه مُحاور جيد. إنُه مُجيد لفن الحوار!» بالرغم من أنّ المستمع الجيد لم يتكلّم بل استمع وكفى.. ولكن هذا الاستماع صنع حالة إيجابية مُريحة فى نفس المتكلم لدرجة أنه إعتبر صمت المستمع أبلغ حوار معه!.. كما أن المُستمع الجيد يشجّع المتكلم على البَوْح و«الفضفضة» – كما يقولون – بشكل حرّ، وبلا تكلُّف، وكأنه يحادث نفسه، وكأنه يرى صورته فى مرآة من يحدثه.. وما أبدع أن يكون المستمع مبتسماً ولو من حين لآخر، وهو يستمع إلى المتكلم.. فالإبتسامة تشجيع على استمرار واستطالة الحوار، واستحسان بالأُلفة مع المتكلّم..

وكما ترى – يا عزيزى – فإن صفات المستمع الجيد ليست سهلة.. لماذا؟.. لأنها تتطلب منه خروجاً من ذاته إلى ذات المتكلم، ليتفاعل معه ويضع نفسه موضعه!.. كما أن استمرار التركيز وطريقة الاستماع وتصوير إحساس التشجيع للمتكلّم.. كُلُّ هذه الأمور تحتاج إلى بذل جهد، وحب، ومودة، ودفء عاطفى متدفق، حتى دون كلام من المستمع إلى المُتكلّم.. ألم يخلق الله للإنسان أذنين ولسان واحد، لكى يستمع أكثر مما يتكلّم؟!.

وإن كان الإنسان فى حوار مع الله بالدعاء والصلاة، فما بالك – يا عزيزى – بالحوار بين الإنسان والإنسان، خصوصاً الحوار بين الزوج والزوجة والأبناء والبنات. وإن كان جسد الإنسان فى حوار دائم بين أعضاء هذا الجسد.. هو حوار غير مسموع.. وهذا الحوار الصامت هو الذى يجعل من الجسد «وحدة واحدة».. والحوار بين أعضاء الجسد هو «حوار توافق أعضاء الجسد».. فاليد فى حركة مع القدم، والجذع فى حركة مع الأصابع، وأجهزة الجسم الداخلية فى حوار دائم ودائب مع بعضها البعض بلا إنقسام ولا تجزئة ولا تفتت بل فى «هارونى موسيقى داخلىّ مُذهل».. أقول إذا كان الجسم هكذا بأعضائه، فالأولى أعضاء جسم الأسرة: الأب والأم والأبناء والبنات.. ألسنا نطلق على كُلّ فرد فى

الأسرة لقب «عضو» فى الأسرة.. و «العضوية» تتعلق فى أساسها وأصولها بالجسم البشرى بأعضائه الجسدية!.

وهناك ثلاث قواعد مشهورة جداً فى علم العلاقات الإنسانية أو البرجمة العصبية، وبالطبع هذه القواعد متعلقة بالحوار :

القاعدة الأولى: انصت.. والثانية: اسأل.. والثالثة: لا تقاطع!.

فالقاعدة الأولى أن ينصت الإنسان إلى الآخر بأذن مُصغية محبة.. وهذا هو «فن الإصغاء» - كما سبق وشرحنا -.. والقاعدة الثانية أن يسأل الإنسان بعض الأسئلة لإستيضاح بعض الأمور أثناء الحوار حتى لا يفلت منه الحوار، وذلك أيضاً احتراماً للمتكلّم حتى يقف على مضمون ومعنى ومبنى ما يقول، ولا يفوّت كلمة من كلمات المتكلّم.. والقاعدة الثالثة ألاّ يقاطع الإنسان من يتكلّم معه، لئلاّ يقطع ويُفسد سياق الكلام وتيار الأفكار المتدفّق.. وفى عدم المقاطعة للمتكلّم، فيها تشجيع للمتكلّم لكى يستمر ويعبّر ويتحمّس ويتدفّق فى حديثه.

ومن هُنا يُدار الحوار على أرضيّة سليمة ملؤها الحماس والقوة والسلاسة.. فأنا أُحسن استماعك ولا أقاطعك وأستفسر عما غمض علىّ من حديثك ببعض الأسئلة الاستفساريّة.. وبالتالى يكون المقابل أو المردود أنّك تُحسن استماعى وعدم مقاطعتى وتستفسر منّى عما غمض عليك من حديثى.. وهكذا يمضى الحوار بيننا فى أخذ وعطاء ونمو وتجدّد بلا نضوب.

ومن اللطيف حقّاً أن يكون الحوار صريحاً بين الطرفين، خصوصاً بين الزوجيْن.. ولكن الصراحة لابد وأن تكون غير جارحة.. فالصراحة مضمون.. والأسلوب الجارح أسلوب.. بمعنى أنّه إذا كان المضمون للكلام يحمل الصراحة والوضوح، فأسلوب الكلام لابد وأن يكون عطوفاً حنوناً لا جارحاً.. وهذه قضية فكرية من الطراز الأول مؤداها أن الشيء يختلف عن أسلوب التعبير عنه.. فالشيء

تمثله كلمة «ماذا؟» أمّا التعبير عن الشيء، فتمثله كلمة «كيف؟».. وكثيراً ما تضيع «ماذا؟» فى «كيف؟».. مهما كانت صدق نوايا «ماذا؟»، ومهما صدقت دوافع «ماذا؟».. فماذا إذا أردت أن أقتل ذبابة تقف عليك وتضايقك، وفيما أنا أقتلها أو أضربها، قتلتك أو ضربتك؟.. وهناك مثل أجنبى يقول: «لا تُلقى بطفلك مع المياه وأنت تنظفه!».. بمعنى أنّك فيما تنظف طفلك من اتساخاته، احترس لئلا تُلقِى به، فيما أنت تلقى بالماء المُتسخ خارجاً.. وتكون النتيجة أنك تفقد طفلك أيضاً!.

والعلاقة الأسرية كما الطفل البرئ، والمطلوب من أعضاء الأسرة، بخاصة الأب والأم، أن يحافظوا على هذا الطفل وينمونه ويرعونه لكيما يكبر، أمّا أن يُهْمل الطفل أو تُهمل العلاقة الأسرية والزيجية، فهذا لا يعنى شيئاً سوى الضياع والفقدان.. فيمكننى أن أنقدك أو أعارضك ولكن بأسلوب حضارى محب ودود دون ابتذال ولا تشفيٍّ ولا كلمات شريرة باسم الدفاع عن الحق، والنقد الجرئ، والرفض المُطْلَق!.

لذلك من مزايا الحوار الفنى الجميل أن يتجنب «لَوْم الآخرين بشدّة»، خصوصاً إذا كانت نغمة اللّوم هذه موجودة بين الزوجين.. وهكذا يقول «ديل كارينجى»: «ينبغى أن تذكر فى معاملتك للناس أنك لا تعامل أهل منطق.. بل أهل عواطف ومشاعر.. لا تلجأ للّوْم فى كلامك.. فاللّوْم شرارة خطيرة فى وضعها أن تضرم النار سريعاً.. إن أى إنسان يمكن أن يلوم ويتهم وينتقد.. ولكن ليتنا بدلاً من أن نلوم الآخرين نلتمس لهم الأعذار.. فهذا أمتع من اللّوْم!».

وإذا كان هناك حديث فى العيوب أو النقائص، لأجل الاصلاح لا لأجل الاحراج والتشهير، فلابد أن يكون الحوار متقناً وفنيّاً.. وقد قال أحدهم: «الذى لم يتعلّم بعد فن الحوار نراه (يطرش) هذه العيوب بطريقة تدمّر أعظم نفسيّة..

والعجيب أنّه يظن فى تدميره هذا أنّه جرئ وحقّانى وغير مُنافق ومبدأه فى ذلك، المثل العامى [أنا أقور للأعور أعور فى عينيه] !» .. فما رأيك ؟.

أظن أنّه أسلوب خاطئ تماماً.. إنّما فى حوارك مع الآخر، بخاصة مع زوجتك أو أحد أبنائك، فابدأ بالمزايا قبل العيوب.. وبالمديح قبل إظهار العيوب والنقائص.. وإيضاح الإيجابيات قبل السلبيات، والنقاط البيضاء قبل النقاط السوداء.

وجميل أن يكون الحوار متسماً بالاحترام.. ويُحكى عن ذلك حكاية طريفة عن مسئولة فى حضانة للأطفال، أرادت أن تتعرّف على أمهات الأطفال الصّغار لأجل أن تنظر فى أى مشكلة فى حياتهم أو فى أسرهم، فأخذت تسأل كُلّ طفل وطفلة عن اسم أمه أو أمها إلى أن سألت طفلة عن اسم أمها، وحاولت الطّفلة أن تتذكر اسم أمها، فلم تستطيع، وأخيراً قالت: «نعم نعم.. تذكرت اسمها.. ماما اسمها عزيزتى.. فأنا أسمع بابا دائماً يناديها قائلاً (يلا عزيزتى) !» .. ولا تعليق!.

فليست «شدة الألفة» مبرراً «لرفع الكُلفة» تماماً.. فأحياناً عديدة، يظن الإنسان أنّ العلاقة بينه وبين الآخر، طالما اقتربت جدّاً وتوطّدت جدّاً، أيّاً كانت علاقة عمل أم علاقة زواج أم علاقة أب بابنه أم أم بابنتها أم أى علاقة إنسانية أُخرى، أقول قد يظن الإنسان أن العلاقة الإنسانية الوطيدة المتقاربة، تعنى من ضمن ما تعنى ألاّ كُلفة (أو ألاّ احترام) هناك.. وكأنّ الأُلفة أو الحبُّ أو التقارب معناه عدم الاحترام أو عدم التقدير.. والحقيقة أن عدم الاحترام طريق لعدم الحبّ تدريجياً، لأنه فى عدم الاحترام، المهانة.. ومع تكرار المهانة يقلّ الاعجاب ويفتر الحب ويتبخر الود، ويحلُّ محل الجميع، العضب والتنابذ وقد ينتهى الأمر بعد فترة إلى الكراهية.

فاجعل «قنوات الحوار» مفتوحة.. وأى انسداد لقناة من هذه القنوات، يؤدى

إلى تراكم المشاكل ما بين الزوجين وأفراد الأسرة.. والتراكم يؤدى إلى التحامل، أن يتحامل كل فرد على آخر.. وكثيراً ما لا نعتاد على الحوار بل على «العراك»، فيزداد الهمُّ والغم، ذلك لأنَّ المشاكل لا تجد لها تصريفاً من خلال «قنوات الحوار».. على أن تكون حواراتنا ليست حوارات «طرشان» كأنَّ يتكلَّم الكُلُّ ولا أحد يسمع.. بينما الحوار ينبغى أن يكون راقياً وأصيلاً.

يعرض «د. مجدى إسحاق» شروطاً أصيلة للحوار الأصيل، فيما يلى :

- الحوار ليس لكسب معركة، ولكن لكسب الحبِّ بين المتحاورِّين.
- الحوار لابد أن يكون قائماً على التفهُّم والتفاهم.
- الحوار يتأسَّس على التصارح والوضوح.
- الحوار مؤسَّس على ثلاثة أسئلة، عندما يتحاور شخص مع آخر، والسؤال الأوَّل، يسأله المتكلم لنفسه، بينما يسمعه السامع لكلامه،: هل فلان الذى أكلمه أو أحادثه، هل سمعنى؟.. وسؤال آخر: هل فهمنى؟.. وسؤال ثالث: هل قبلنى؟.

فقد يسمعنى أحد، وقد لا يسمعنى (أقصد: قد ينصت إلىّ ويستمع إلىّ حسناً، وقد لا!).. وإن سمعنى، فهل فهم ما أقول؟.. وإن كان قد فهم ما أقول لعلَّه يقبلنى.. والقبول هنا قبول نفسىٌ قبل أن يكون قبولاً ذهنيّاً.. فهو يقبل أن يسمعنى ويفهمنى.. والقبول هنا «قبول تفاعلى» : أتفاعل معه، وهو معى على مستوى النفس والعقل والكيان.

والحوار تفاهم.. والتفاهم تقارب.. والتقارب مشاعر قبل أن تكون منطقاً أو عقلاً!.. فأنا أحبك، لذا من السهل علىّ أن أسمعك وأفهمك وأقبلك.. نعم أقبلك بمزاياك وعيوبك.. أقبل شخصك.. أقبل نفسيتك.. فأنا لا أحب صفاتك فحسب بل بالأحرى أحب شخصك.. ولا تسألنى ماذا أحب فيك؟.. لأنِّى لا

أستطيع بالتحديد أن أحدِّد ذلك؟.. إنَّما هو الحب مولود فى قلبى.. حبك أنت بكل كيانك لا جزءاً منك ولا صفة ما فيك..

يا أعزائى، هذه هى لغة الحب.. لغة الحوار بالحب، قبل أن يكون الحوار بالكلمات.. فطالما سكن الحب قلوب الناس، انساب الحب فى لغتهم وحواراتهم سويّاً، حتى وإن اختلفت اللغات وتباينت اللهجات.. فهناك تفاهم قائم على حوار القلوب!.

ثالثاً: أغصان الأسرة:

سبق أن تكلمتُ عن الأغصان، وأنَّ هذه الأغصان ما هى إلا أبناء وبنات الأسرة.. هذه هى الغُروس فى تُربة الأسرة.. والأزهار فى حدائق المجتمع.. ويمكنك اعتبار هذا الموضوع، موضوعاً تربويّاً، يخاطب الوالدين بخصوص أبنائهم وبناتهم.. كما يلى:

١- الفرق بين التربية والإغاظة:

من الحكم البليغة، القول: «لا تغيظوا أولادكم».. فقد تظن أنَّك فيما تغيظ ابنك، أنَّك تربيه.. ولكن هناك فرق ما بين التربية والإغاظة.. وكثيرون حدّاً من أولادنا يفشلون بسبب الإغاظة.. والسؤال هو: ما معنى «لا تغيظوا أولادكم»؟.. المعنى ألاَّ تتعمَّد أن تستهتر بمشاعر ابنك أو ابنتك، وألاَّ تقهر حريته وخصوصيته، وألاَّ تسيء تربيته، بحيث تظلمه فيما أنت تظن أنَّك تربيه وتقوِّمه.. فإذا ما أخطأ، فللخطأ عقوبته، ولكن ليست كُلُّ عقوبة أو تأديب هى عقوبة عادلة أو تأديب صحيح.. فلابد من حدوث توازن ما بين الخطأ والعقوبة أو التأديب، حبحيث لا يأخذ الخطأ أكثر مما يستحق من عقوبة أو تأديب.. وكذلك فى الحنان أو العطف الأبوىّ تجاه الأبناء والبنات.. لابد من وجود توازن ما بين الحنان أو العطف، وما بين الحزم أو الشدَّة، بحيث لا يطغى الحنان أو العطف جدّاً على الحزم، فينقلب

الحال إلى تدليل.. أو أن يطغى الحزم جداً ويتسيَّد على الحنان، فينقلب الحال إلى قساوة وتشدُّد زائد.

والإغاظة تسبب الفشل للأبناء والبنات.. فالظروف الأسرية غير السليمة.. والتربية السيئة يؤديان إلى الفشل.. والفشل قد يكون فشلاً فى الشخصية ذاتها أو فشلاً فى الحياة أو فشلاً فى الدراسة أو فى العمل أو فى بناء الأسرة فيما بعد أو.. أو.. ويا له من فشل مرير يلقى ببصماته على حياة الابن أو الابنة كُلِّها فى احباط شديد.

أعجبنى جداً قول أحدهم: «إذا كُنّا، لكى نحصل على شهادة جامعيّة مثلاً، نتعب جداً ونجاهد للغاية سنوات وسنوات، فلماذا لا نتعب لكى نتعلّم كيف نبنى أسرة سعيدة وصحيحة؟!».. إذاً لابد من دراسة أصول التربية وبناء الأسرة والزواج السليم قبل الشروع فى الزواج بل فى الخطوبة أصلاً!.

وكثيراً ما تكون الإغاظة عن جهل لا عن عمد!.. فعندما يجهل الوالدان كيفية تنشئة أبنائهما، وطرق التعامل معهم بشكل سليم وصحيح نفسيّاً، وفقاً لقواعد التربية وعلم النفس.. مع ضرورة الوضع فى الاعتبار: «تغيُّر الجيل»، فالآباء من جيل ليس هو جيل الأبناء.. فالمطلوب يا عزيزى الأب – أن تدرس «خريطة ابنك» جيّداً، لكى تتعرّف على صفات مرحلته.. وكثير من الآباء والأمهات ينسون أو يتناسون مراحل حياتهم السابقة.. ويتغافلون عن السمات الخاصة والعامة بأبنائهم.. وأنا معك – يا عزيزى – أن الموضوع صعب، وأن التربية طريق وعر.. ولكنّه طريق صحيح وسليم وضرورى للتنشئة.. فأنت تبنى ابنك.. وتقيم صرح ابنتك.. والبناء صعب، بينما الهدم سهل.. فما الذى تجنيه من أرض لم تتعب فيها ولا فى فلاحتها وزراتها؟.. أعتقد أنّك لن تجنى فى هذه الحالة سوى الرّياح وقبض الرّيح، لا أكثر!.

و «اللا تربية» تؤدى إلى الإغاظة.. والإغاظة ضياع للابن أو الابنة.. وأيضاً «سوء التربية» إغاظة.. وإفساد وفساد للابن أو الابنة.. فإذا وضعت شيئاً ما فى «ثلاجة»، ولكن وضعك لهذا الشيء، كان بشكل خاطئ فى هذه «الثلاجة»، فماذا تكون النتيجة سوى فساد هذا الشيء؟.. هذا هو «سوء التربية»!.. وعلى الجانب الآخر، إذا لم تضع الشيء فى الثلاجة من الأساس، وتركته خارجها، فما النتيجة سوى فساد الشيء أيضاً.. وهذه هى «اللاتربية» أصلاً!.

قال أحد المربين قولاً حكيماً، مُوَجَّهاً للآباء: «كُنْ - كأب - حامياً لأولادك لا حامياً عليهم!!».. ولا تعليق، فالقول يحمل أعمق تعبير عن أصول التربية السليمة.. فأنت - كأب - ينبغى أن تحامى لأولادك.. فأنت تحميهم من أنفسهم ومن أخطائهم ومن ظروفهم القاسية.. أنت أب عطوف على ابنك، حامى له لأنّك تحبه، وفيما أنت تحبه، ولغرض أن تكون حامياً له، تضطر رلى استخدام القوّة والشدّة والحزم فى التربية لا لكى تتسلّط أو تتسيّد أو تنتقم أو تكون حامياً أو مشتعلاً بحب الكرامة الأبويّة، بل لكى تحقق «فائدة مرجوّة» لفلذة كبدك، لا أكثرا.. فأنت «حامياً لأولادك» لا «حامياً على أولادك»!.. فالحزن عطف وحب لأجل مصلحة أولادك لا لأجل مصلحتك الشخصيّة أنت، ولا بهدف استرداد كرامتك الأبويّة التى تظن أنّها أُهدرت أو تُهدر عندما يرتكب ابنك أخطاءً فى حقك أنت شخصيّاً أو فى حق الآخرين.

لذلك، كانت بليغة كلمة الكاتب والمفكر «كوستى بندليّ» (اللبنانى) القائلة: «هل علاقتك بابنك علاقة امتلاك أم اطلاق؟».. وهو يقصد: هل علاقتك - كأب - بابنك علاقة أب يمتلك ابنه ويمحو شخصيته وكيانه، ويختصرها ويقبرها فى شخصيتك الأبويّة أنت، وكأن ابنك صار امتداداً لك وتوكيداً لذاتك أنت أم أنّ هذه العلاقة هى علاقة حب تؤدى إلى إطلاق حرمان طلاق شخصيّة ومواهب وصفات وحياة إبنك؟!.

٢- تربية القرار:

لا تصدر أوامر طوال النهار، ولا تصدر نهائياً أوامرك عن تسلُّط وتحكُّم وقهر.. ولا تصدر نواهٍ طوال العمر.. فالأبوَّة والأمومة ليست أوامرٍ ونواهٍ.. فالأهل ينبغى أن يكون أصدقاء لأبنائهم وبناتهم.. ولاحظ - يا عزيزى - كلمة أو خطورة كلمة «أصدقاء» هذه.. فما هى الصداقة إذاً؟.. أليست هى التصارح والتوافق والتقارب بين الصديقَين؟.. فأنا مرآة لصديقى، وهو مرآة لى.. وكلانا يكشف ذاته وحياته للآخر بلا زيف ولا خجل ولا مواربة.. هو كشف كامل بلا تخبئة.. فماذا لو كانت علاقة الشفافيَّة والمصارحة والكشف، على هذا المستوى بين الأب والابن أو الابنة.. وبين الأم والابن أو الابنة.. بل وقبل ذلك وبعده، بين الأب والأم ذاتيهما؟.

ومن القواعد الشهيرة فى التربية، القول الآتى: «نحن لا نخف أبداً على ابن يعرف كيف يرتمى فى حضن أبيه ويحكى ويحكى له، ويبكى فى حضنه!».

ومع جو الصداقة السائد بين الآباء والأبناء، يتولَّد الثقة فى الأبناء، وتتدافع الثقة بالأكثر فيهم.. ومع الصداقة والصِّدق والثقة بين الآباء والأبناء، يمكن أن يعطى الآباء لأبنائهم الثقة فى «إتخاذ القرار» فيما يخصُّهم.. وذلك بالطبع تحت إشراف الأب والأم.. ولكنَّه الإشراف غير المباشر، الإشراف الحكيم غير الخوَّان للأبناء والبنات.. و «إتخاذ القرار» ليس بالطبع فى كُلِّ ما يخصُّهم، ولكن فى بعض ما يخصُّهم.. وليس إتخاذ القرار فى الأمور المصيرية أو الجوهرية فى حياتهم، ولكن فى أمور أخرى ثانوية.. وإذا سألتنى عن الأمور الجوهرية فى حياتهم، ولكن فى أمور أخرى ثانوية.. وإذا سألتنى عن الأمور الجوهرية فى حياتهم، لقلت لك بضرووة وجود المشاركة فى إتخاذ القرار والرأى ما بين الإبن ووالديه.. هذا مطلوب ومقبول جداً.

فالمناقشة ضرورية.. والحوار مطلوب.. والقرار مشاركة وشراكة جميلة بين

كُلِّ الأطراف!.. ولعلنّا نعلمُ أبناءنا «كيف يختارون» ؟.. وهذه قضية أُخرى.. أن أعلمُ ابنى كيف يختار، وكيف يُحسن الاختيار فيما يختار؟.. ولكن أن أتبنّى – كأب – قضية «المنع.. المنع» فهذا ليس من التربية فى شىء.. فلابد أن يجرِّب ابنى الحياة.. ويخطئ ويُصيب.. ومن الخطأ يتعلّم أكثر مما يتعلّم من الصواب.. ولكن أن أمنع.. وأرفض.. وأقهر.. وأقول (لا) دائماً لإبنى، فأنا بذلك أخنق زهور التربية فى مهدها!!.. وهنا أنا أُملى إرادتى على ابنى وأقهره على قبولها، وكأنىّ بذلك أمحو شخصيته و مَلكاته واستقلاليته تماماً، وتصبح شخصيته «صورة كربونية» من شخصيتى – كأب – ويضيع كيان إبنى، ويصبح معدوم الكيان والشخصية وكمّاً مُهَملاً فى مُستقبل أيّامه!.

والسماح للأبناء بقول (لا) أحياناً ضرورى لتقوية شخصياتهم عن طريق تنمية استقلاليتهم، لأنّ كلمة (نعم) دائماً دائماً تؤدى إلى الخنوع والخضوع المدمِّر للشخصية والخانق لها.. فهذه هى مساحة الحرية المطلوبة للنمو النفسى والاجتماعى للأبناء.. خصوصاً فى المراحل الأولى لتكوين شخصية الإنسان، فى المراحل الأولى من طفولته، خلال الست سنوات الأولى من عُمْرِه.. فتربية الحرية تخلق أناساً أحراراً!.

وأيضاً تربية الحزم تخلق القوّة فى الشخصية، وتزرع فيها (مع اعتبار الحرية طبعاً) نمواً وفضائل وسمات وخصائص جميلة وعميقة وقوية ومُثمرة، وتغدو النفس كجنّة فيحاء مُحملّة بالثمار الشهية التى تسعد بها النفس ذاتها، ويسعد بها الآخرون معها.. ولكن – وكما قلتُ مراراً وتكراراً ولا أملُّ لأنّ هذا هو الأمل فى التربية الناجعة – أقول كرَّرت كثيراً أنّ الحزم شىء، والقساوة أو القسوة شىء آخر تماماً.. فالحزم يخلق شخصية واعية قوية فعّالة.. ولكن القساوة يخلق شخصية خانعة أو خاضعة وفيها روح عبودية وإذلال وتذلّلُ «وعدميّة شخصيّة».

ومن دواعى الحزم: «تربية إتخاذ القرار» بلا ميوعة الاعتماد على الأهل فى

تدلُّل مرفوض، أصله أو أساسه هو التدليل.. وأقصد بذلك أن تربية الحزم هى تربية القوّة فى نفوس الأبناء.. ولا قوّة لهم بدون كيفيّة إتخاذهم لقرارات حياتهم وابداء الرّأى فيها.. أمّا التدليل أو تربية التدليل لا الحزم فهى تؤدّى إلى أن يتدلّل الابن بالأكثر، لأنّه اعتاد على ذلك تماماً.. وبالتالى فهو يعتمد على أهله دون نفسه فى إتخاذ قراراته.

فساعد ابنك إذاً فى إتخاذ قراراته، ولا تأخذه نيابةً عنه.. بل فكّر معه، وهو معك للوصول إلى الحلّ المُناسب دون أن تُملى قرارك على ابنك لكى يتحمّل مسئولية إتخاذ القرار، ولا يتهرّب من المسئوليّة، ولا يُحيل فشله إلى الآخرين بدعوى أنّهم هم الذين اتخذوا القرار نيابة عنه!.

٣- التشجيع والتقدير:

إنّ كُلّ إنسان، مهما علا مقامه وارتفع شأنه، هو فى حاجة نفسية إلى التقدير والتشجيع، فما بالك بالنسبة للأبناء والبنات، فهم يحتاجون بالأحرى إلى مزيد ومزيد من التقدير والتشجيع.. فالنجاح أساسه النجاح.. وكلمات مثل «مش نافع» أو «مش نافعة» أو «انتَ كده ما بتفهمش» أو «انت ما عندكيش مخ» أو «انتَ غبى» أو «انتِ بنت غبيّة»، كُلُّ هذه الكلمات السلبيّة وغيرها، من شأنها أن تؤدى إلى إفشال الأبناء والبنات، فالمفروض – هكذا يقول علم التربية – أنّ كلامك مع أولادك يكون هكذا: «٩٠ ٪» تشجيع، و «٩ ٪» توجيه، و «١ ٪» تأديب أو عقاب.. وهذا التأديب بهذا المعنى يكون بمثابة «ملح فى طعام التربية».. وكما أن الملح فى الطعام قليل، ولكنّه مؤثّر، كذلك التربية التقويميّة أو التأديب التربوىّ أيضاً!.

فكلمة التشجيع توثّر جداً فى نفسية الأبناء والبنات، وتجعل منهم طاقات إيجابيّة جبّارة للعمل والنجاح والتفوّق بل والابداع أيضاً.. فالتشجيع يرفع

النفسية، ويقوّمها، ربما أكثر بكثير جداً من التأديب أو الترهيب. فالحب صانع للمُعجزات - كما يقولون - وإذا كان لديك ابنان مثلاً، واحد ناجح ومتفوّق، وآخر فاشل في أمور ما في حياته أو في دراسته، فهل من اللائق والصائب تربوياً ونفسياً أن نشجّع الناجح وحده دون الفاشل؟.. هل الطبيب عمله أن يعالج الصحيح أم السقيم؟.. أليس في هذا اتباعاً لعكس القواعد التربوية القويمة المنشّئة للجيل على أسس نفسية سويّة؟.. بل على العكس، إذ لربما الفاشل يحتاج إلى مزيد ومزيد من العناية النفسية والحِصن النفسي التشجيعي المفتوح، أكثر من الناجح.

فالمقارنة بين الأبناء مرفوضةً تماماً، فأن تقارن ابنك الذى فى حياته مساحات من الفشل مع ابنك الآخر مثلاً الذى فى حياته نجاحات عديدة، وتنهر ابنك الفاشل وتقول له: «يا فاشل.. انظر إلى أخيك وتعلّم منه.. هو أفضل منك.. أنت متكاسل.. هو أحسن منك.. هو نشيط عنك.. هو.. وهو.. وهو».

أبشّرك - يا عزيزى - إن فعلت هذا، فأنت هو الأب الفاشل مع أبنائك وليس هو الابن الفاشل بالحقيقة.

وصادقة هى الكلمة: «إن فشلك - كابن - هو فشلى - كأب - معك.. إن عيوبك - كابن - هى قصورى فى تربيتى لك - كأب!».

فنحن مرايا لأبنائنا.. وهم مرايا لنا.. ما نفعله أمامهم، وما نقوله وما نفكرٌ فيه - حتى - ينعكس بالقدوة وبالإيحاء وبالتربية، شعورياً ولا شعورياً على أبنائنا، فهم يمتصوننا، ونحن ندرى أولا ندرى.

ونعود ونكرّر ونؤكدً على التربية ومدى أهميتها، وضرورة أمانتها، وأمانتنا مع أبنائنا من حيث الاحتضان والاحتواء والتشجيع والتأديب والتقدير والتقويم.. فأنا أشجع إبنى لكى يفعل، وأن أخطأ وهو يفعل أنبهه وأوجهه، وإن أهمل أؤدبه، وإن نجح أقدّره لكى أدفعه إلى مزيد من النجاح على كافة المستويات!.

٤- الاستقلاليّة:

وإن كنتُ قد تحدثْت عن الاستقلاليّة فى حياة الأبناء والبنات، وفى هذه النقطة بالتحديد أود أن أركّز بالأكثر على موضوع الاستقلاليّة باعتبارها أساسية فى الإعتماد على النفس، وبالتالى الخروج من عباءة الأسرة فى اعتمادية محببة على النفس، ويتم هذا الخروج بالتدريج، ويظهر هذا الخروج المستقل للنفس عن سلطان والقيود الحديدية للأسرة (مع وجود رقابتها بالطبع ولكن بشكل غير مُباشِر)، أقول يظهر هذا الخروج بوضوح فى الإغتراب فى فترة الدراسة الجامعية أو عند التعيين فى عمل فى بلدٍ أُخرى.. وهذا الإعتماد على النفس يتم بالتدريج وعبر التربية، وكذلك «تخزين» «القيم» و «المهارات» بداخل الابن أو الابنة حتّى يقدر أو يقدر على الإعتماد على النفس فى المستقبل بانطلاق وإطلاق للإمكانيات و «المهارات» و «القيم» بصورة حياتيّة وعملية ومُترجمة على أرض الواقع.

وهذه الاستقلاليّة هى تدريب للأبناء على تحمل مسئوليات الزواج وتأسيس بيوتهم المستقلة فيما بعد.. لذلك فالزواج هو «ترك» و «إلتصاق».. أمّا «الترك» فيُقصد به أن الابن بعدما يترك أباه وأمّه بالزواج، مكانيّاً، فلابد أن يتركهم نفسياً أيضاً، وهذا هو معنى «الفظام النفسى» للابن عهن والديّه. فماذا أترك لمّا أترك أبى وأمى بالزواج.. يقول «د. نبيل باقى» فى محاضراته عن الأسرة: «أترك الحب الطّفلى لأبى وأمى، وكذلك إعتمادى عليهما فى إتخاذ القرار.. وأترك الإحساس بالأمان مع أبى وأمى»، وأترك الاهتمامات الطفولية فى بيت أبى وأمى، وأعيش إحساس المسئولية والرجولة وتحقيق الأمان لطرف آخر هو الزوجة».

هذا عن «الترك»، فما هو «الإلتصاق»؟.. إن «الإلتصاق» هُنا يُقصد به أن يتحد الزوج بالزوجة فى حياة أسرية لها استقلاليتها وقوّتها ونموّها، والزواج أسرار

بين الزوج والزوجة.. وهذه الحياة المشتركة بأسرارها يجب أن تُغلق دونها أبواب بيت الزوجية بلا إنفتاح الأبواب «على المشاع».. فالبيت المفتوح الأسرار للجميع، للأقارب والجيران والأهل، إنّما هو بيت مُستَبَاح، يجعل الشارع فى البيت!!.. بل كثيراً من التربويّين يَرَون فى الأُسرة المثالية الصحيحة ألاَّ تتدخَّل فى شئونها ولا تسائلها الأُسرة الكبيرة ولا تقتحم عليها حياتها.. فالمعروف نفسيّاً وواقعياً أن تدخل الكبار فى شئون الصِّغار، يفسد عليهم حياتهم بشكل غير مُحبَّب.

٥- مفاهيم تربوية:

- من الخطأ أن تأخذ البنت أوامر من أمها.
- أحياناً تستعيض الأم عن الزوج بابنها وكأنَّه نفسيّاً ملتصقاً بها جدّاً.. وهو ما يُسمَّى «بالتعويض النفسى» عن فقدانها زوجها بالموت أو بالطلاق.
- المطلوب إكرام الأبناء لآبائهم وأمهاتهم فى الكبر.. وليس الإكرام هُنا مناقضاً «للترك».. إذ أن الإكرام فيه رعاية لهم وإهتمام بهما فى مرضهما وحياتهما وعدم إهانتهما والعناية بهما، وخصوصاً إذا حدث انتقال للأب أو الأم، فهذا هو دور الابن نحو الأب أو الأم المتبقيَّة على قيد الحياة، إذ لابد من الإكرام والرعاية.. والإنسان الذّى لا يكرم والديه فى كبرهما هو شخص ملوم أمام الله.
- التعهدات الزيجيَّة من حب وحنان وثقة وإخلاص ومغفرة وحب باذل وحب زيجىّ جسدى.. كُلُّ هذه التعهدات وغيرها هى التى تودّى إلى إنجاح الزواج والأسرة، وتضفى هالة من الإشراق والنور على كلّ فرد في الأُسرة، بشكل متوازن ومستمر.
- عندما يقول أب لابنه: «أنا لا أرجع فى كلامى أبداً».. مهما كان كلام الأب خاطئاً، فهو لا يراجع نفسه أبداً.. من يقول ويفكرّ ويفعل ذلك، إنّما ينم بذلك على القساوة وعدم المحبّة والكبرياء وعدم المحبّة الحقيقية لإبنه.

- إن العنف فى الأسرة يؤدّى إلى شخصيّات مريضة لعدم إحساسهم بالأمان، وبعض هذه الشخصيات، عندما تكبر، تصبح عدوّة لمجتمعها، وتعادى قيم الحياة ذاتها.

- من المهم تعويد الابن والابنة على التعبير عن المشاعر والعواطف بشكل متوازن بلا «كبت» فليس عيباً أن تعبّر - يا عزيزى - عن مشاعرك بوضوح، وتكون صادقاً فى ذلك.. على أن يكون التعبير «بلا عصبيّة» وبمهارة اجتماعية، بحيث لا تفقد توازنك الاجتماعىّ والانفعالىّ.. والتعبير ليس عن المشاعر فقط بل عن الأفكار والقيم أيضاً.. فأنت ما تعبّر.. والناس تفهمك بحسب تعبيرك أمامهم ولهم.. وهذه هى القدرة على التوصيل الاجتماعىّ للآخرين.. بلا زيف ولا مواربة بل بأمانة وصدق لازمين لاكتساب ثقة الآخرين.. وإن كنت - كأب -هكذا أنت، كذلك يكون ابنك بالقدوة والتربيَة التّى تقدّمها له.. وأكرّر القول لأهميته القصوى: «التربية امتصاص للوالديْن.. فالوالدان مرايا لأبنائهم، والأبناء والبنات مرايا لآبائهم وأمهاتهم دائماً».

مراجع الكتاب

١ – كيف نربى أبناءنا..؟ (د. سعيد إسماعيل على).

٢ – طفلك أذكى مما تتصور (منير عامر).

٣ – اسرار المرأة فى عيادة الطبيب النفسى (أمينة السعيد).

٤ – الجنس ومعناه الإنسانى (كوستى بندلى).

٥ – رجولة وأنوثة (د. عادل حليم).

٦ – دع القلق وابدأ الحياة (ديل كارينجى).

٧ – قوة التحكم فى الذات (د. إبراهيم الفقى).

٨ – ومضات وقائية نحو أسر قوية (م. شوقى توفيق).

٩ – تنمية عقل وذكاء الطفل (د. يعقوب الشارونى).

١٠ – الزواج... رسائل للشباب (د. وليم الخولى).

١١ – ابنى عنيد.. من مشكلات التربية (كمال حليم).

١٢ – العنف داخل الأسرة (مقالات متنوعة).

١٣ – التشجيع (د. مجدى إسحاق).

١٤ – فن السعادة الزوجية (د. مجدى إسحاق).

سيكولوچية الأسرة

الرجل - المرأة - تربية الأبناء

تأليف

أ / مايكل نبيل

ماجستير فى التربية (قسم علم نفس)

مؤسسة شباب الجامعة







ISBN: 978-977-212-223-5

9 789772 122233

مؤسسة شباب الجامعة

40 ش د / مصطفى مشرفة

تليفاكس :4839496 الإسكندرية

Email:shabab_elgamaa2@yahoo.com